الاتجاهات الحديثة فى المباحث التاريخية والأثرية الخاصة بالشرق القديم

١ — تمهيد

ظهر فى عام ١٩٥٠ كتاب عن تاريخ مصر وغرب آسيا فى العصور القديمة لعالمين شهيرين وهما المرحوم إسكندر شارف عالم الآثار المصرية وأنطون مورتجات عالم التاريخ والآثار فى غرب آسيا(١) ، وفى آخر هذا الكتاب نرى استدراكاً لمورتجات أضافه إبراء لذمته أمام القارئ فيقول إنه انتهى من كتابة الجزء الخاص به فى صيف ١٩٤٩ ولكن فى الفترة التى مرت حتى البدء فى طبعه فى أغسطس ١٩٥٠ ظهرت أبحاث هامة جديدة وستظهر أبحاث أخرى أثناء الوقت الذى يستلزمه طبع الكتاب ولهذا يعتذر إلى القارئ إذا لم يجد تنوبهاً عن أحدث الآراء التى كتبها العلماء أو أحدث أنباء الاكتشافات ويختم كلمته بقوله : « يجد الباحث فى تاريخ الشرق القديم نفسه فى سباق مع جيش من المتخصصين من زملائه ، وهو يحس دون شك بالاعتراف بالجميل لما يفعلونه لبناء صرح هذا التاريخ ، ولكنه يجد المعلومات الأساسية فى هذا التاريخ تتغير دائماً نتيجة لتقدم الأبحاث العلمية . ولكن رغم ذلك فإن جمهور القراء بل والمتخصصين أنفسهم يحسون بالحاجة الماسة إلى جمع آلاف المعلومات المتشعبة التى تظهر من آن لآخر عن الحياة فى العصور القديمة فى غرب آسيا ، ويحسون أيضاً بالحاجة إلى الاستفادة منها لتكوين صورة عامة نرى فيها تلك التفاصيل وقد وضعت فى أماكنها فى هيكل هذا الصرح وساعدت على توضيح بعض النقط التاريخية » . وأن هذا الإحساس الذى شعر به مورتجات ليس إلا صدى لما يتردد فى نفس كل مشتغل بتاريخ الشرق القديم فى السنوات الأخيرة فقد انتهى

(١) ALEXANDER SCHARFF — *Anton Moortgat, Agypten und Vorderasten in Altertum, München*, 1950.

العهد الذي كان من الميسور فيه دراسة تاريخ مصر القديم دون الاهتمام بالحضارات أو الأمم الأخرى كما انتهى أيضاً العصر الذى كان يستطيع فيه إنسان أن يقول أنه لا يعرف إلا تاريخ بلاد الرافدين أو إيران ، ففى الوقت الذى كانت تتابع فيه أحداث التاريخ فى مصر أو فى العراق كانت هناك شعوب أخرى وحضارات أخرى وكانت هذه الشعوب العديدة ذات صلة ببعضها وكانت حضاراتها وثقافاتها تتأثر بغيرها مما كان فى بلاد الشرق إذ ذاك .

وبالرغم من مرور وقت غير قصير على دراسة الآثار المصرية ، فإننا نرتكب خطأً جسيماً إذا زعمنا أو خيل إلينا أننا أصبحنا عالمين بكل التاريخ المصرى أو أصبح فى استطاعتنا فهم كل ما أحاط بالحياة الاجتماعية فى مصر من مؤثرات فإننا بعيدون عن ذلك كل البعد ، وهكذا الأمر فيما يختص بغير مصر خصوصاً وأن البحث عن بعض هذه الحضارات ما زال فى أول عهده ، ولا يمر شهر واحد دون ظهور أبحاث هامة فى تاريخ تلك الحضارات ، ففى الوقت الذى تعمل فيه دائرة الآثار فى العراق على بحث أراضيها سواء على يد أبنائها أو على يد البعثات العلمية الأجنبية تقوم مصر بنصيبها على نطاق واسع فى هذا الميدان ، وفى الوقت نفسه تعمل بعثات كثيرة فى الأناضول وفى سوريا وفى لبنان وفى قبرص وبلاد اليونان . وهناك أيضاً فى إيران والأفغانستان والتركستان وفى الهند والپاكستان حفائر وعلماء لا يتوانون فى البحث ويوالون نشر النتائج اكتشافاتهم وأبحاثهم جهد استطاعتهم ، ومن وراء رجال هذه البعثات مئات من الأساتذة وطلبتهم ينتظرون بفارغ الصبر نتائج الحفائر ليزدادوا علماً بحضارات الشرق ويستفيد منها كل منهم فيما تخصص فى دراسته .

وليس فى استطاعة أحد أن ينكر أن أبحاثاً عديدة فى التاريخ المقارن لبلاد الشرق القديم ظهرت منذ أواخر القرن الماضى ولكن هذه المقارنة كادت تقتصر فى العصور القديمة على مصر والعراق ثم بعد ذلك مع اليونان عندما أخذت تظهر على مسرح تاريخ العالم ، ولكن منذ الأعوام الأولى من القرن العشرين بدأت الاكتشافات الأثرية تتوالى فى جهات متعددة وكان العام الذى اكتشفت فيه مراسلات « بوغازى كوى » فى الأناضول وهو عام ١٩٠٦ بداية ليصبح

تاريخ الشرق المقارن علماً له اتجاهاته وله باحثوه ولم تكد الحرب العالمية الأولى تنتهى حتى رأينا أحد كبار المؤرخين وهو المرحوم « چيمس هنرى برستد » يتخذ خطوة كبيرة فى هذه الدراسات فيقوم فى عام ١٩١٩ — ١٩٢٠ برحلة فى بلاد الشرق القديم ليمهد بذلك لتحقيق أمنيته الكبرى وهى إنشاء المعهد الشرقى بشيكاجو الذى قام بعد ذلك بإعداد مكتبته العظيمة فى شيكاجو ومتحفه وأرسل بعثات متعددة جمع لها علماء من أجناس كثيرة ممن امتازوا بالتفوق فى هذه الدراسات وكانت هذه البعثات تعمل فى وقت واحد فى مصر وفلسطين وسوريا والأناضول والعراق فكانت نتائج أبحاث هؤلاء العلماء فتحاً جديداً فى تاريخ الشرق منذ عام ١٩٢٢ حتى الآن[1] ، وكانت حفائر وأبحاث المعهد الشرقى بشيكاجو حافزاً لغير الأمريكيين فظهر نشاط غيرهم من الدول والجامعات فكان البريطانيون يعملون جادين فى بعض مناطق العراق وفلسطين ونشط الفرنسيون فى إرسال البعثات إلى سوريا وأفغانستان وإيران كما نشطت حكومات أخرى مثل الهند وتركيا واليونان للأخذ بنصيبها فى ميدان الأبحاث الأثرية ولهذا كانت الفترة بين أعوام ١٩٢٧ ، ١٩٣٩ من خير الفترات أو قل أهمها لما ظهر فيها من آثار وأبحاث .

وجاءت الحرب العالمية الثانية فتوقفت أعمال أكثر البعثات فى الشرق ولكن

---

(١) ظهرت أبحاث كثيرة لأعضاء هذه البعثات ظهر منها حتى عام ١٩٤٨ عدد ٢١ كتيباً فى مجموعة (OC) Oriental Institute Oommunication وهى التقارير التمهيدية عن أعمال الحفائر كما نشر المعهد ٦٥ مؤلفاً ضخماً عن نتائج الحفائر وهى مجموعة أخرى تحت عنوان (OIP) Oriental Institute Publication . وكانت ، وما زالت ، عناية المعهد بآثار العراق أكثر منها بآثار غيرها من أمم الشرق القديم ولهذا أصدر ١٤ كتاباً من مجموعة خاصة بعنوان . (Assyriological Studies) أما الأبحاث التى لها صبغة تاريخية فقد نشرها المعهد فى سلسلة أخرى بعنوان Studies in Ancient Oriental Oivilization (SAOC) وظهر منها ٢٥ كتاباً . وشجع المعهد نشر مؤلفات هامة أخرى بالمساهمة فى إعدادها وطبعها مثل الكتب الضخمة عن معبد أبيدوس الذى ساهم فيه وجمعية Egypt Exploration Society فى إنجلترا وبعض الكتب الأخرى عن إيران التى ساهمت فى تكاليف طبعها جامعة شيكاجو أيضاً . وبالرغم من أن نشاط طبع المؤلفات قد قل فى السنوات الأخيرة إلا أنه ظهرت بعد ذلك عدة مؤلفات هامة أخرى وما زال المعهد يؤدى بواجبه على أحسن وجه .

ظل بعضها يواصل أعماله وخاصة ما كانت تصرف عليه حكومات هذه البلاد مثل مصر والهند والعراق ، وانصرف بعض الباحثين أثناء تلك السنوات الكئيبة للدراسة ولم تكد الحرب تنتهى حتى بدأ العلماء نشاطهم فى نشر نتائج عملهم فامتازت السنوات بين ١٩٤٨ ، ١٩٥٢ بكثرة ما ظهر من الكتب عن تاريخ بعض ممالك الشرق كما امتازت أيضاً بظهور مقالات كثيرة فى المجلات العلمية سواء عن الأبحاث الأثرية التى قام بها أصحابها أو أنباء الاكتشافات بوجه عام .

وقبل أن نتكلم عن الجديد فى الأبحاث التاريخية والأثرية فى بلاد الشرق القديم يجب أن نقف قليلا لنعرف المقصود من هذا التعبير وما هى حدود بلاد الشرق القديم ومدى اتصالها ببعضها

٢ ـ حدود بلاد الشرق القديم

إذا سمع الإنسان كلمة « الشرق » فإن الذهن ينصرف فى الحال إلى جميع بلاده بما فى ذلك الصين والهند ولكن الأبحاث الأثرية فى أولاهما لم تكد تبدأ بعد بالرغم من أنه ليس لدي أحد ظل من الشك فى أن الصين القديمة كانت مهداً للحضارة مثل بلاد الرافدين ومصر والهند ولكن معارفنا الحالية عنها لا تساعدنا على الحديث عنها أو أثرها على غيرها من البلاد ، وليس يشك أحد أيضاً فى أن أقرب الحضارات إليها كانت حضارة الهند وعند هذه النقطة يقف الباحثون مترددين مرة أخرى هل يعتبرون حضارة الهند القديمة وعلى الأخص حوض السند من ضمن بلاد الشرق القديم أو يتركونها لتكون مع الصين وما تلاها من بلاد الشرق الأقصى مجموعة أخرى ! ! ولكن الرأي السائد بين علماء تاريخ الشرق القديم هو ضم حضارة وادى السند إلى ما نعرفه من حضارات بلاد الهلال الخصيب وما اتصل بها مثل الأناضول (بلاد ختى) وإيران وبلاد العرب أي أن طرفى الهلال لم يعودا يرتكزان فى مصر والعراق وإنما يرتكز أحد هذين الطرفين فى البنچاب ويرتكز الطرف الآخر فى مصر لأنه قد ثبت أن جميع الحضارات والثقافات فى هذه المجموعة من بلاد الشرق القديم كانت متصلة ببعضها فى الألف الرابع قبل الميلاد وأن حضارة بعضها أثرت فى البعض

الآخر ولم تكن بمعزل تام عن بعضها ، وكانت هناك رقعة كبيرة من الأرض فى آسيا وشمال أفريقيا وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط تسكنها شعوب جعلت من تلك البقعة من العالم المسرح الذى تطورت عليه حضارة الإنسان وتقدمه الفكرى . ولكن بالرغم من تبكير قبرص وكريت فى الاتصال بحضارات غيرهما فإن علماء التاريخ يفضلون الاقتصار – عندما يتحدثون عن الشرق القديم على البلاد التى كانت فى القارتين الأسيوية والأفريقية فقط جاعلين من حضارة كريت وقبرص أساس مجموعة أخرى من الحضارات التى دانت دون شك بالكثير لحضارات الشرق القديم ولكنها اتخذت لها طريقاً آخر وظهرت فيها ثقافات ذات طابع مختلف .

وعلى هذا فإن أهم البلاد فى الشرق القديم هى :

١ – وادى النيل – ولا يقتصر على مصر فقط بل يشمل النوبة والسودان الشمالى .

٢ – بلاد الرافدين – وما نشأ فيها من حضارات سومر وأكد وبابل وميتانى وأشور . . . إلخ

٣ – إيران

٤ – وادى السند – (الباكستان) والهند

٥ – الأناضول (بلاد ختى) وسوريا (ويقصد بها الشاطئ الفينيقى وسوريا الحالية وفلسطين وشرقى الأردن)

٦ – الجزيرة العربية

وإذا ألقينا نظرة فاحصة على هذه البلاد لوجدنا أنها تختلف اختلافاً كبيراً فى طبيعتها فمنها ما يعتمد على الأنهار مثل مصر والعراق ووادى السند ومنها ما هو جبلى وتسود فيها أرض الحشائش فى بعض الأحيان وبعضها تتخللها صحارى شاسعة تكاد تنعدم فيها الحياة ومنها أيضاً ما يعتمد فى رفاهيته على وقوعه على ساحل البحر ولهذا لا يمكننا أن نظل نردد ما كان يقول به بعض المؤرخين أو المفكرين من أن الحضارات لا تنشأ أو تزدهر إلا عند دلتا الأنهار مثل دلتا النيل ودلتا الرافدين أو السند أو دلتا نهر الوانج – هو فهناك عوامل

أخرى لها أثرها الفعال مثل البحيرات الداخلية وكمية الأمطار التى تسقط فى بعض المناطق . وقبل أن نترك هذا الموضوع بالذات وننتقل إلى نقطة أخرى يجب أن نضع فى أذهاننا حقيقة ثابتة وهى أن حضارتى مصر والعراق هما أقدم الحضارات وأهمها وأن ما ظهر فى البلاد الأخرى من حضارات أو ثقافات كان دون شك أقل شأناً من مصر والعراق واعتمد على واحدة منهما أو الاثنين معاً فقد كانت هاتان الحضارتان تلتقيان فى سوريا وهذا هو السبب الذى جعل لدراسة آثار سوريا أهمية كبرى لأن حضارات مصر والعراق والأناضول وجزر بحر ايجه كانت تلتقى فى هـ ه البقعة ، ولنترك الآن هذا الموضوع لنعود إليه بشيء من التفصيل مرة أخرى ولنطرق موضوعاً آخر وهو المقارنة بين نشأة الحضارة فى كل من مصر والعراق وأيهما أقدم عهداً من الأخرى .

٣ ــ أيهما أقدم ، حضارة مصر أم حضارة العراق ؟

اختلف علماء التاريخ القديم اختلافاً كبيراً فيما بينهم عند الإجابة على هذا السؤال فى أبحاثهم التى ظهرت فى الثلاثين عاماً الأخيرة فمنهم من تعصب وما زال متعصباً لمصر ومنهم من تعصب وما زال متعصباً للعراق ولكن تعصب هذا العالم أو شك ذلك الباحث لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً فقد نشأت فى الألف الرابع قبل الميلاد فى كل من مصر والعراق ثقافات قائمة بذاتها وأخذ كل منها يتقدم على انفراد وتطورت الحياة الاجتماعية فى كل من البلادين تطورها الطبيعى وقد توصل سكان العراق القدماء من الوصول فى بعض النواحى إلى درجة من التقدم جعلتهم يسبقون إخوانهم فى وادى النيل فوصلوا إلى ما لم يصل إليه سكان مصر فى العصر الذى نسميه عصر ما قبل الأسرات .

ومن الثابت أيضاً ــ وفقاً لأحدث النتائج التى وصلت إليها أبحاث الأثريين ــ أن جميع شعوب الشرق القديم كانت على صلة ببعضها وكانت التجارة قد عرفت طريقها بين هذه الشعوب كما أخذت الهجرات تتوالى بين بعضها وبعض ، فاتصلت مصر والعراق وكانت مصر إذ ذاك تجتاز فترة انتقال وتطلع فأثمرت هذه الصلة وأخذت مصر من العراق شيئاً من مظاهر حضارته

مثل الأختام الأسطوانية التى عثر عليها فى مقابر ما قبل الأسرات وبعض مقابر الأسرة الأولى المصرية ، وهذه الأختام الأسطوانية . كانت معروفة فى العراق فى العصر الذى يطلق عليه الأثريون الآن عصر قبيل اختراع الكتابة[١] .ولم يقتصر الأمر على الآثار الصغيرة التى يسهل نقلها كإحدى سلع التجارة مثل الأختام الأسطوانية أو رؤوس الدبابيس وغيرها بل تعداها إلى أشياء أخرى أعمق أثراً مثل بعض مظاهر العمارة كبناء الجدران ذات الفجوات الطولية recessed brick building وبدأت تظهر فى الفن المصرى تأثيرات أخرى مثل رسم السفن العراقية التى يرتفع كل من مؤخرتها ومقدمتها ارتفاعاً عمودياً ورسم الحيوانات ذات الأجنحة أو الحيوانات ذات الأعناق الطويلة التى تتقاطع مع بعضها أو الرسم السومیرى المشهور الذي يمثل محارباً بين أسدين .

ومما يثبت أن مصر أخذت هذه الأشياء عن العراق إن أكثر هذه التأثيرات والمظاهر الفنية ظلت فى العراق إلى آخر أيامه بينما اختفت من مصر بعد الأسرة الأولى لأنها كانت غريبة على البلاد وعلى ذوق أبنائها فمصرت منه ما استساغته

---

(١) يطلق اسم عصر ما قبل الكتابة أو قبيل اختراع الكتابة Protoliterate Period فى بلاد العراق على الفترة بين ٣٧٥٠ ، ٣١٠٠ ق . م . وتنقسم هذه الفترة إلى قسمين أولاها بين ٣٧٥٠ ، ٣٥٥٠٠ وتسمى Early Protoliterate Period والفترة الثانية بين ٣٥٠٠ ، ٣١٠٠ Late Protoliterate Period ثم يلى ذلك أى ابتداء من عام ٣١٠٠ تقريباً فى جنوبى العراق العصر المسمى عصر الأسرات المبكر Early Dynastic Period وهو يقابل فى مصر الوقت الذى تم فيه توحيد البلاد كلها تحت حكم ملك واحد وبدء الأسرة الأولى ، وليس معنى ذلك أن بدء حضارة مصر أو العراق بدأت فقط فى الألف الرابع قبل الميلاد فإن الحضارة فى كل من البلدين نشأت قبل ذلك بأكثر من ألف سنة ويرى فرانكفورت (HENRI FRONKFORT, *The Birth of Civilization in the Near East,* إن الحضارة السومیرية بدأت فى شمال العراق حوالى عام ٥٠٠٠ ق . م . وذلك فى العصر المسمى « عصر حسونه » ويقابل فى مصر العصر التاسى (نسبة إلى قرية دير تاسا فى مديرية أسيوط) .

أما كونتنو G.CONTENAU, *Manuel d'Archéologie Or entale)* IV, *Pa,is* 1947, p. 2063-65 فيرى أن توحيد الدلتا والصعيد فى مصر وابتداء الأسرة الأولى تم فى الوقت الذى كانت تجتاز فيه بلاد العراق عصر الوركا إلى عصر جمدة نصر وهو يتفق فى ذلك مع أكثر المؤرخين . ولكن يبقى بعد ذلك نقطة هى مثار الخلاف وهى تحديد التاريخ الذى اعتلى فيه الملك المصرى « منا » العرش وأسس الأسرة الأولى المصرية ، وسأعود إلى هذه النقطة بشيء من التفصيل فى هذا البحث .

ونبذت ما عداه . وقد حملت كثرة تأثيرات فن بلاد العراق فى الفن المصرى فى ذلك العصر المبكر ، بعض علماء الآثار على القول باحتمال هجرة كبيرة من بلاد الرافدين إلى النيل بل وصل بعضهم إلى القول باحتمال غزو أو أن أصل الملك منا من بلاد سومر ! ! ! وهى فروض لا تقوم على أى أساس علمى سليم بل هى فروض يغلب عليها الخيال لأن كل ما نراه فى مصر من تأثيرات سومرية جاء عن طريق الصلة التجارية ، وكما عثر فى مصر على آثار من العراق فقد عُثر أيضاً فى العراق على آثار من مصر وظهرت فى فنونها تأثيرات مصرية كما سنرى ، ولكن قبل أن نتحدث عن أثر مصر على حضارة العراق يجب أن نتكلم بشىء من التفصيل عن اختراع الكتابة وأى البلدين كان أسبق فى الوصول إليها .

اختراع الكتابة : هنالك اتجاه حديث بين بعض الباحثين فى تاريخ الشرق القديم لينسب إلى العراق فضل السبق فى اختراع الكتابة وليس لدى هؤلاء الباحثين دليل مادى يستندون عليه بل يعتمدون على ما يعتقدون أنه قرائن وأحدث ما ظهر فى هذا الموضوع ما ساقه فرانكفورت فى كتابه المسمى مولد الحضارة فى الشرق الأدنى الذى سبق أن أشرت إليه . ولكن بالرغم من ميل فرانكفورت للقول بأن العراق كانت أسبق وجد نفسه مضطراً فى النهاية إلى التردد فيعترف فى ص — ١٠٦ من كتابه بأن الكتابة عند ظهورها فجأة فى الأسرة الأولى فى مصر لم تكن بدائية بحال من الأحوال بل أنها مرت بفترة طويلة من التطور إذ نجد فيها علامات لتأدية المعانى ideograms وعلامات صوتية phonetie signs ومخصصات determinatives وهذا ما حدث بالضبط فى العراق فى عصر ما قبل الكتابة ولكن يراجع فرانكفورت نفسه فيقول أن هذا التشابه لا يمكن اعتباره دليلا كافياً على أن مصر تعلمت طريقة الكتابة من العراق ثم يستدرك فيقول مرة أخرى بأن أخذ المصريين للكثير من أساليب الفن السومرى وطريقة رسم الحيوانات والإشخاص بل وبعض المصنوعات أيضاً يجعلنا نميل إلى القول بأنه من الجائز أن يكون إعجاب المصريين بالفن العراقى وحضارته جعلهم يأخذون طريقة الكتابة أيضاً . ثم يستطرد فرنكفورت قائلا إن سكان

العراق اخترعوا الكتابة لتخدم أغراضاً عملية فى إدارة البلاد والأعمال الأخرى بينما كانت الكتابة فى مصر مستعملة لأغراض أخرى أهمها خدمة الفن بوصفها إلى جانب بعض الرسوم لتوضيحها وينتهى فرانكفورت من بحثه بترك الموضوع دون إبداء رأى قاطع ويقول بأنه من الجائز أيضاً أن تكون الكتابة نشأت مستقلة فى كل من البلدين ولكنه يرجح أثر العراق على مصر .

وإذا كان علماء الآثار العراقية يرحبون بمثل هذا الرأى فإن زملاءهم علماء الآثار المصرية لا يرون ذلك . فإننا إذا فحصنا هذا الموضوع بعناية فإننا نرى أن الاتصال بين مصر والعراق فى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد كان لفترة محدودة ولم يستمر بعد الأسرة الأولى لأنه لم يوافق الذوق المصري . ولم تكن مصر فى تلك الفترة بالذات أقل ثقافة أو حضارة من العراق بل أنها كانت تفوقها فى بعض النواحى وأن اقتباس المصريين لبعض الأساليب العراقية دليل على نضوج الإدراك الفنى فى مصر وتطلعه إلى آفاق أبعد من الآفاق المحلية ، وإذا كانت للعراق تأثيرات على الفن المصرى فقد أثرت مصر بدورها على العراق وكان لحضارتها فضل غير منكور على تطور الحضارة فى عصر أسرة أور إلى الحد الذى يعتقد فيه بعض كبار علماء الآثار العراقية مثل پارو Parrot بأن أصل « الزاقورة » مأخوذ من بناء الهرم المدرج الذى شيده المصريون فى الأسرة الثالثة[١] . وعلى هذا يكون التيار أتى من العراق إلى مصر فى عصر ما قبل الأسرات ولكن تيار الثقافة أخذ يتدفق من مصر إلى العراق أثناء الدولة القديمة ، ويجب أن نفرق بين تعبيرين وهما الثقافة والحضارة ونحن لا نشك فى أن بعض تأثيرات ثقافية من العراق وجدت قبولا فى مصر أما نشأة الحضارة فقد كانت مشتعلة فى كل من البلدين وكان تطور الحضارة فى مصر أسرع منه فى العراق وهذا ما جعل العالم كله يعتقد — وهو مصيب فى اعتقاده إلى حد كبير — بأن

---

(١) انظر البحث الذى كتبه جلبير أخيراً : P. GILBERT, *Synchronısmes art.stiques entre l'Egypte et Mespotamıe de la perıode thinite à la fin de l'Ancien Empire Egyptien,* فى مجلة *Chronique d'Egypte*, No. 52, (1951), p. 225-36. وذكر فيه الكثير من آراء علماء الآثار العراقية عن تأثيرات مصر فى فنون العراق .

مصر قد سبقت بحضارتها جميع بلاد العالم القديم .

أما عن أصل الكتابة فإنه لا يمكننا التسليم بما أثاره فرنكفورت وغيره من شكوك فإن أبحاث علماء اللغات[١] وعلماء الآثار المصرية[٢] أثبتت بشكل قاطع أن المصريين اخترعوا الكتابة فى الألف الرابع قبل الميلاد وإذا كانت هناك بعض مشابهات فى طريقة التعبير بين الكتابة فى مصر والكتابة فى العراق فإن هذه المشابهة إما أن تكون عرضية أو أن تكون العراق هى التى تأثرت بمصر . وقد أثبتت أبحاث جميع العلماء وعلى رأسهم زيته وجاردنر وأخيراً جداشُت[٣] بأن الهيروغليفية نشأت فى مصر وتطورت فيها دون أى مؤثر خارجى .

٤ — متى بدأت الأسرة الأولى فى مصر ؟

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة أخرى وهى تحديد تاريخ تأسيس الأسرة الأولى فى مصر فقد اختلفت كتب التاريخ فيما بينها ولم يسلم من هذا الاختلاف أحدث الكتب التى ظهرت عن تاريخ مصر فى الأعوام القليلة الماضية مثل كتاب ويلسون[٤] وكتاب شارف — مورتجات[٥] وكتاب آخر تعاون فيه فريق كبير من العلماء الفرنسيين بينهم ڤاندييه عالم الآثار المصرية[٦] وكتاب فرنكفورت[٧]

---

(١) ZYHLARZ, *Ursprung und Sprach character des altagyptischen* (*Zeitschrift für Eingebovenen Sprachen*) Bd. 23.

(٢) A. SCHARFF, *Archalologische Beitrâge zur Frage der Entstehung der Hieroglyphens chrift, Mûnchen* 1942.

(٣) SIEGFRIED SCHOTT, *Hieroglyphen, Untersuchungen Zum Ursprung der Schrift, Wiesbaden,* 1951.

ويرى الباحث فى هذا الكتاب جميع الآراء والمراجع الهامة عن أبحاث العلماء الذين تناولوا موضوع أصل الكتابة المصرية أو لغتها .

(٤) JOHN A. WILSON, *The Burden of Egypt, Chicago,* 1951.

(٥) SCHARFF-MOORTGAT, *Agypten und Vorderasien im Altertum, Leipzig.* 1950.

(٦) *Les Premières Civilizations, Paris* 1950.

وقد تعاون فيه AYMARD, VANDIER, DHORME, JOUGUET CHAPOUTHIER, CONTENAU

(٧) H. FRANKFORT, *The Birth of Civilization in the Near East, London* 1951.

الذى ناقشنا بعض نقطه والطبعة الجديدة من كتاب جوردن تشيلد(١) فنرى أن چون ويلسون حدد عام ٣١٠٠ للأسرة الأولى واتفق معه فى ذلك فرانكفورت أما شارف فقد ناقش هذا الموضوع بالتفصيل وخرج من بحثه بأن بداية الأسرة الأولى فى مصر يجب أن تكون حوالى عام ٢٨٥٠ ق . م . ولم ير ڤانديه وزملاؤه ما يدعو إلى تغيير التاريخ القديم وهو ٣٢٠٠ ق . م . فظلوا متمسكين به أما جوردن تشيلد فإنه حدد الأسرة الأولى فى مصر فى جدوله فى ص — ٢٣٢ من كتابه بأنها بين ٣٢٠٠ ، ٢٨٥٠ أى بين الرأى القديم ورأى شارف دون إعطاء تاريخ معين .

ولو أننا وازننا بين المناقشات المختلفة لوجدنا أن شارف بالغ بعض المبالغة فى تحديد عام ٢٨٥٠ كما أنه لم يصبح فى استطاعتنا بعد ظهور نتائج الحفائر والأبحاث التاريخية فى العراق واتضاح معاصرة الأسرة الأولى لعصر جمدة نصر أن نظل متمسكين بالتاريخ القديم وهو ٣٢٠٠ وربما كان أقرب تاريخ إلى الصواب هو ٣١٠٠ ق . م . وهو رأى المعهد الشرقى بشيكاجو بعد الأبحاث المقارنة الطويلة(٢) . يكفينا هذا القدر عن مصر والعراق فلنتركهما الآن ونذهب نحو الغرب لنعرف آخر أنباء الأبحاث فى وادى السند .

٥ — حضارة وادى السند

أشرت فى مستهل هذا البحث إلى حضارة وادى السند وضحت بأن الأبحاث

(١) V. GORDON CHILDE, *New Light on the Most Ancient East*, (the new 4th. edition) 1952.

(٢) لم يكن تحديد ٣٢٠٠ ق . م . لحكم الملك « منا » مقبولا من جميع رجال التاريخ المصرى فنعرف مثلا أن بورخارت L. Borchardt كان يعتقد أن ذلك يقع بين عامى ٤٠٥٠ ، ٣٨٥٠ قبل الميلاد وما زالت مرجريت مرى تؤمن بما أبداه بترى منذ مدة طويلة وذكرت فى كتابها الأخير : MARGARET MURRAY, *The Splendour that was Egypt*, London, 1949. بأن بدء الأسرة الأولى هو عام ٤٧٧٧ ق . م . ولكن أبحاث المؤرخ الألمانى العظيم أدورد ماير Eduard Meyer نزلت بهذه التواريخ المرتفعة وقبل أكثر العلماء ومن بينهم برستد Breasted آراءه ولكننا ما زلنا نرى بعض الاختلاف فنقرأ أحياناً ٣٤٠٠ وأحياناً ٣٣١٥ وأحياناً أخرى ٣٢٠٠ أو ٣١٨٠ .

الأثرية ما زالت فى أدوارها الأولى ، والمقصود من حضارة السند هو ما ظهر حتى الآن من أبحاث فى غرب شبه الجزيرة الهندية وهو يتبع الآن دولة الپاكستان ولكن عند ظهور نتائج حفائر « موهنچودارو » و « هاراپّا » عرف العالم تلك الحضارة باسم حضارة الهند ولهذا فالعلماء الآن فى حيرة لإيجاد تسمية لائقة وخير ما يمثل هذه الحيرة أن أحدث مؤلفين عن هذه الحضارة كتبها شخصان عمل كل منهما فى تلك البلاد وقام بنصيبه من الحفائر فيها وهما « هويلر » و «پيجُّوت» وكانت أولهما المدير العام لآثار الهند قبل إنشاء دولة الپاكستان . ظهر لكل منهما كتاب فى عام ١٩٥٠ وهما :

R.E.M. Wheeler, Five Ihousand Years of Pakistan, An Archaeological outline, London 1950.

والثانى

Stuart Piggott, Prehistoric India to 1000 B.C. (Penguin Books, London, 1950.

ونرى من عنوانى الكتابين أن « هويلر » أطلق اسم الدولة الجديدة على هذه الحضارة بينما ظل زميله « بجُوت » على التسمية القديمة ولكن مهما كان أمر التسمية فإننا نعرف أن الحضارة التى نحن بصددها نشأت وتطورت فى وادى السند ولهذا فضلت إطلاقه عليها .

وقد أوضحت الأبحاث التى تمت هناك بأنه كانت فى هذه المنطقة من بلاد الشرق ثقافة خاصة تأثرت بصلتها بالثقافات التى كانت فى غربيها وخاصة فى بلوخستان والهضبة الإيرانية . ولست أريد فى هذا البحث أن أصف مظاهر حضارة وادى السند أو أتحدث عن تاريخ الأبحاث الأثرية فيها ولكن أرى من واجبى أن أذكر شيئاً قليلا من هذا وذاك . فقد أصبحنا نعرف الآن أنه كانت لهذه البلاد حضارة قديمة وكانت هذه الحضارة مزدهرة فى الألف الثالث والألف الثانى قبل الميلاد وأن آثار هذه الحضارة باقية حتى اليوم فى بقايا المدن التى تم كشفها ، وعشرات بل ومئات المدن الأخرى التى مازالت تغطيها الرمال ، وكانت لهذه الحضارة كتاباتها (ولم يتيسر حل رموزها بعد) وكانت متصلة بغيرها من شعوب العالم ولكنها فجعت فجيعة كبرى فى منتصف

الألف الثانى قبل الميلاد (حوالى عام ١٥٠٠) عندما هجمت عليها قبائل آرية فاستولت على المدن وخربتها، وأذلت السكان وقضت على حضارتهم فظلت البنجاب ووادى السند وغيرهما من بلاد الهند فى حالة ركود تام حتى وجد الناس لهم فرصة للنهضة ولكنهم استعملوا عند ذاك كتابة جديدة كان أقدم ما وصل إلى أيدينا منها نقوش « أزوكا » Asoka فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، وليس بين أيدى العلماء مرجع لتاريخ هذه الفترة الطويلة إلا ما بقى فى الأساطير الدينية أو ما عساه أن يكون قد كتبه عنها بعض جيرانها .

لم تبدأ الحفائر العلمية فى وادى السند والبنچاب إلا فى عام ١٩٢٠ وخاصة فى خرائب هراپّا Harappa بمعرفة أحد الأثريين الهنود « دايا رام ساهنى » Daya Ram Sahni وبعد عامين آخرين أخذ أثرى هندي آخر « ر . د . بانرچى » R.D. Banerji ينقب فى خرائب مدينة أخرى وهى « موهنچو دارو » Mohenjodaro ونجح كل منهما نجاحاً كبيراً فى عمله ولكن السير چون مارشال John Marshall الذى كان مديراً لآثار الهند إذ ذاك تولى العمل بنفسه فكان عمله فى موهنچو دارو بين ١٩٢٢ ، ١٩٣١ وفى هراپّا بعد حفائر ١٩٢٠ — ١٩٢١ اشتغل عامى ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ .

وفى الفترة التى كان السير مارشال ومعاونوه يحفرون فى وادى السند كان السير أورل ستين Aurel Stein يوالى أبحاثه فى بلوخستان فى الجهة الغربية من وادى السند ووجد من بقايا الحضارة القديمة ما أثبت بشكل قاطع الصلة بين شمال غرب شبه جزيرة الهند وبين إيران والعراق فى عصر ما قبل التاريخ ، وكان أثرى هندى آخر لا يكل فى أبحاثه يوالى اكتشافاته فى وادى السند أيضاً بين أعوام ١٩٢٧ ، ١٩٣١ وهو المرحوم ما جومدار N.G. Majumdar الذى قتله اللصوص أثناء تجولاته بحثاً عن المناطق الأثرية فى جبال كِرثار Kirthar فى عام ١٩٣٨ .

وفى عام ١٩٣٥ — ١٩٣٦ كان إرنست ماكاى Ernest Mackay يساعد السير مارشال فى الهند ثم قام وحده بالحفر فى خرائب مدينة Chanhudaro تشانهودارو وهى إحدى المدن فى وادي السند وكانت مزدهرة فى عصر هاراپّا .

ولم يؤثر اندلاع الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٣٩ على سير الأبحاث الأثرية فظل السير أورل ستين يوالى أبحاثه فى مقاطعتى راجبوتانا Rajputana ولاس بيلا Las Bela حتى عام ١٩٤٥ وأضاف كثيراً من المعلومات الهامة عن ثقافة وفنون تلك البلاد فى أقدم عصور تاريخها ، وقد ظهرت نتائج حفائر هاراپا وموهنچو دارو وتشانهو دارو فى ثمان مجلدات بين أعوام ١٩٣١، ١٩٤٣.

وبعد الحرب العالمية الثانية دخل ميدان البحث حفار جديد كان له من خبرته السابقة فضل على تقدم الأبحاث الأثرية باتباعها الأساليب العلمية ، وهذا الباحث هو هويلر Mortimer Wheeler الذي أعاد بحث هاراپا وموهنچو دارو بين أعوام ١٩٤٥ ، ١٩٤٨ ووصل إلى نتائج لم يلتفت إليها السير مارشال من قبل وخاصة عن تخطيط الجزء العلوى من المدينة .

ولسنا هنا بصدد مناقشة نتائج تلك الحفائر ويكفى أن يطلع الإنسان على تقارير الباحثين ليدرك مدى تقدم سكان وادى السند القدماء فى فن العمارة كما تشهد بذلك بقايا مدنهم التى يرجع وقت ازدهارها إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد .

ولا شك فى أن البلاد كلها على اتساعها كانت تسودها حضارة واحدة لشعب من أصل واحد وإن تعددت مظاهر الثقافة فى الأرجاء المختلفة وقد ترك هذا الشعب العظيم وراءه كثيراً من مظاهر تقدمه الفنى فى اللوحات الصغيرة والأختام والأدوات الأخرى وبعض التماثيل للآلهة وللأشخاص وأهمها جميعاً تمثال من الحجر عثر عليه فى هجو دارو ، وجدير أيضاً بالذكر تمثال صغير من البرونز تدل صناعته على ذوق فنى ممتاز وبعض القلائد التى تشبه تماماً بعض القلائد المصرية القديمة فى عهد الدولة القديمة .

وأنه وإن كانت الأبحاث الأثرية فى وادى السند ما زالت فى أول مراحلها فإن ما ظهر منها كاف للتحقيق من أن هذه الحضارة نشأت بين أهل البلاد الأقدمين وكان لها طابعها الخاص ، ولم يكن سكان بلاد وادى السند بمعزل عن حضارات العالم الأخرى بل كانوا متصلين بسكان إيران القدماء وكان أوج صلتهم ببلاد العراق حوالى عام ٢٣٠٠ قبل الميلاد عندما أخذت بعض

آثار وادى السند تجد سبيلها إلى بلاد سومر حيث عثر عليها هناك[١] .

٦ — إيران

وهذا بلد آخر من بلاد الشرق القديم أخذ يحتل مكاناً مرموقاً لدى علماء التاريخ والآثار فقد انتهى الوقف الذى كنا نبدأ فيه معلوماتنا عن هضبة إيران بالقرن الثامن قبل الميلاد (٧١٥ ق . م .) عندما بدأ الميديون يظهرون كدولة ازدهرت فى عهد كيروس فى منتصف القرن السادس وبلغت أوجها أيام قمبيز وداريوس الأول اللذين خلفاه على عرش تلك البلاد .

كان تاريخ إيران قبل هذه العائلة يدرس كجزء من تاريخ العراق فهى تارة تحت حكم أشور أو بابل وتارة أخرى تهجم بعض قبائلها على بلاد الرافدين وإذا كان هناك ذكر لحضاراتها القديمة قبل الميديين فإن ذلك ينحصر فى الجزء الغربى من الهضبة وهو الجزء المجاور لدلتا الدجلة والفرات أى المنطقة الواقعة حول « سوسا » والتى يعرفها علماء الآثار تحت اسم عيلام . ولكن الأبحاث الأثرية الحديثة فى الهضبة الإيرانية جاءت بكثير من المعلومات الجديدة وربطت تاريخ إيران فى أقدم عصوره بما كان فى العالم القديم من حضارات وما زال العلماء متعطشين لمعرفة المزيد عن هذه الحضارة وصلتها بما يجاورها إلى الشمال أى فى جنوبى الروسيا بعد أن ثبتت صلتها بما كان فى شرقها وفى غربها من حضارات.

وآخر الأنباء الأثرية الهامة من إيران هو عثور جرشمان Ghirshman

---

(١) أهم المؤلفات التى ظهرت عن حضارة السند هى :

J. MARSHALL (AND OTHERS), *Mohenjdaro and the Indus Culture.*

E. MACKAY, *Further Excavations at Mohenjodaro* (1938).

N.G. MAJUMDAR, *Explorat ons in Sind* (1934).

N.S. VATS, *Excavations at Harappà* (1940)

وتوجد أبحاث عدة على أكبر جانب من الأهمية فى سلسلة الأبحاث المنشورة فى Ancient India منذ عام ١٩٤٦ حيث نجد مقالات عدة عن حفائر موهنجو دارو وهارابا فى الفترة الأخيرة كتبها أثريون عديدون بينهم هويلر وبجوت اللذين وضع كل منهما كتاباً سبقت الإشارة إليه . وأحدث بحث ظهر عن هذه الحضارة ما كتبه عنها جوردون تشيلد فى كتابه *New Light on the Most Ancient East* (4th. *Edition,* 1952), *Chapter* IX, p. 172 ff.

مدير بعثة الآثار الفرنسية هناك على كهف فى ناحية « تانج — اى — پابدان » فى جبال البختيارى ، وفى هذا الكهف عثر العالم الفرنسى على أول مظاهر التقدم الإنسانى فى تلك البلاد عندما بدأ الإنسان يسعى للصيد وكان يستعمل لذلك أدوات الصوان كما بدأ أيضاً يصنع أوان من الفخار ليحفظ فيها قوته . ويرجع تاريخ سكان هذا الكهف إلى العصر النيوليتى وهو العصر الذى كان يعيش فيه سكان الهضبة فى الكهوف ويعتمدون فى حياتهم على الصيد ؛ ولكنهم أخذوا يغيرون من طريقة حياتهم شيئاً فشيئاً عندما بدأ عصر الجفاف ينتشر فى آسيا وأخذت الوديان تجف رويداً رويداً فتحولت بقاع كثيرة إلى مناطق جدباء . وفى ذلك الوقت أيضاً أخذت البحيرة الكبرى فى وسط الهضبة فى الجفاف واضطرت الحيوانات لترك الجبال لتعيش على مقربة من البحيرات الصغيرة فى المنخفضات .

كان هذا فى الألف الخامس قبل الميلاد وهو الوقت الذى بدأ الإنسان فيه فى هذه البقعة من العالم يترك حياة الكهوف وبدأ يستقر فى السهول ومنذ هذا الوقت نستطيع أن نتتبع الخطى التى خطاها هذا الإنسان فى تكوين ثقافته والاتجاه الخاص الذى اتجهه نحو الحضارة . وكانت منطقة « سبيالك » هى أهم المناطق التى أمدت جرشمان بالمعلومات الأساسية عن أقدم حضارة فى إيران ، وسيالك هذه على مقربة من « قاشان » جنوبى طهران ومن نتائج حفائر جرشمان أصبحنا نعرف أن العصر المسمى «سيالك ١» هو نهاية العصر النيوليتى [١] ومع « سيالك ٢ » يبدأ عصر ما قبل الأسرات وهو حوالى ٤٠٠٠ قبل الميلاد وهو الوقت الذى بدأ فيه سكان الهضبة يستعملون الطوب فى مبانيهم كما بدأوا أيضاً

---

(١) من أهم مميزات فخار « سيالك ١ » أنه فى الغالب أسود اللون وفيه زخارف محفورة تملأ باللون الأبيض فيعطى ذلك للفخار شكلا فيه ذوق ومظهر لا يخلو من جمال . وليس هذا النوع من الفخار خاصاً بإيران بل إنه كان معروفاً قبل العثور عليه فى سيالك وخرج من حفائر سكشجوزى فى شمال سوريا ومن مجس نزل إلى أعماق تل نينوى فى العراق وأخيراً من تل حسونة جنوبى الموصل — انظر MOORTGAT, *Vorderasien bis zum Hellenismus*, p. 210

يصنعون فخاراً يزينونه برسوم الحيوانات [١] .

ويرى جرشمان أن الحضارة الإيرانية أخذت تنتشر فى جميع أرجاء الهضبة ويقول بأن لديه من الأدلة الأثرية ما يثبت أن هذه الحضارة عمت جزءاً كبيراً من آسيا فى عصر ما قبل الأسرات إذ وصلت شرقاً حتى حوض السند (موهنچو دارو) ووصلت غرباً إلى أن وصلت إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ووصلت شمالا إلى التركستان والقوقاز كما أنها اتصلت أيضاً بمراكز الحضارة الأخرى فى العراق وسوريا والأناضول . ولكن هذا التأكيد من جانب جرشمان يجب أن نقابله بشىء من التحفظ لأن هناك أبحاثاً أخرى وفيها أدلة على أنه ربما كانت الأناضول وشمال سوريا مركزاً لحضارة كبيرة عمت كثيراً من بلاد آسيا فى ذلك الوقت البعيد وأن ما ظهر فى إيران والتركستان وبلوخستان ووادى السند كان متفرعاً منها .

ومهما كانت تفسيرتنا فى سبب هذه الحضارة أو منشأها فإن هناك حقيقة لا يمكن إنكارها وهى أنه فى الألف الرابع قبل الميلاد كانت هناك حضارة تعم هضبة إيران ولهذه الحضارة مميزاتها الخاصة .

ولم يمض غير قليل حتى بدأت هذه الحضارة فى التفكك وكان ذلك فى منتصف الألف الرابع عندما أخذت بعض المناطق التابعة للهضبة مثل سوسا وأوروك تشق طريقاً خاصاً بها وبدأ الفخار الملون الخاص بإيران يختفى ليحل محله أنواع أخرى وأخذت بلاد الرافدين تتقدم بخطى سريعة فى حضارتها ، ولكن يجب ألا ننسى أن حضارة هضبة إيران كانت مستقلة النشأة عن حضارة العراق ووصل سكان إيران القدماء إلى اختراع كتابة خاصة بهم استعملوها فى القرون الأخيرة من الألف الرابع ولكن منذ ازدهار حضارة مدن العراق فى أوائل الألف الثالث بدأت سلسلة طويلة من الاحتكاك بين الشعبين . ولنترك

---

(١) نشر جرشمان نتائج حفائره فى مجلدين تحت عنوان

R. GHISHMAN, *Fon es à Sialk,* I. I (1938); I.II (1939).

وقد كتب المؤلف نفسه أخيراً كتاباً آخر وهو

L. Iran, des origines à l'Islam (*Paris* 1951).

الآن إيران تتعثر تارة وتقف على قدميها تارة أخرى حتى نصل إلى حادث تاريخى هام حدث حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . وكان له أثر عظيم ليس على إيران وحدها بل على جميع بلاد الشرق القديم .

فى هذا الوقت على وجه التقريب بدأت بعض الشعوب تهاجر من مواطنها وتصل إلى غرب آسيا ، ولم تكن هذه الهجرات قد أتت مرة واحدة أو اتخذت شكلا منظماً أو حربياً بل كانت تأتى الشعوب على موجات متتالية تفصلها أوقات بعيدة لتستقر فى الأماكن التى يتيسر فيها العيش . هذه الهجرات هى هجرات الشعوب التى نسميها . الهندو – أوربيه » وقد كتب العلماء كثيراً عنها وعن أصلها والبلاد التى أتت منها واختلف الباحثون فيما بينهم ولكن أرجح وأحدث الآراء هو أنهم أتوا من السهول الأوراسية فى جنوبى الروسيا وقد انقسمت هذه الشعوب أثناء هجرتها العظيمة إلى مجموعتين أولاهما المجموعة الغربية التى كان طريقها يدور حول البحر الأسود واخترقت البلقان وعبر بعضها مضيق البوسفور ووصل إلى آسيا الصغرى واختلط بسكان تلك البلاد وسرعان ما أصبح لهم السيطرة ولم يأت منتصف الألف الثانى حتى وجدنا أنهم أصبحوا على رأس إمبراطورية قوية وهى الإمبراطورية الحتية التى كانت عاصمتها فى وسط بلاد الأناضول ، وقد امتدت فتوح مملكة « ختى » فاستولت على بابل وعلى بلاد الحرّيين وميتانى وأصبحت وجهاً لوجه أمام مصر عندما سعت لبسط نفوذها على سوريا وفلسطين

أما المجموعة الثانية وهى المجموعة الشرقية فإن طريق هجرتها كان حول بحر قزوين وكان من بين هذه الشعوب شعب ذو ميزات حربية كبيرة اخترق سلسلة جبال القوقاز واندفع فى طريقه حتى وصل إلى أعالى بلاد الفرات واستقر بين السكان وهؤلاء هم « الحرّيون » . وكان من ضمن شعوب هذه المجموعة الشعب الهندو – أوروبى الذى عرف فيما بعد باسم « ميتانى » والذى كون أيضا دولة كبيرة فى وقت من الأوقات شملت جميع بلاد أعالى الفرات وضمت إليها بلاد أشور وأخضعت المنطقة حتى جبال زاجروس حيث كان يقيم « الجويتون » وبلغت ميتانى أوج ازدهارها فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد

عندما تحالفت مع ملوك الأسرة الثامنة عشرة وتزوج بعض ملوك مصر من أميراتها . ولكن هناك فرع آخر من هذه المجموعة سارت شعوبه مع جبال زاجروس الوسطى واخترقتها ثم انحدرت إلى الهضبة الإيرانية فاستقر فيها من استقر وواصل الآخرون سيرهم إلى الأفغانستان وبلوخستان حتى وصلوا إلى وادى السند ، وكانت هذه الهجرة العظيمة التى صاحبتها حروب كبيرة هى السبب فى القضاء على مدن هارايا وموهنچو دارو وغيرهما .

٧ – بلاد العرب

لم يهمل العلماء التفكير فى أهمية دراسة تاريخ وآثار الجزيرة العربية وكثيراً ما حاولوا أن يجعلوا من مناطقها الآثرية وخاصة فى اليمن ميداناً للبحث العلمى المنظم ولكن لم تتحقق حتى الآن هذه الأمانى أو بعضها ولكن بالرغم من ذلك بدأت بضع محاولات وخاصة فى الثمان سنوات الأخيرة أعطت علماء الآثار والتاريخ شيئاً من الأمل فى أن هذه المحاولات ربما كانت بداية موفقة لبحث تاريخ بلاد العرب ومعرفة الدور الهام الذى لعبته فى التاريخ القديم .

وأول معضلة تخطر على ذهن الباحث فى تاريخ الشرق القديم هى رغبته فى معرفة موطن الجنس السامى أو بعبارة أصح معرفة المكان أو الأمكنة التى كانت تهاجر منه الشعوب السامية التى تركت أثراً غير قليل فى تاريخ وحضارة سوريا والعراق وإلى حد ما مصر فى فجر عصور التاريخ . فنحن نعرف أنه منذ عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد أخذت الهجرات السامية تأتى بأقوام استقروا فى العراق ولم يأت عام ٢٥٣٠ قبل الميلاد حتى تمكن أحد زعماء هذه الشعوب السامية من تأسيس مملكة « أكد » وأصبح سرجون أول ملوكها .

ومهما اختلفت آراء الباحثين فى موطن الجنس السامى فإنهم مجمعون على أنه لم يكن بعيداً عن شبه جزيرة العرب فهناك رأى يقول بأن هذا الموطن يقع فى جنوبى سوريا ولكن الجمهرة العظمى من العلماء يميلون إلى جعل هذا الموطن فى صميم الجزيرة ويرى بعضهم أنه بلاد نجد ويرى البعض الآخر أنه اليمن ولكل من الفريقين أدلته وهى تقوم قبل كل شىء على قرائن من الهجرات

التى حدثت فى العصور القريبة أو على مقارنات لغوية ولكن هذه القرائن التى ساقها كل من الفريقين ما زالت فى حاجة إلى التأييد وإن كانت حجج القائلين بأن موطن الساميين كان فى جنوبى الجزيرة أى فى اليمن يلقى ترجيحاً عن الرأى الآخر ، وسنظل على هذا الشك حتى تبدأ الحفائر فى جزيرة العرب وتقص علينا رمالها ما خبأته من أسرار .

ومن الحقائق المعروفة أن قدماء المصريين استعملوا البخور منذ فجر تاريخهم فى المعابد ونعرف أيضاً أنهم اتصلوا منذ فجر تاريخهم بالشعوب السامية التى أتت من الجنوب وعن طريق البحر الأحمر ووصلت إلى وادى النيل عند ثنية قنا . ومنذ الأسرة الخامسة تكثر الإشارة إلى بلاد پونت وحاصلاتها وهى البلاد التى كانت حول بوغاز باب المندب وتشمل كلا من الشاطئين الأسيوى والأفريقى .

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن العراق اتصلت بمصر كما اتصلتْ حضارة وادى السند بكل منها فى أقدم العصور وكانت هناك صلات تجارية وإلى حدما ثقافية فى عصر ما قبل الأسرات المصرية وفى الأسرة الأولى أى قبل ٣٠٠٠ قبل الميلاد وكان الطريق الذى تسلكه هذه التجارة هو طريق البحر لأن الطريق البرى استعمله القدماء فى العصور التالية . ومن المرجح أن تكون سفن الهند والعراق كانت تصل إلى جنوبى الجزيرة العربية وربما كانت سفن سكان جنوبى بلاد العرب أو السفن المصرية كانت تنقل هذه التجارة إلى مصر أو ينقلها سكان الجزيرة أنفسهم — فى العصور التالية — بواسطة القوافل من موانئ الجنوب حتى أسواق الشام على ساحل البحر الأبيض المتوسط وخاصة ميناء غزة ، فتبيع ما حملته وترجع ثانية إلى الجنوب محملة بما تجده فى تلك الأسواق .

ويتضح لنا من ذلك بأن سكان الجزيرة العربية القدماء أى فى الألف الثالث قبل الميلاد لم يكونوا بعيدين أو معزولين عن حضارات البلاد الأخرى إذ كان اشتغالهم بالتجارة سبباً فى اتصالهم بغيرهم ، كما ساعدتهم طبيعة الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة أى اليمن وحضرموت للسير فى ركب الحضارة والأخذ بنصيب منها .

يكفينا هذا القدر الآن ولنبدأ الإجابة عن سؤال آخر عن أقدم الآثار التي عثر عليها في هذه البقعة من العالم ومدى صلتها بغيرها من الحضارات. والجواب على ذلك أنه يجب تقسيم هذا الموضوع إلى قسمين أولهما خاص بأقدم العصور ونشأة الحضارة والقسم الآخر ما أبقى عليه الزمن من آثار المدينة القديمة. فأما عن القسم الأول فإننا نعرف من الأبحاث القليلة التي تيسرت للعلماء أنه عثر في جنوبي بلاد العرب على أدوات من العصر الحجرى القديم (الپاليوليثى) ولكن الرأى ينقسم بشأنها فترى المس كيتون — تومسون Coton -Thompson بأن أدوات الصوان التي عثرت عليها تشبه تمام الشبه مثيلاتها مما عثر عليه في شرق أفريقيا سواء في الشمال أو في الجنوب(١)، أما النظرية الأخرى التي نادى بها حزين بعد أبحاثه في عام ١٩٣٦ فهى أنه لا يؤمن بأن ثقافة جنوبي الجزيرة في ذلك العهد البعيد فرع أو تقليد لثقافة شرق أفريقيا ويرى أن الركن الجنوبي الغربي من شبه جريزة العرب أقدم ثقافة من شرق أفريقيا وأنه إذا كان ولابد أن أحدهما أثر في ثقافة الآخر فإن التيار أتى من آسيا (٢)

وعلى ذكر سكان اليمن القدماء أود أن أشير إلى الأبحاث الأنثروبولوجية التي قام بها كارلتون كون(٣) على بعض السكان الحاليين وخرج منها بأن سكان هضبة اليمن فرع من جنس البحر الأبيض المتوسط، وقد ناقش هذا الرأى علماء آخرون من بينهم أرثر كيث Sir Arthur Keith وكروجمان Krogman ونرى تلخيصاً لآرائهم في كتاب سكوت هيوز عن اليمن يختمها بقوله:

«إن المنطقة التي كان يعيش فيها الجنس المعروف باسم جنس البحر الأبيض المتوسط كانت تمتد من أسپانيا إلى الهند، ولكن فرعاً منها اتجه نحو الجنوب على شاطىء البحر الأحمر فوصل بذلك إلى جنوبي بلاد العرب في آسيا وإلى أثيوپيا والصومال في أفريقيا. وكان قدماء المصريين في عصر ما قبل

---

(١) CATON-THOMPSON, *Climate, Irrigation and Early Man in the Hadramaut*, في مجلد *Geographical Journal*, 93 p. 18-19.

(٢) S.A. HUZAYYIN في مجلة *Nature, Vol.* CXI, (1937), p. 513-14.

(٣) CARLETON S. COON, *The Races of Europe* (1939), p. 401.

الأسرات يمثلون الفرع الرئيسى والأكثر حضارة بين الفروع المتعددة من ذلك الجنس . أما الآن فإن أكبر رقعة من الأرض يعيش فيها قوم من سلالة هذا الجنس المتوسط القامة والذى يمتاز بأن مقاييس جماجمه متوسطة بين المستدير والمستطيل (mesocephalic) واستطاع هؤلاء القوم بالاحتفاظ بنقاء عنصرهم ، هذه الرقعة من الأرض هى جنوبى الجزيرة العربية »(١) . ولكن هذا الرأى ما زال فى حاجة إلى تأييد لأن بلاد العرب بوجه عام لم تدرس من الناحيتين الأنثربولوجية والأثنوجرافية الدراسة اللازمة حتى الآن بل أن هذه الدراسات لم تكد تبدأ فيها ، وفى اليوم الذى تسير فيه هذه الأبحاث مسيرها العلمى المطلوب ويدرس العلماء عادات وتقاليد وآراء سكان الجبال والصحارى هناك الذين احتفظوا فيما بينهم بتراثهم القديم فإن هذه الدراسات تلقى ضوءاً كبيراً على أصل السكان وصلتهم بغيرهم من شعوب الشرق القديم .

وإنى أرجو أن تجد هذه الدراسات من أبناء الشعوب العربية ما تستحقه من اهتمام لأن تحليل عادات شعوب الشرق ومعتقداتهم وتقاليدهم لا تقل فى أهميتها عن دراسة الآثار بل إنى أؤمن إيماناً تاماً بأن الدراستين مكملتان لبعضهما إذا أردنا الإلمام بحياة القدماء فى أى شعب من الشعوب ذات المدنية العريقة فى القدم .

أما عن الدراسات الأثرية فى بلاد الجزيرة العربية فإنها بدأت منذ سنوات قليلة تجد بعض العناية اللازمة ، فإن الاهتمام بالتاريخ القديم للجزيرة العربية كان متركزاً قبل كل شىء فى حل رموز النقوش المختلفة ولم تلق دراسة الآثار إلا عناية قليلة وذلك لأن الظروف لم تكن مواتية للعلماء لزيارة آثار اليمن بنوع خاص ونحن نعرف منذ وقت طويل نتائج أبحاث علماء ممتازين من أمثال هاليفى وجلازر وميلر ورودوكاناكيس وريكمانز ولكن منذ ظهور كتاب نيلسن فى عام ١٩٢٧ بدأت دراسات تاريخ الجزيرة العربية وآثارها تدخل فى عهد جديد ولم يلبث أن ظهر بعد ذلك نتائج أبحاث كيتن تومسون فى حضرموت

---

(١) HUGH SCOTT, *In the High Yemen*, London 1942, p. 201.

بعد أبحاث راتينس وويسمان فى اليمن ولكن الحرب العالمية الثانية وضعت حداً لذلك[١] .

وفى عام ١٩٤٥ انتهز الأستاذ محمد توفيق أخصائى الحشرات بكلية العلوم بجامعة القاهرة فرصة وجوده فى بلاد الجوف فى اليمن فنقل كثيراً من نقوش تلك المنطقة وأخذ صورها الفوتوغرافية وأضاف إلى معلوماتنا كثيراً عما نقله هاليڤى وجلازر قبل ذلك من نقوش تلك المعابد[٢] ، وفى عام ١٩٤٧ قمت برحلة أثرية إلى بلاد اليمن استطعت خلالها من زيارة أهم مناطقها الأثرية وكان بين النقوش التى تمكنت من نقلها أثناء هذه الرحلة مائة وعشرون نقشاً جديداً أضافت إلى تاريخ جنوبى الجزيرة الكثير من الحقائق .

وفى عام ١٩٤٩ ذهبت بعثة أمريكية إلى وادى بيجان فى حضرموت ثم استطاعت أن تحصل من حكومة اليمن فى عام ١٩٥٠ على تصريح بالبحث بين أنقاض معابد مأرب ولكن لم تكد هذه البعثة تبدأ أعمالها فى ديسمبر ١٩٥١ حتى حدث بين رجالها وبين رجال الحكومة اليمنية نزاع أدى لسوء الحظ إلى فرار أعضائها من مأرب إلى بيجان بعد أن ظهرت بوادر النجاح فى عملها فى معبد محرم بلقيس وظهرت نقوش جديدة وبعض التماثيل . وقد تمكن الزميل الدكتور خليل نامى من زيارة منطقة الحفائر فى مارس ١٩٥٢ بعد فرار أعضاء البعثة واستطاع أخذ صور فوتوغرافية لهذه النقوش أو للأهم منها على الأقل .

وفى الوقت الذى كانت تعمل فيه البعثة الأمريكية فى اليمن أى بين نوفمبر ١٩٥١ وفبراير ١٩٥٢ كانت هناك بعثة أخرى تعمل فى هدوء وثقة فى شمال الجزيرة وكانت هذه البعثة مكونة من الأستاذ « ج. ريكمانز » عميد علماء

---

(١) يجد القارئ تلخيصاً لأبحاث العلماء فى بلاد اليمن فى كتابى *An Archaeological Journey to Yemen, 3 Vols. Cairo* 1952 كما يجد فيه وصفاً لآثار بلاد صرواح ومأرب والجوف .

(٢) بدأ الأستاذ محمد توفيق فى نشر نتائج رحلته فى منشورات المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة وظهرت أولى هذه الدراسات فى عام ١٩٥١ : « آثار معين فى جوف اليمن » ثم تلاها الجزء الثانى ويحتوى على ترجمة تلك النقوش للدكتور خليل يحيى نامى تحت عنوان : نقوش خربة معين فى عام ١٩٥٢ .

لغات بلاد العرب الجنوبية و « هنرى سانت جون فلبى » المستشرق المعروف ومعهما الدكتور چاك ريكمانز نجل شقيق ريكمانز الكبير ورابع لأجل التصوير الفوتوغرافى . واخترقت هذه البعثة شبه الجزيرة من الغرب إلى الشرق وتجولت فى الكثير من وديانها ومرت بنجران على حدود اليمن الشمالية وعثرت أثناء أبحاثها أكثر من ١٢,٠٠٠ (اثنى عشر ألفاً) نقشاً أكثرها نقوش قصيرة على وجهات الصخور وأغلبها ثمودية ولكن يوجد من بينها نقوش سبأية عديدة أيضاً .

ولكن جميع هذه الأبحاث سواء أكانت فى حضرموت أو فى اليمن أو فى الحجاز ونجد لم تملأ الفجوة الكبيرة فى تاريخ تلك البلاد بين العصر الپاليوليتى والعصر الذى بدأ فيه اسم بلاد العرب يظهر فى الكتابات الأشورية أو عثرنا فى بلاد اليمن نفسها على آثار مؤرخة فيه، إذ أن أقدم الآثار أو النقوش المؤرخة لا ترجع إلى أكثر من القرن التاسع قبل الميلاد . وأقدم الآثار التى عثر عليها فى بلاد اليمن حتى الآن هو جعران باسم الملك امنحتب الثالث الذى عاش بين ١٤١٣ — ١٣٧٧ قبل الميلاد وهو جعران عثر عليه فى مأرب واشتريته فى صنعاء عام ١٩٤٧ ولكن مثل هذا الأثر الصغير لا يمكن أن يعتبر دليلا على شىء سوى وجود الصلة التجارية وهى صلة لاشك فى قيامها فى ذلك العهد والعهود التى سبقته .

أما عن الآثار القائمة فى بلاد العرب وخاصة فى حضرموت واليمن وبينها بقايا عشرات المعابد والقصور والخزانات تنتظر الباحثين وبعض هذه المعابد يتجلى فيها ذوق فنى رفيع وتقدم معمارى وليس لدينا من النقوش التى على جدران أقدم المعابد أو على جدار سد مأرب ما يرجع تاريخه إلى أبعد من القرن الثامن قبل الميلاد ولكن هذه المعابد مقامة دون شك فى المدن على أنقاض آثار أقدم منها عهداً وفى اليوم الذى يتم فيه حفر منطقة من المناطق الهامة مثل صرواح أو مأرب أو معين سيقف العالم على الكثير من حضارة تلك البلاد وصلتها بغيرها من الحضارات الأخرى .

وقد ظهر أخيراً بعض الأبحاث عن الحياة فى جنوبى الجزيرة العربية كثير منها للأستاذ ج . ريكمانز وخاصة عن الديانة كما ظهر بحث عن جميع الآلهة المذكورة فى النقوش للأب چام وأحدث الأبحاث الهامة كتاب

Jacques Ryckmans, L'institution monarchiques en Arabie Méridionale avant l'Islam (Louvain, 1951)

ويستطيع الباحث أن يجد فيه خلاصة أحدث ما ظهر عن تنظيمات الملوك وما قاموا به من أعمال كما نطالع فيه فصلا قيماً عن التاريخ chronology فى تلك البلاد وتحديد الأزمنة التى حكم فيها ملوكها المعروفون .

وإنى أختم هذا البحث بترديد ما كتبته فى عام ١٩٤٨ (١) وهو اعتقادى بأنه لن يمكننا فهم الصورة الكاملة لتاريخ أمم الشرق القديم وتحديد صلة ثقافاتها ببعضها حتى يتم حفر المناطق الأثرية فى جنوبى الجزيرة العربية ، فى اليمن وفى حضرموت وغيرهما أكوام عالية متفرقة فى مناطقها المختلفة احتفظت لنا منذ عهد طويل بما فيها من ودائع غالية ستقص علينا فى يوم من الأيام قصة سكانها القدماء ونصيبهم فى تقدم الحضارة فى بلاد الشرق القديم .

دكتور أحمد فخرى

---

(١) *Muséon,* فى مجلة *Les Antiquités du Yemen, Un Voyage à Sirwah, Marib et E-Gôf* T. LXI (1948), p. 226.

العلاقات بين مصر والدول الشرقية

فى العصر الهيلينستى

عند وفاة الإسكندر الأكبر فى شهر يونية عام ٣٢٣ ق . م . كانت الإمبراطورية المقدونية تشمل مقدونيا وبلاد الإغريق ومصر وأغلب آسيا من بحر إيجة حتى البنجاب جنوبى القوقاز وبحر قزوين فيما عدا شمال آسيا الصغرى وأرمينيا والجزيرة العربية[١] . ومن ثم كانت أغلب الدول العربية التى نعرفها اليوم ، وهى العراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن وفلسطين ومصر ، تكوّن جزءاً من هذه الإمبراطورية . وعندما اجتمع قواد الإسكندر فى بابل ، غداة وفاته ، ليبحثوا مشكلة حكم الإمبراطورية المقدونية تقسمت أقاليمها بين عدة منهم ليحكموها باعتبارهم ولاة من قبل الأسرة المالكة المقدونية . لكن الأقاليم الشرقية لم تلبث أن آلت إلى اثنين من هؤلاء القواد وهما بطلميوس والى مصر وسليوكوس (Seleucus) والى بابل . ويحكم الجوار وتشابه الأهداف تارة وتعارضها أطواراً . كانت العلاقات السياسية بين أسرتى هذين العاهلين ودية أحياناً وعدائية أحياناً أخرى . وقد كان لهذه العلاقات الطويلة الأمد أبلغ الأثر فى السياسة الدولية بوجه عام وفى مصير مصر بوجه خاص .

لم يكد يمضى على وفاة الإسكندر عامان حتى بدأ بين خلفائه صراع عنيف دام أربعين عاماً . وكان السبب الرئيسى لهذا الصراع تصادم الأطماع بين القواد المتتابعين الذين كانوا يهدفون إلى لم شعث الإمبراطورية وتوحيدها وبين حكام الولايات الذين كانوا يتطلعون إلى استقلال كل منهم بولايته . وقد تمخضت الحلقة الأولى فى هذا الصراع عن مقتل پرديكاس (Perdiccas) الوصى العام على الإمبراطورية الذى أراد أن يفرض سلطانه على الولاة الباقين

(١) Turn, Hellenistic Civilisation, 1930, p. 6.

وعن اجتماع القواد فى تريپاراديسوس (Triparadisos) فى عام ٣٢١ ق . م . لإعادة تقسيم ولايات الإمبراطورية من جـــديد . وكان من أهم قرارات هذا الاجتماع تعيين القائد العجوز انتيپاتروس (Antipatros) وصياً عامًّا على الأمبراطورية ؛ وتعيين سليوكوس والياً على بابل ، واحتفاظ أنتنجونوس (Antigonos) بولايته التى كانت تشمل الجانب الأكبر من آسيا الصغرى مع تعيينه قائداً عاماً للجيش المقدونى فى آسيا(١) .

ولما كان بطلميوس قد لعب الدور الرئيسى فى القضاء على برديكاس فإنه كان أكثر القواد نفوذاً يوم اجتماع تريباراديسوس . ولو قدر له أن يقرأ صفحة المستقبل لوسعه أن يحول دون منح بابل لسليوكوس ، غير أنه ليس فى وسع أفطن الساسة وأبعدهم نظراً وأصدقهم حساً أن يتنبأوا دائماً بمجرى الحوادث ويتحكموا فى تكييفها . ولو شاء بطلميوس لآلت إليه الوصاية على الأمبراطورية ، لكنه رفض هذا المنصب المحفوف بالمخاطر عندما عرض عليه ، مفضلا الاكتفاء بولايته والعمل على الاستقلال بها وتشييد صرح مملكة قوية غنية فيها ، يحمل صوبلجانها أحفاده على تعاقب الأجيال . وقد أثبتت الأيام بعد نظره ، فقد عمر أكثر من أى وصى على الأمبراطورية وعمرت دولة البطالمة أكثر من أى دولة هيليستينية أخرى . ومن أجل الفوز باستقلال مصر عقد بطلميوس العزم على مناهضة كل من يحاول توحيد الأمبراطورية المقدونية ، وقد مر بنا أنه لعب الدور الأول فى القضاء على يرد يكاس ، الذى كان أكبر نصير لوحدة الأمبراطورية . وقد كان جزءاً من برنامج بطلميوس للمحافظة على استقلال مصر ضم الملحقات الطبيعية إليها ، وهى برقة لحماية حدود مصر الغربية وجوف سوريا (أى جنوب سوريا وفينيقيا وفلسطين) وقبرص لحماية حدود مصر الشرقية والحصول على المعادن والأخشاب التى يفتقر إليها وادى النيل . ولذلك فإنه ما كادت قدماه تطأ أرض مصر حتى استولى على برقة . ثم انتهز فرصة السلطة المركزية بعد وفاة انتيپاتروس واستولى عنوة فى عام

(١) Jouguet, Macedonian Inperialism, pp. 130-3; Rostovtzeff, Soc. and Econ. Hist. Hell. World, p. 6.

٣١٩ – ٣١٨ من لاومدون (Laomedon) والى سوريا على جوف سوريا[١] (Coele-Syria) .

ولم يلبث أنتيجونوس أن اعتلى خشبة المسرح السياسى ليمثل الدور الذى قام بِرديكاس من قبل . ولما كان كل من بطلميوس وسليوكوس يريد الاستقلال بولايته فقد تلاقت أهدافهما السياسية فى مكافحة أطماع أنتيجونوس . وحيث أن بطلميوس كان أقوى دعاة الانفصالية ، فإنه عندما استهدف سليوكوس للمخاطر من ناحية أنيتجونوس فر إلى مصر فى صيف عام ٣١٦ ، فأحسن وفادته بطلميوس الذى دخل فى مفاوضات مع كاساندروس (Cassandros) حاكم مقدونيا وبلاد الإغريق – وليسيماخوس (Lysimachos) – حاكم تراقيا – انتهت بعقد محالفة بينهم جميعاً فى عام ٣١٥ للمحافظة على مركز كل منهم فى ولايته ووضع حد لأطماع أنتيجونوس[٢] ، ومن ثم لم يكن هناك مفر من اصطدام الفريقين . وعندما أحرز بطلميوس نصراً مبيناً على ديمتريوس بن أنيتجونوس فى موقعة غزة عام ٣١٢ استطاع سليوكوس أن يعود إلى ولايته ويستردها بسهولة فى أكتوبر من نفس ذلك العام ، وأن يبدأ العمل بجد فى بناء دولة قوية له تضم كل الولايات الواقعة شرقى بابل . وهكذا أسدى بطلميوس لسليوكوس خدمتين جليلتين ، فقد آواه فى محنته ثم مهد له سبيل استعادة ولايته بل تكوين إمبراطورية شرقية ضخمة ، لكنه كان فى ضمير الدهر أن الصداقة لن تدوم طويلا بين سليوكوس وبطلميوس . وبيان ذلك أنه فى عام ٣١٢ جدد الحلفاء محالفة عام ٣١٥ ، إلا أنها لم ترم هذه المرة إلى كبح جماح أطماع أنتيجونوس فحسب بل إلى القضاء عليه[٣] . ولم يلبث أن قضى على أنتيجونوس فى العام التالى لكن لما كان بطلميوس لم يقم نحو حلفائه بخدمة يستحق عليها نصيباً من الأسلاب ، فقد تقرر ألا يمنح جوف سوريا الذى كان قد فقده

---

(١) Bouché-Leclercq, His. Lagides, I, pp. 16-17.

(٢) إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ص ٤٠ .

(٣) إبراهيم نصحى ص ٤٧

(٤) Bouché-Leclercq, I, pp. 83-6; Bevan, Hist. Eg. Under The Ptol. Dynasty, pp. 34-5; C.A.H. VII, pp. 76-7.

فى خلال الصراع مع العدو المشترك ووعد به عندما حددت المحالفة، بينما اقتسم الأسلاب ليسياخوس وسليوكوس ، اللذان اضطلعا بالعبء الأكبر فى الحرب ، ففاز أولهما بكل آسيا الصغرى تقريباً ، وثانيهما بكل سوريا التى جعلها المركز الحقيقى لإمبراطوريته فقد أسس فيها أنطاكية التى غدت عاصمة لهذه الإمبراطورية .

وإذا كان حلفاء بطلميوس قد أبوا عليه جوف سوريا فإنه كان قد انتهز فرصة اشتباك الحلفاء مع أنتيجونوس وأعاد احتلال ذلك الإقليم ورفض بعد ذلك النزول عنه . وكان هذا ينطوى على خطر الاشتباك مع سليوكوس الذى احتج فعلا على موقف بطلميوس لكنه لم يستطع أن ينسى صنيع بطلميوس ولذلك أكتفى عندئذ بالمطالبة بحقوقه وتأجيل الصراع مؤقتاً من أجل جنوب سوريا . وهكذا نشأت المشكلة السورية التى أفضت فيما بعد إلى تعكير صفو تاريخ أسرتى بطلميوس وسليوكوس .

وإذا كان الخلاف قد نشب على هذا النحو بين أسرتى بطلميوس وسليوكوس فقد كان مقدراً ألا تبدأ الحلقة الأولى من الصراح المسلح بينهما إلا فى عهد خلفتيهما بطلميوس الثانى وأنطيوخوس الأول . ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أنه بموت سليوكوس ، آخر أفراد الجيل الأول من خلفاء الإسكندر ، فى عام ٢٨٠ وظهور الجيل الثانى من أولئك الخلفاء ، استقرت فكرة قيام دول هيلينستية مختلفة على إنقاض الإمبراطورية المقدونية ووجد نوع من توازن القوى فى العالم الهيلينستى الذى أصبح يقتسم النفوذ فيه ثلاث ممالك عظيمة ، وقد كانت عندئذ أقوى هذه الدول . وكانت تليها دولة السليوكيين ، التى كانت تشمل ولايات إمبراطورية الإسكندر فى بلاد ما بين النهرين وأغلب الولايات الشرقية البعيدة وجانباً كبيراً من آسيا الصغيرى ، وسوريا فيما عدا أقليم جوف سوريا . أما الدولة الثالثة فكانت مقدونيا(١) .

وقد كانت لكل من هذه الدول حاجاتها ومراميها وكذلك خططها ووسائلها لتحقيق ذلك . وعلى الرغم من أن مصر خرجت من الصراع العنيف من خلفاء

---

(١) Rostovtzeff, p. 27.

الإسكندر أقوى وأغنى دولة هيلينستية ، فإن البطالمة الأوائل (الأول والثانى والثالث) ، الذين كانوا أقوى أفراد أسرته ، لم يفكروا فى إعادة تكوين إمبراطورية الإسكندر ، إذ كان هدفهم الأساسى الدفاع عن استقلال مصر الكامل ولعب الدور الأول فى حلبة السياسة وفى مضمار الاقتصاد فى العالم الهيلينستى وكانت أفضل وسيلة لتحقيق ذلك إحراز السيطرة على بحر إيجة . وكانت السيطرة على عصبة جزر الكيكلاد (Cyclades) ، التى فاز بها أولا بطلميوس الأول ثم وطد دعائمها بطلميوس الثانى ، لا تكسب مصر إلا سيطرة جزئية سياسية واقتصادية على بحر إيجة . ولاستكمال هذه السيطرة حاول بطلميوس الثانى الاستيلاء على شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية ، وبسط نفوذه على المراكز التجارية الهامة على ضفاف الدردنيل وبحر مرمرة وشاطئ البحر الأسود الجنوبى . ومن ناحية أخرى كانت سلامة هذه الإمبراطورية الإيجية تتطلب الاستيلاء على الموانى الكبيرة على شواطئ فينيقيا وفلسطين . وهذا يفسر شدة عناية البطالمة وخاصة الأوائل منهم بالاستيلاء على جوف سوريا . وقد حدت الرغبة فى السيطرة على بحر إيجة بالبطالمة الأوائل إلى أن يحاولوا تقوية نفوذهم فى أهم الموانى الإغريقية ، ليمنعوا حكام مقدونيا من أن يصبحوا أقوياء فى البحر . ولم يملِ هذه السياسة على البطالمة اعتبارات اقتصادية فحسب إذ كانوا يعتبرون سيطرتهم على بحر إيجة أساس كيانهم السياسى ومصدر قوتهم ، فإن عزلتهم فى مصر كانت تضعفهم أمام دولة السليوكيين فى سوريا ، التى كانت فى قبضتها المدن الإغريقية فى الأناضول ، وأمام مقدونيا التى كانت تسيطر على إغريق البلقان ، على حين كانت سيطرة البطالمة على الطرق التجارية فى بحر إيجة وفى سوريا توفر لهم موارد جمة فى الرجال والأموال . ومن الجلى أن هذه السياسة كانت تضر بمصالح سوريا ومقدونيا ، ولذلك كان البطالمة لا يستطيعون تحقيق أهداف سياستهم الخارجية دون القيام بمجهود حربى عنيف مستمر .

لقد كان إذن طبيعياً ألا يسلم السليوكيون باستيلاء البطالمة على جوف سوريا لأن ذلك كان يحرمهم من إنشاء أسطول كبير والاحتفاظ به فى موانيهم السورية ، بل قد يسد فى وجوههم ، إذا شاء البطالمة ، سبل الاتصال بالبحر

الأبيض المتوسط . وإذا كانت الظروف القاهرة قد أرغمت السليوكيين على النزول عن شمال آسيا الصغرى فإنهم كانوا لا يسلمون طواعية لمصر بالسيطرة على شواطئ آسيا الصغرى والجنوبية والغربية والطرق الحربية والتجارية ، التى كانت تؤدى من إمبراطوريتهم الأسيوية إلى ثغور آسيا الصغرى الغربية ، لأنه كان يترتب على ذلك أن تصبح دولتهم مملكة شرقية بحقة منعزلة تماماً عن العالم الإغريقى[١] . وإزاء كل ذلك لم يكن هناك مفر من أن يصطدم السليوكيون بالبطالمة إصطداماً عنيفاً .

وقد بدأ النضال العنيف بين أنطيوخوس الأول وبطلميوس الثانى فى عام ٢٨٠ عندما نشبت بينهما حرب غامضة (٢٨٠ – ٢٧٩) يسميها البعض « الحرب الكارية »[٢] . أما الحرب « السورية الأولى » فإنها بدأت فى عام ٢٧٦ عندما غزا بطلميوس (الثانى) سوريا لكنه بعد نجاح مبدئى منى بالهزيمة فأعاد الكرة بعد ذلك بعامين وأحرز إنتصارات باهرة فى البر والبحر حتى أنه عندما عقد الصلح فى عام ٢٧٣ أو ٢٧٢ كانت ممتلكات مصر قد إتسعت إتساعاً كبيراً على شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية وكذلك فى جنوب سوريا الذى غدا بأكمله مصرياً[٣] . وفضلا عن ذلك فإن مصر أخضعت أيضاً قبائل إدوميا والبحر الميت وشرق الأردن[٤] .

وفيما بين أكتوبر عام ٢٦٢ وأبريل عام ٢٦١ توفى أنطيوخوس الأول وخلفه ابنه الأصغر أنطيوخوس الثانى ، وكان أميراً نشيطاً وضع شئون دولته فى نصابها ولم يلبث أن اشتعل بينه وبين بطلميوس الثانى لهيب « الحرب السورية الثانية » التى نجهل الكثير عن أصلها وأحداثها ، إلا أننا نعرف أنها كانت سيئة الطالع على بطلميوس الثانى الذى فقد من جرائها أغلب ممتلكاته فى آسيا الصغرى

(١) Rostovtzeff, pp. 29-30.

(٢) Jouguet, Nat. Eg., p. 49.

(٣) C.A.H. VII, pp. 703-4.

(٤) Jouguet, Mac. Imp., p. 246.

وكذلك كل فينيقيا شمالى صيدا[١] ، لكن مهارته السياسية كادت أن تعوضه خيراً عن خسائره الحربية ، فإنه فى عام ٢٥٣ أفلح فى كسب أنطيوخوس إلى جانبه بالمصاهرة . وبيان ذلك أن أنطيوخوس كان متزوجاً من ابنة عمه لاوديكى (Laodice) التى أنجبت له ابنين وابنتين ، لكنها كانت قوية الشكيمة ، فتمكن بطلميوس من إقناعه بعقد معاهدة تقضى بأن يترك لاوديكى ويتزوج من ابنته برينيكى (Bercnike) ، بشرط أن يكون عرش أنطيوخوس من بعده لأبناء زوجه الجديدة . وقد أقصيت لاوديكى وأبناؤها إلى إفيسوس ، وفى أواخر عام ٢٣٥ وصلت برينيكى فى صحبة وزير مالية أبيها ، ثم عقد الزواج فى العام التالى ، وإذا كان فى وسع بطلميوس أن يرقب من وراء هذا الزواج على الأقل الفرصة ليتدخل فى الشئون السورية ويوجد لنفسه أولياء فى أمبراطورية جاره . فماذا كان أنطيوخوس يستطع أن يأمل من وراء هذه المعاهدة ؟ إن المؤرخين القدماء يدعون زوجه الجديدة « برينيكى فرنفوروس » (Phernephoros) أى صاحبة الصداق العظيم . وقد كان هذا المهر الهائل دون شك تعويضاً مقنعاً عن الحرب ، ويظن البعض أنه كان يشمل دخل مدن جوف سوريا . ولعل أنطيوخوس كان يأمل فى استرداد هذا الإقليم بتفسير المعاهدة تفسيراً محتملا لصالحه[٢] .

وقد أدى زواج برينيكى من أنطيوخوس الثانى إلى قيام الحرب السورية الثالثة عندما توفى هذا الملك فيما بين أكتوبر عام ٢٤٧ وأبريل عام ٢٤٦ ، فإن عقب ذلك مباشرة احتدم بين لاوديكى وبرينيكى نزاع عنيف من أجل العرش حدا ببطلميوس الثالث إلى التدخل بالقوة لتدعيم حقوق أخته وابنها . وعلى الرغم من أن بطلميوس الثالث قام بحملة موفقة فإن أخته وابنها قتلا فى عام ٢٤٥ عندما وقعت فى إنطاكية فتنة ذهبا ضحيتها[٣] وآل العرش إلى سليوكوس الثانى ابن لاوديكى الذى استطاع أن يسترد ولايته الشرقية وجانباً

(١) C.A.H. VII, pp. 711-15.

(٢) C.A.H. VII, p. 715; Jouguet, Nat. Eg., pp. 53-4.

(٣) إبراهيم نصحى ص ٦٥ — ٦٦ .

من كيليكيا وكل سوريا السليوكية فيما عدا سليوكيا على نهر العاصى ، لكنه عندما حاول غزو جنـــوب سوريا هزم وارتد إلى إنطاكية . وعقب ذلك حاصرت قوة مصرية دمشق ، إلا أنه استطاع أن ينجدها ويرفع الحصار عنها ، لكن مصر انتهزت فرصة انشغاله باسترداد سوريا الشمالية وأخذت توسع ممتلكاتها على شواطئ آسيا الصغرى ، فبلغت أمبراطورية البطالمة إذ ذاك أوج اتساعها(١) .

ولم تلبث الخلافات أن قطعت أوصال أسرة السليوكيين ، إذ أن لاوديكى اضطرت ابنها سليوكوس الثانى إلى اقتسام الأمبراطورية مع أخيه الصغير أنطيوخوس هيراكس (Hierax) ، مما أفضى إلى حرب ضروس بينهما يطلق المؤرخون عليها « حرب الأخوين » . ولا شك فى أن السياسة والأموال المصرية كانت فى البداية تؤيد هيراكس إلا أن الجيوش المصرية لم تتدخل فى الصراع ، بل إنه عندما فر هيراكس إلى الأسكندرية سجنه بطليموس الثالث لكنه لم يلبث أن فر من سجنه وذهب للقتال وملاقاة حتفه عبثاً فى تراقيا . وإذا صح ما يقال من أن بطلميوس الثالث كان يطمع فى ضم الولايات الشرقية فى الأمبراطورية السليوكية فلماذا إذن لم ينتهز فرصة هذه الأحداث التى زعزعت أركانها ويتدخل بجيوشه لتحقيق تلك الأطماع ؟(٢) .

وعندما ارتقى سليوكوس الثالث عرش سوريا فى عام ٢٢٦ ، عهد إلى أخيه الصغير أنطيوخوس بحكم بابل وإلى عمه أندروماخوس (Andromachos) باسترداد آسيا الصغرى من أتالوس (Attalos) صاحب برغامون ، إلا أن أتالوس هزم أندروماخوس . وعندما عبر سليوكوس نفسه الطورس وقتله أحد ضباطه ، خشى أن يقع نضال على العرش بين أنطيوخوس وأخايوس (Achaeos) ابن عمه اندروماخوس ، الذى كان قد عين حاكماً على ولايات آسيا الصغرى ، لكن أخايوس نادى بانطيوخوس ملكاً وعاقب قتلة سليوكوس . وقد اتخذ أنطيوخوس الثالث وزيراً له رجلا سياسياً ماهراً يدعى هرمياس (Hermias)

(١) C. A. H. VII pp. 717-9.

(٢) إبراهيم نصحى ص ٦٨ .

ناصب مصر العداء قبل انتهاء حكم بطلميوس الثالث ، لكنه عداء خطيراً بسبب المخاطر التى استهدفت لها عندئذ دولة السليوكيين من داء ثورة والبي بابل وفارس ، فلم يكن نصيب الجيش السليوكى الذى غزا جوف سوريا عام ٢٢١ إلا الهزيمة ، وعندئذ قرر أنطيوخوس أن يضع أمور إمبراطوريته فى نصابها قبل أن يصفى حسابه مع مصر (١).

وعندما عاد أنطيوخوس مظفراً من حملته الشرقية فى أواخر عام ٢٢١ وعلم أنه قد ارتقى عرش مصر شاب ماجن هو بطلميوس الرابع ، اعتقد أن الوقت قد حان لاسترداد جوف سوريا من مصر ، ولذلك سرعان ما استؤنفت أو بدأت « الحرب السورية الرابعة » . ويأخذنا العجب من أن مصر لم تنتهز فرصة متاعب أنطيوخوس لتثأر من اعتدائه على جوف سوريا عام ٢٢١ ، بل إن مصر وقد كانت تتوقع اعتداء أنطيوخوس على ممتلكاتها السورية بعد فراغه من مشاغله فى الأمبراطورية لم تستعد لدفع هذا الاعتداء فى الحال .

وفى ربيع عام ٢١٩ بدأ أنطيوخوس حملة مظفرة إلى حد أنه لو زحف على بلوزيون لوجد مصر عند موطىء قدميه ، لكنه خدع بدعاية سوسيبيوس (Sosibios) وزير بطلميوس الرابع التى رددت بين الناس أن الجيش المصرى بكامل قوته كان متجمعاً عند بلوزيون ، وقد أدخل فى روعه أيضاً أنه يستطيع الحصول على جوف سوريا بمفاوضات سلمية لو أنه عقد هدنة لمدة أربعة أشهر ، ولذلك قبل أنطيوخوس الهدنة وعاد إلى سليوكيا فى انتظار المفاوضات المزعومة لتسليم جوف سوريا .

وحقيقة الأمر أنه عندما بدأ أنطيوخوس حملته لم يكن فى مصر جيش مستعد للقائه بل إن الأغريق الذين كانوا عماد الجيش البطالمى قد انقطع وفودهم على مصر ، ولذلك كان الموقف جد خطير . وإزاء هذه الأزمة لم يكتف سوسيبيوس بأن أحضر من بلاد الأغريق أفضل من تستطيع النقود ابتياع خدماتهم من الضباط والجنود المرتزقة ، وبأن دعا للخدمة العسكرية الجنود الاغريق الذين استقروا فى مصر نتيجة ملاحظات التى كان البطالمة قد ضحوهم

(١) C. A. H. VII pp. 723-6.

إياها ، بل اتخذ خطوة كانت لها نتائج بعيدة المدى ، إذ أنه جند كذلك نحواً من ٢٠,٠٠٠ مصرى وسلحهم ودربهم على نهج المقدونيين وكون منهم قلب الجيش. ولاستكمال تدريب هذا الجيش لجأ سوسيبيوس إلى حيلة المفاوضات التى أطيلت عمداً لتحقيق هذا الغرض. وعندما أدرك أنطيوخوس أخيراً حيلة سوسيبيوس قطع المفاوضات فى ربيع عام ٢١٧ واستدعى جيشه لاستئناف القتال. وفى ٢٢ من يونيه عام ٢١٧ التقى الجيشان عند رفح وكانت الغلبة لبطلميوس الرابع ، الذى اكتفى باسترداد جوف سوريا وعاد مسرعاً إلى مصر ليستأنف حياة المجون والعبث ، على حين أخذ الملك المهزوم يعمل بجد ونشاط فى إعادة بناء إمبراطوريته ليثأر لنفسه من مصر[١].

ولم يكن انتصار رفح انتصاراً باهراً لبطلميوس الرابع وسوسيبيوس فحسب ، بل كان أيضاً انتصاراً رائعاً للمصريين ، الذين يعزى إليهم أكبر الفضل فى إحرازه ، والذين كان البطالمة يعاملونهم حتى ذلك الوقت معاملة المغلوبين على أمرهم. وكان المصريون ، وقد هد الاستعمار الأجنبى كيانهم وسلبهم ثقتهم بأنفسهم ، يلقون عنت طغاتهم فى صبر عجيب ، لكن الدور الذى قاموا به فى معركة رفح أعاد إليهم الثقة بأنفسهم فلم يعودوا يتهيبون الوقوف فى وجه الحكومة ثائرين على ما كانوا يلقونه من صفوف الضغط والارهاق. وقد تعودت هذه الثورات منذ عام ٢١٦ إلى حد أنها أضعفت قوة البطالمة وشلت حركاتهم فى الخارج فعجزوا عن الاحتفاظ بأمبراطوريتهم البحرية. وسنرى تواً أن العداء بين البطالمة والسليوكيين لم يتمخض عن هذه النتيجة الخطيرة فقط.

وعندما توفى بطلميوس الرابع وخلفه ابنه الطفل بطلميوس الخامس ، عقد أنطيوخوس الثالث ، غريم مصر ، وفيليب الخامس ، حليفها ، محالفة سرية لانقسام ممتلكات مصر الخارجية[٢] ، منتهزين فرصة ضعف السلطة المركزية فى مصر من جراء الثورات القومية والتنافس على الوصاية على الملك الطفل. وإزاء هذه المخاطر استنجدت مصر بروما. لكن لما كانت روما مشغولة

---

(١) C.A.H. VII, pp. 728-31.

(٢) Polyb. XV, 20.

بمحاربة فيليب الخامس ، وكانت أنطيوخوس قد استولى على جوف سوريا وكل ممتلكات مصر فى آسيا الصغرى ، وكانت مصر وقد أنهكتها الثورات القومية والاضطرابات الداخلية فى حاجة ملحة إلى الهدوء والسلام ، فإن أريستومنس أريستومنس (Aristomenes) وزير بطلميوس الخامس . لم ير مفراً من أن يتفاهم مع أنطيوخوس بعقد معاهدة معه تقضى بتنازل مصر له عن ممتلكاتها فى سـوريا وآسيا الصغرى وتراقيا وزواج بطلميوس الخامس من كليوبترة الأولى ابنة أنطيوخوس . وقد كان أنطيوخوس أيضاً يميل إلى التفاهم مع مصر لأنه أخذ يشعر عندئذ أن دور نضاله مع روما آت لا ريب فيه إذ أنها كانت لا تستطيع السماح له بالتوسع فى الشرق كيف يشاء فيصبح خطراً يتهدد نفوذها هناك . ومن ثم أخذ يعمل على كسب ود جيرانه ليقفوا إلى جانبه فى الكفاح المقبل بينهما . ولعل الدوافع إلى هذه المصاهرة الجديدة بين أسرتى البطالمة والسليوكيين لم تخل فى نظر كل من بطلميوس الخامس وأنطيوخوس الثالث مما هو أبعد من ذلك . فأغلب الظن أن بطلميوس الخامس كان يعلل النفس بأن يستعيد على هذا النحو جوف سوريا الذى كان يعتبر على الدوام ضرورياً لحماية حدود مصر الشرقية . وأغلب الظن أيضاً أن أنطيوخوس كان يمنى نفسه بأن يقضى هذا الزواج إلى بسط سلطانه على مصر . ومعنى ذلك أنه بعد أن كانت كل آمال السليوكيين فى الماضى استرداد جوف سوريا أصبحوا يطمحون إلى الاستيلاء على مصر نفسها[1] .

وإذ تقرر أن تكون جزية جوف سوريا دوطة كليوبترة الأولى ، اعتقد الجانب المصرى أن ملكية هذا الإقليم قد عادت إليه بموجب هذا الزواج ، ظناً منه أن التنازل عن جزية هذا الإقليم ينطوى أيضاً على التنازل عن ملكيته . ولعل الجانب المصرى فى ضعفه وتلهفه على الاتفاق مع إغراقه فى التفاؤل ورغبته فى ألا تبدو آماله سافرة بحيث تنفر الجانب الآخر لم يصر على تحديد ملكيته جوف سوريا فى شروط المعاهدة عسى أن تساعده الظروف فى المستقبل على تحقيق آماله دون عناء . ولا جدال فى أن الجانب السليوكى كان يعتزم الاحتفاظ

---

(١) إبراهيم نصحى ص ٩١ — ٩٢ .

بملكية جوف سوريا دون أنه يخيب عندئذ آمال الجانب المصرى التى لم تكن خافية عليه فجعل دوطة كليوبترة جزية جوف سوريا موهماً الجانب المصرى بأن التنازل عن الجزية ينطوى أيضاً على التنازل عن ملكية الإقليم دون ما حاجة إلى النص على ذلك فى شروط المعاهدة ، وهو ما كان الجانب السليوكى يحرص على تفاديه . ولا شك فى أن حرص السلوكيين على عدم تحديد ملكية جوف سوريا فى شروط المعاهدة يفضح نواياهم ، فقد كانوا يؤملون أنه عندما يثار هذا الموضوع فى المستقبل تكون الحاجة إلى استرضاء مصر قد انفضت ويكون فى وسعهم ، باعتبارهم الطرف الأقوى ، أن يفسروا شروط المعاهدة وفقاً لوجهة نظرهم ، على نحو ما يحدث منذ أقدم العصور حتى اليوم فى تفسير الاتفاقيات السياسية . وقد كان فى وسع السليوكيين القول عندئذ بأن التنازل عن جزية جوف سوريا لا يستتبع حتماً التنازل عن ماكية هذا الإقليم ، بل القول أيضاً أن هذه المنحة شخصية وتعود إلى مانحها عقب وفاة كليوبترة[١] .

وإزاء ذلك لم يكن هناك مفر من تجدد النزاع فى المستقبل القريب بين السليوكيين والبطالمة . وعقب وفاة بطليموس الخامس تولت كليوباترة الوصاية على ابنها إلى أن توفيت فى عام ١٧٦ ق . م . فكان ذلك إيذاناً بتجدد المشكلة السورية . ولما كان كل من الجانبين قد تمسك بوجهة نظره فإنه لم يكن هناك بد من الاحتكام إلى السيف لفض هذا النزاع . وما كادت تتم إستعدادات الفريقين للحرب حتى نشبت « الحرب السورية السادسة » التى تمخضت عن نتائج خطيرة ، فإن أنطيوخوس الرابع هزم الجيش البطالمى وتقدم إلى منف ، حيث أرغم ابن أخته بطلميوس السادس على قبول حمايته له ، مما دفع الإسكندريين إلى المناداة بأخيه الصغير ملكاً[٢] . فزحف أنطيوخوس على الإسكندرية بحجة الدفاع عن حقوق الملك الشرعى ، لكنه إزاء صعوبات الحصار وبسبب قلق أنطيوخوس من جراء ، اضطرابات وقعت فى فلسطين ،

---

(١) Cf. Josephos, Antiq. XII, 4, 154; C.A.H. VIII, pp. 187, 199; Cuq, in Syria vol. VIII, 1927; pp. 143, 144.

(٢) Otts,zur Gesch. Zeit des 6. Ptol. pp. 47-57.

قفل راجعاً إلى مملكته تاركاً حامية فى پلوزيون وبطلميوس الصغير ملكاً فى الإسكندرية وبطلميوس السادس ملكاً فى منف ، معتمداً على أن منافسة الأخوين ستمهد له السبيل لغزو مصر ثانية(١) .

وفى شتاء عام ١٦٩ — ١٦٨ خابت الأمال التى عقدها أنطيوخوس على منافسة الملكية الأخوين ، إذ أن المفاوضات التى دارت بينهما أفضت ، بفضل مساعى أختهما كليوبترة الثانية إلى اتفاقهما على أن يحكما البلاد سويا ، مما أثار غضب أنطيوخوس ودفعه إلى غزو مصر ثانية فى ربيع عام ١٦٨ ولذلك أخذ الأخوان يبحثان عن النجدة فى كل مكان . وللمرة الثانية تقدم أنطيوخوس بجيشه حتى أسوار الإسكندرية ، وهناك تمت المقابلة المشهورة بين أنطيوخوس وجايوس بوپيليوس لايناس (C. Popilius Laenas) السفير الرومانى . ولما كانت روما قد خرجت منذ برهة وجيزة منتصرة من « الحرب المقدونية الثالثة » فقد أصبح فى وسعها أن تتفرغ لأنطيوخوس وتملى عليه إرادتها ، وعندما ذهب السفير الرومانى لمقابلة أنطيوخوس لمصافحته يدّ الملك يده لمصافحته ، لكن السفير بدلا من أن يصافح الملك وضع فى يده رسالة تحوى قرار السناتو وطلب إليه أنا يقرأها قبل كل شىء ، فأطلع الملك عليها وأخبره أنه سيتدبر الأمر مع رفاقه . فلم يكن من السفير إلا أن خط بالعصى التى يمسكها دائرة حول الملك وطلب إليه أن يفصح كتابة عما يدور قبل أن يخطو خارج هذه الدائرة . فأخذ الملك بهذا المسلك الغريب الجرىء وتردد لحظة ثم أعلن أنه سيستجيب إلى المطالب الرومانية ، وعندئذ هز بوپيليوس يد الملك وحياه تحية ودية . وقد كانت رسالة السناتو تنطوى على أمر أنطيوخوس بالانسحاب من مصر وقبرص ، لا حباً فى الحرية ولا انتصاراً للاستقلال ، وإنما خوفاً على مركز روما فى شرق البحر الأبيض المتوسط من اتساع إمبراطورية السليوكيين(٢) فما أقرب الشبه بين أساليب السياسة قديماً وحديثاً ! وقد أذعن أنطيوخوس لإدانة

---

(١) C.A.H. VIII, p. 506; Bonché - Leclercq II, pp. 18-21.

(٢) Polyb. XXIX, II; Diod. XXXI, 2; Livius, XLV, 2; Bouché-Lecl. II, pp. 21-7; C.A.H. VIII, pp. 501-7.

روما لأنه كان من الحمق أن يشتبك معها بعد انتصارها فى مقدونيا وقبل بجاحة فى ضم مصر إليه[١] .

إن الحرب السورية السادسة لم يستفد منها إلا روما التى وضعت مصر على هذا النحو تحت حمايتها ، وقد ساعد النضال الدموى العنيف الذى سرعان ما نشب بين الأخوين الملكين على توطيد نفوذ روما فيها ، فلم يعد لمصر إلا ظل من الاستقلال وإذ أفلحت روما فى إخراج أنطيوخوس من مصر ذليلا مهاناً ، ظل العداء كامناً فى نفوس السليوكيين الذين أخذوا يتطلعون دون جدوى إلى فرصة ينقضون فيها على مصر . ومن ناحية أخرى لم ينس البطالمة ما ألحقه بهم أنطيوخوس الثالث والرابع من الذل والإهانة ، ومن ثم كانوا يضمرون للسليوكيين حقداً دفيناً ويعملون على الانتقام منهم وعلى محاولة استرداد جوف سوريا .

وعندما انفرد بطلميوس السادس بعرش مصر لم يلبث مجرى الحوادث فى سوريا أن أعطاه الفرصة للانتقام من السليوكيين ، فإن شخصاً يدعى إسكندر بالاس (Balas) قام يطالب بعرش سوريا ، الذى كان يتربع عليه عندئذ ديمتريوس الأول ، وبادر بطلميوس السادس إلى التحالف مع هذا المناوئ لديمتريوس . وفى صيف عام ١٥٠ ق . م . ساهم جيش بطالمى فى انتصار بالاس على ديمتريوس ، ومن ثم أصبح بالاس ملكاً على سوريا وبابل . وفى عكا تزوج بالاس من كليوبترة ثيا (Thea) ابنة بطلميوس السادس[٢] . لكن سرعان ما أثبت بالاس أنه غير جدير بالعرش الذى وقع فى قبضته ، فقد كان رجلا تافهاً ترك تصريف شئون الدولة فى قبضة وزيره أمونيوس (Ammonios) . وفى ربيع عام ١٤٧ بدأ ديمتريوس بن ديمتريوس الأول يعمل على استرداد عرش أبيه ، فاعتقد بطلميوس السادس أن الفرصة مواتية لاسترداد جوف سوريا . ومن ثم زحف من الجنوب على رأس جيش كبير واستولى على أهم المدن الساحلية حتى سليوكيا . وعندئذ أعلن انضمامه إلى جانب

(١) Rostovtzeff, p. 67.

(٢) C.A.H. VIII, p. 507-24; Bouché-Lecl. II, 46-9.

ديمتريوس الثانى واعدا إياه بعرش سوريا وبابل ويد ابنته كليوبترة ثيا ، زوجة بالاس على أمل أن يفوز بجوف سوريا لقاء ذلك . وهكذا أصبحت لمصر اليد العليا ثانية فى الشئون السورية حتى إن أهل أنطاكية عرضوا العرش على ملك مصر الذى كان صاحب هذا العرش قد أسره وكاد يستولى على كل مملكته منذ قليل . وسبحان مغير الأحوال ! لكن بطلميوس السادس رفض أن يضم الدولة السليوكية إلى مصر ، لا زهداً منه ولا قناعة وإنما خشية الاشتباك مع روما بسبب ذلك ، ومن ثم أقنع الأهالى بقبوله ديمتريوس الثانى ملكاً عليهم . وفى أوائل صيف عام ١٤٥ التقى بطلميوس السادس مع بالاس فى معركة حامية انتصر فيها بطلميوس لكنه أصيب بجرح مميت فى ميدان القتال . وقبل أن يلفظ النفس الأخير أتاه نبأ مصرع بالاس على يدى أحد شيوخ الأعراب[١]

وقد كانت النتيجة المباشرة لوفاة بطلميوس السادس أنه لم تعد تحت إمرة مصر عندئذ قوات كافية وأنها فقدت فتوحاتها فى سوريا ، إذ كان بطلميوس قد أخذ معه إلى سوريا الجانب الأكبر من القوات البطلمية ، وانتهز ديمتريوس الثانى فرصة مقتله وأرغم هذه القوات على الانضمام إلى جيشه أو الانسحاب إلى مصر كيفما اتفق[٢] .

وفى عهد بطلميوس السابع أتاحت الأحداث السورية لمصر فرصة جديدة للتدخل فى شئون الدولة السليوكية ، إذ أن ديمتريوس الثانى أصبح بغيضاً هناك إلى حد أن الأهالى طلبوا بطلميوس السابع أن يختار لهم ملكاً بدلا من ديمتريوس ، فاختار لهم شاباً كان ابن تاجر مصرى يدعى پروتارخوس (Protarchos) ، لكنه ادعى أنه ابن إسكندر بالاس واتخذ فعلا اسم الإسكندر ، غير أن أهل أنطاكية أطلقوا عليه لقب زابيناس (Zabinns) ومعناه العبد المشترى ؛ ومع ذلك فإنهم كانوا يفضلونه على ديمتريوس . وبالرغم من تأييد مصر لترابيناس فإنه استغرق ثلاثة أعوام كان قد قضى على ديمتريوس أعوام ليفوز

---

(١) C.A.H. VIII, pp. 524-5; Bonché-Lecl. II, pp. 49-53.

(٢) Bevan, p. 306.

بالعرش بسبب نشاط ديمتريوس الخارق للعادة [١] . وإذا كان قد قضى على ديمتريوس فإن زوجه كليوبترة ثيا استمرت تناضل ترابيناس للاحتفاظ بحقوق أسرة السليوكيين أصحاب العرش الحقيقيين . وعندما تصالحت كليوبترة الثانية ، أم كليوبترة ثيا ، فى عام ١٢٤ مع أخيها وزوجها الثانى وبطلميوس السابع ، أخذ ملك مصر يؤيد ابنة أخيه وأخته ضد زابيناس الذى قضى عليه فى العام التالى . وبعد أن دبرت كليوبترة ثيا مقتل ابنها سليكوكوس الخامس ، لأنه اتخذ لقب ملك دون استئذانها ، أشركت معها فى الملك ابنها الآخر أنطيوخوس الثامن ، الذى وعد بأن يسلس لها القياد وتزوج كليوبترة تريفاينا (Tryphaena) ابنة بطلميوس السابع . وفى عام ١٢١ لقت كليوبترة ثيا حتفها ، إذ أنها كانت تريد أن تحكم تحت ستار اسم ابنها ، لكنه لم يسلس لها القياد كما وعد ، فصممت على أن تدس له السم ، إلا أنه كشف عن المكيدة فى الوقت المناسب وأرغمها على تجرع السم الذى أعدته له . ويبدو أن بطلميوس السابع اكتفى بتنصيب ابنته ملكة على سوريا نتيجة لزواجها من أنطيوخوس الثامن فلم يكن له أى نشاط هناك عقب ذلك [٢] .

وقد أفضى النزاع بين أنطيوخوس الثامن وأخيه الصغير أنطيوخوس التاسع إلى تدهور الدولة السليوكية وكذلك إلى تدخل مصر من جديد فى الشئون السورية مما تمخض عن انفجار الصراع الكامن فى أسرة البطالمة بين بطلميوس الثامن من ناحية وأخيه بطلميوس التاسع وأمه كليوبترة الثالثة من ناحية أخرى ، إذ كان بطلميوس الثامن يؤيد أنطيوخوس التاسع ضد أنطيوخوس الثامن ومناصريه اليهود على حين كانت كليوبترة الثالثة وبطلميوس التاسع يميلان إلى تأييد أنطيوخوس الثامن واليهود [٣] . ويظهر أن كليوبترة الثالثة كانت تتطلع إلى الاستعانة بيهود الإسكندرية لتأييدها فى الصراع الداخلى ، وبيهود بيت المقدس للتدخل فى سوريا تدخلا مثمراً . وعلى كل حال لم تفد

---

(١) Bouché-Leclercq, II, pp. 77-9; Bevan pp. 313-4.

(٢) ,, ,, pp. 79-80; Bevan p. 314; Jouguet, Nat. Ey. p. 159.

(٣) Bevan p. 328; Jouguet, Nat. Eng. p. 161; C.A.H. VIII, p. 531; IX pp. 386-7.

مصر شيئاً على الإطلاق من تدخل الفريقين المتخاصمين فى شئون سوريا .

وقد أفضت الانقسامات الأسرية العنيفة بين السليوكيين إلى نقص مواردهم المالية وضعف قوتهم الحربية ، ومن ثم عجزوا عن صد الاعتداءات الخارجية وعن وقف تيار الانحلال الداخلى . فقد استولت بارثيا على الولايات الشرقية وبابل وبلاد ما بين النهرين (١) ، وضمت روما كيليكيا (٢) ، وأخذت أرمينيا تلتهم جزءاً بعد آخر من أملاك السليوكيين فلم يأت عام ٨٣ حتى كانت أرمينيا قد بسطت حدودها حتى جبل لبنان وطردت السليوكيين من سوريا (٣) . وانتهزت هذه الفرصة كوماجين (Coumagene) فى الشمال وچودايا فى الجنوب فاستقلتا عن السليوكيين (٤) . ولم يفت النبط أن يفيدوا من هذه الظروف فأخذوا يبسطون رقعة دولتهم جنوباً وشرقاً وشمالا حتى أنهم استولوا على دمشق (٥) . ولم تلبث البقية من دولة السليوكيين أن تقسمت إلى ولايات صغيرة (٦) . وبعد فتوحات پومبى فى الشرق دخلت سوريا فى حظيرة الإمبراطورية الرومانية فى عام ٦٤ ق . م . (٧) .

وعندما تزعزع مركز بطلميوس الحادى عشر فى مصر وفر منها إلى روما لم يفلح فى استعادة عرشه فى عام ٥٥ ق. م. إلا بمساعدة جابينيوس الحاكم الرومانى لولاية سوريا (٨) . وعندما خلفت كليوبترة السابعة ، وهى أشهر من من حملن هذا الاسم ، عندما خلفت إياها على عرش مصر ، لم ترنو ببصرها التى ضم جوف سوريا فحسب بل ولا سوريا كلها فحسب بل حاولت وكادت أن تنجح مرتين ، بفضل أسلحتها الذرية وعن طريق قيصر أولا وأنطونيوس

---

(١) Rostovtzell, p. 841.

(٢) Jouquet, Nat. Eg. p. 164.

(٢) Cary, pp. 352-3.

(٤) Rostovtzell, pp. 841-2.

(٥) Rostovtzell p. 841; Cary p. 356.

(٦) Rostovtzell pp. 842-4; Tarn p. 42.

(٧) Bevan p. 351; Cary p. 3566.

(٨) Bouché-Lecl. II, pp. 162-3; Bevan p. 356; C.A.H. IX, p. 604.

ثانياً ، فى التربع على عرش الإمبراطورية الرومانية بأجمعها . وإذا كان قتلة قيصر قد قضوا لحظة على هذه الآمال الواسعة فإن عبقرية أغسطس قضت عليها إلى الأبد كما قضت على دولة البطالمة نفسها فأصبحت مصر ولاية رومانية فى فى عام ٣٠ ق . م .

وإذا كانت العلاقات بين البطالمة والسليوكيين وليدة عوامل سياسية واقتصادية فإن العلاقات بين مصر والجزيرة العربية كانت وليدة علاقات اقتصادية فقط مبعثها شدة اهتمام البطالمة بالتجارة الشرقية ، ذلك الاهتمام الذى كان أيضاً أحد أسباب حرصهم على الاحتفاظ بملكية جوف سوريا ، بل أحد العوامل الرئيسية التى أملت سياستهم الخارجية فى شرق البحر الأبيض المتوسط . وبيان ذلك أن تجارة الشرق الأقصى كانت تسلك ثلاث طرق رئيسية فى سبيلها نحو البحر الأبيض المتوسط ، وهى طرق الشمال وطريق الوسط وطريق الجنوب . وكانت طريق الشمال تتجه من أواسط آسيا صوب بحر قزوين والبحر الأسود والبسفور والدردنيل (١) . أما طريق الوسط ، التى كانت أهم هذه الطرق فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، فكانت من الهند إلى سليوكيا على الدجلة أما بحر أو براً . وكانت التجارة المتجمعة فى سليوكيا تشق سبيلها نحو الغرب ، إما إلى دمشق وصور ، أو إلى أنطاكية ، التى كانت تخرج منها طريق رئيسية إلى إفيسوس . ولم تفقد طريق الوسط أهميتها إلا عندما استولت پارثيا على بابل ، ومن ثم أخذت تزداد أهمية طريق الجنوب ، وكانت طريقاً بحرية من الهند إلى الموانى الواقعة فى جنوب بلاد العرب أو جنوبيها الغربى (٢) ، وكانت أهمها فى عهد البطالمة أدانا (Adana) وجزيرة سقطرى (٣) وكانت المراكب الهندية تفرغ حمولتها لدى الأعراب ، الذين كانوا يحرصون أشد الحرص على هذه التجارة إلى حد أنهم كانوا لا يسمحون للمراكب الهندية بدخول بوغاز باب المندب . وكانت هذه التجارة تسلك إلى الشمال طريقين ،

---

(١) Strabo, 71, 73, 498, 509; Plin. VI, 52.

(٢) Tarm, pp. 211-2.

(٣) Jouguet, Nat. Eg. III, p. 170.

لم تكن إحداهما مستعملة بكثرة قبل عهد البطالمة ، وهى الطريق البحرية فى محاذاة الشاطئ الأفريقى أو شاطئ بلاد العرب . أما الطريق الأخرى وكانت أكثر أهمية من الأولى فهى الطريق البرية القديمة(١) ، التى كان النبط يسيطرون عليها منذ عهد الفرس . وعندما كان البطالمة الأوائل لا يمتلكون فلسطين وفينيقيا ، كانوا يعتمدون على النبط فى الحصول على حاجتهم من التجارة الشرقية ، وذلك لأن هذه الطريق البرية ، وتعرف باسم « طريق البخور » كانت تمر بسبأ ومعين وددان (Dedan — العلا) وأيلة (العقبة) إلى البتراء ، التى كانت تأتى إليها طريق أخرى من جرا (Gerrha) على الساحل الغربى للخليج الفارسى . فكان النبط يستطيعون توجيه التجارة حيثما تملى عليهم رغبتهم وأرباحهم ، إما إلى مصر أو إلى أى مكان آخر بعيد عن قبضة البطالمة . إلا أنه فى العادة كان جانب من التجارة الشرقية الآتية إلى البتراء يذهب إلى مصر ، وجانب آخر إلى غزة ، وجانب ثالث فيما يظن إلى سليوكيا على الدجلة ، والباقى إلى الشمال نحو أنطاكية . وكانت الطريق الطبيعية لذلك تمر بدمشق ، كما كانت الحال بعد عام ٢٠٠ ق . م . ، عندما أصبح جوف سوريا فى قبضة السليوكيين وظهرت قيمة ذلك فيما عرضه أنطيوخوس الرابع إبيفانس من الذهب والعاج والتوابل الهندية فى الحفل الذى أقامه . أما عندما كان البطالمة يمتلكون جوف سوريا ، فإن التجارة المتجهة شمالا كانت تتبع أيضاً طريقاً أخرى تمر بفيلاديفيا (عمان) وجراش (Gerasa) إلى بطوليميس (عكا) ومنها إلى فينيقيا(٢) .

ولم يكن فى وسع البطالمة وضع التجارة الشرقية فى قبضتهم ، إلا إذا تحكموا فى منافذ الطرق التجارية فى آسيا الصغرى وسوريا وعلى شواطئ البحر الأحمر . ويمكن تقسيم اهتمام البطالمة بالتجارة الشرقية إلى فترتين : إحداهما فى القرن الثالث ، عندما وجهوا جل عنايتهم إلى الاستيلاء على سوريا وشواطئ آسيا

(١) Rostovtzeff, p. 387.

(٢) Tarn, pp. 213-4.

الصغرى ؛ والأخرى ، منذ عهد بطلميوس السابع فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ، عندما اتجه إهتمامهم كلية إلى طريق الجنوب ، نتيجة لطردهم من آسيا الصغرى وسوريا وتلاشى سلطانهم من بحر إيجة .

ولا شك فى أن بعض أسباب نضال البطالمة مع السليوكيين من حوالى ٢٨٠ إلى ١٩٨ ق . م . تعزى إلى التنافس على الاستيلاء على منافذ الطرق التجارية فى آسيا الصغرى وسوريا . وقد انتهى هذا النضال بطرد مصر من آسيا الصغرى وسوريا فى عام ١٩٨ – ١٩٧ ق . م .[١] لكن استيلاء البطالمة على سوريا وبعض أجزاء آسيا الصغرى فى القرن الثالث لم يصرف البطالمة عن الاهتمام بطريق الجنوب التى كانت تجذبهم إليها عدة دوافع . ولا أدل على هذا الاهتمام من أن البطالمة أوفدوا سلسلة من البحوث الكشفية لمعرفة الشواطىء والشعوب وموارد الثروة أولا فى البحر الأحمر وفيما بعد فى منطقة المحيط الهندى . وقد بدأ بطلميوس الأول حركة الكشف فى البحر الأحمر[٢] ، إذ أن فيلون أمير البحر عنده كشف جزيزة الزمرد[٣] . واقتفى بطلميوس الثانى خطوات أبيه فأرسل حوالى عام ٢٨٠ أريستون للتعرف على شواطىء بلاد العرب من شبه جزيرة سينا حتى بوغاز باب المندب ، فزار شاطىء سينا حتى أيلة النبطية عند رأس خليج أيلة (خليج العقبة) ، ثم اتجه جنوباً ولاحظ أن النبط لم يتسعوا بعد جنوباً إلى ما وراء نهاية الشاطىء الشرقى لخليج أيلة ، وأنه لم يوجد جنوبى النبط إلا قبائل صغيرة . وقد كان أريستون أول إغريقى عرف شيئاً عن القبيلة الكبيرة ثمود ، التى كانت تقطن جانباً من الحجاز ، ووجد جنوبى ثمود إقليما أطلق عليه أرض الذهب على ضفاف نهر دباى (Debai) ، وزار مملكة معين فى جنوب بلاد العرب . ولا بد من أنه قد زار أيضاً مملكتى سبأ وكاتابانيا (Katabania) اللتين يذكرهما ، بين ممالك بلاد العرب الجنوبية ،

(١) Tarn, p. 212

(٢) Rostovtzeff, Archiv fur Papyrusforschung, IV, 298; Tarn, p. 214.

(٣) Diod. III, 39, 4; Plin. XXXVII, 108; Tarn, p. 214.

أراتوسثنيس الذي اعتمد فيما كتبه على تقرير أريستون . ولم يذكر هذا الرحالة شيئاً شرقي حضرموت ، لأن مهمته انتهت بوصوله إلى مضيق باب المندب[١] .

ومن المحتمل أن بطلميوس الثانى أرسل ، عقب رحلة أريستون ، حملة ضد النبط[٢] ، الذين اشتهروا فى عصر البطالمة بأعمال السطو والقرصنة ، إذ لا يبعد أنه كانت توجد منذ القدم علاقات تجارية بين أيلة وهروونوپوليس (Heroonopolis) زادتها نشاطاً زيارة أريستون إلى أيلة[٣] ، فنشط أيضاً قراصنة النبط فى الاعتداء على المراكب . ولما كان ينبغى على فيلادلفوس حماية تجاره ، فمن المحتمل أنه غزا النبط لمعاقبتهم على سوء أعمالهم . ومن المحتمل أيضاً أنه استولى إذ ذاك على الشاطئ الشرقى للبحر الميت ، الذى كان فى قبضة النبط .

وإذا كان هناك خلاف فى الرأى حول إرسال بطلميوس الثانى حملة ضد النبط للحد من قرصنتهم ، فإن الكل يتفق على أن رحلة أريستون كانت تمهيداً لتقوية علاقات مصر التجارية مع شمال بلاد العرب ، إذ أن العامل الاقتصادى كان فى أغلب الأحيان أهم الدوافع وراء ما قام به هذا العاهل[٤] . وإذا كانت أشور وبابل وفارس قد حاولت فى أيام عزهما الاستيلاء على « طريق البخور » فقد كان طبيعياً أن يحاول هذا الملك العظيم أيضاً الاستيلاء على هذه الطريق جنوبى النبط ليحول جانباً من التجارة الشرقية إلى مصر ، فيجنى من وراء ذلك فائدة كبيرة وفى نفس الوقت يلحق بأعدائه النبط أضراراً فادحة . ولذلك فإنه عقب رحلة أريستون أنفذ حملة إلى بلاد العرب تمخضت عن تنشيط العلاقات التجارية مع شعب ينزل فى الشمال الغربى من الجزيرة العربية على حافة « طريق البخور » فى المدينة التى تعرف الآن باسم « العلا » وكانت تعرف باسم مصران (Musran) وذكرت فى الإنجيل باسم « ددان » وكانت مستعمرة

---

(١) Diod. III, 42, 1; J.E.A. XV, p. 14.

(٢) Tarn, J.E.A., XV, p. 16.

(٣) Tarn, J.E.A. XV, p. 15.

(٤) Tarn, J.E.A. XIV, p. 246.

لمعين أو فرعاً من هذة المملكة[١] . وكانت تجارة هذه المدينة تنقل بالبر والبحر ، ولذلك لا بد من أنه كانت لها ميناء يظن أنها كانت إرجا (Erga) جنوبى مدخل وادى حمد . ويبدو محتملا أنه قد ترتب على تنشيط العلاقات التجارية القديمة بين مصر والعلا إنشاء ثغر أمپلونى (Ampelone) على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر . ومن هذا الثغر كانت تجارة الهند وبلاد العرب الجنوبية تنقل إلى مصر[٢] . وتحدثنا نقوش تابوت الكاهن المصرى زيدل (Zidl) بأنه فى العام الثانى والعشرين من حكم فيلادلفوس إستبدل بالبوسوس المصرى بضائع شرقية مع تجار معينيين دون وسيط[٣] . وكانت أمبلونى مستعمرة ميليتية يرجح أن بطلميوس الثانى هو الذى أوعز إلى ميليتوس بتأسيسها كما استعان أنطيوخوس الأول بمجنسيا فى تأسيس مستعمرة له فى بلاد الفرس[٤] . وعلى كل حال فإنه عندما تكاتفت عوامل مختلفة على تنشيط تجارة البطالمة فى البحر الأحمر منذ منتصف القرن الثانى أهمل البطالمة ثغر أمپلونى . وفى الوقت نفسه كان النبط قد تحضروا ونفوذهم امتد جنوباً ، فقضوا على أمپلونى وأنشأوا مكانها ، فيما يظن ، ليوكى — كومى (Leuke-Kome)[٥] .

ومما يجدر بالملاحظة أن الطريق البحرية لم تستهو كثيراً تجار الإغريق والعرب فى بداية عهد البطالمة بسبب خطورة الملاحة فى البحر الأحمر . وإذا كان من المؤكد أن هذه الطريق كانت تستخدم عندئذ فإنه من المؤكد أيضاً أن التجار كانوا يفضلون طريق البر برغم تكاليفها الفادحة . فلا عجب إذن أن بطلميوس الثانى قد استبدل بسياسته الأولى المعادية للنبط سياسة سلمية ، واتفق مع المدن الفنينيقية على نظام مرض فيما يتعلق بالتجارة الشرقية . ولذلك فإن الوثائق البردية (وثائق زينون) تشير بكثرة إلى شراء سلع من القوافل فى

---

(١) Tarn, J.E.A. XV, p. 16.

(٢) Tarn, J.E.A. XV, pp. 17 ff.

(٣) Zeitsch. fur Semitistik, I, 1922, pp. 113-133.

(٤) Tarn, J.E.A. XV, pp. 21ff.

(٥) Tarn, J.E.A. XV, p. 23.

فلسطين ، كما أنها تشير أحياناً إلى عقد صفقات مع النبط . ويتفق معاصرو بطلميوس الثانى على أن مصر كانت تجنى أرباحاً وفيرة من تجارة القوافل العربية بمساعدة المدن الفينيقية . وإذا كانت التجارة الشرقية قد عادت سيرتها الأولى عن طريقها القديمة ، فإن بطلميوس الثانى قد أفلح فى تحويل جانب منها إلى مصر بفضل علاقاته مع المعينيين(١) .

وقد مر بنا أن تجارة مصر الشرقية إضمحلت منذ عهد بطلميوس الخامس ، عندما طرد السليوكيون مصر من آسيا الصغرى وسوريا ، وتحكموا فى طرق القوافل القادمة من شواطئ بلاد العرب إلى سوريا بطريق البتراء ، لكن هذا الاضمحلال كان مؤقتاً ، لأن المجهودات التى كان البطالمة يوجهونها فيما مضى إلى آسيا الصغرى وسوريا تحولت فى عهد بطلميوس السابع إلى طرق الجنوب . فأخذت المراكب المصرية تجوب البحر الأحمر ، وبعد أن كانت لا تتخطى بوغاز باب المندب اجترأت إذ ذاك على اجتياز هذا البوغاز ، ووصلت إلى الإقليمين اللذين كانا ينتجان العطور وهما : حضرموت فى جنوب بلاد العرب ، و بلاد پنت على شاطىء الصومال ، إذ أن المستكشفين أخذوا يوجهون نشاطهم نحو الجهات التى يريد التجار زيارتها(٢) . وقد ترتب على ما أولاه بطلميوس السابع من العناية لتنظيم وتأمين طريق الجنوب أن ازدادت باطراد مقادير التجارة الشرقية التى كانت تمر بمصر ، حتى أنها فاقت كثيراً تلك المقادير التى كان البطالمة الأوائل يحتكمون فيها(٣) . وكان طبيعياً أن يصاحب نشاط مصر التجارى فى البحر الأحمر تقوية الروابط بينها وبين بلاد العرب . ويحدثنا پوسايدرينوس (Poseidonios) بأنه فى عهد بطلميوس السابع أبحر إيودوكسوس (Eudoxos) فى رفقة بحار هندى إلى الهند(٤) ، وبذلك كان أول إغريقى وصل إلى الهند دون الاستعانة بالطرق البرية . وعندما أصبح

(١) Cf. Rostovtzeff, pp. 388-9.

(٢) Préaux, L'economie royale des Lagides, 1929, pp. 358-9.

(٣) Rostovtzeff, p. 924.

(٤) Strabo, 98-102.

فى الإمكان الاتصال بالهند مباشرة ، كان لا بد من أن يضمحل الدور الذى كان العرب يلعبونه بمثابة وسطاء ، وأن تعتر تبعاً لذلك العلاقات بين مصر والعرب . ومما ساعد على ازدهار تجارة مصر الشرقية إنهيار مملكة سبأ فى عام عام ١١٥ ق . م . [١] ؛ وضعف مملكة السليوكيين فى عهد أنطيوخوس الرابع وخلفائه ؛ واستكشاف هيبالوس (Hippalos) طرق الاستفادة من الرياح الموسمية حوالى عام ١٠٠ ق . م . [٢] . مما يسر اجتياز باب المندب ، بل الإبحار إلى الهند مباشرة ، وإن كان يبين أن هذا الاستكشاف لم يستغل استغلالا تاماً إلا فى العهد الرومانى . ومع ذلك فقد استفاد منه البطالمة الأواخر ، لأن مراكبهم كانت تزور الموانئ فى جنوب بلاد العرب ، وكشفت جزيرة سقطرى ، وأبحرت أحياناً إلى الهند[٣] . وفى الواقع أنه إزاء نقص موارد مصر وازدياد مطالب إيطاليا من منتجات بلاد العرب والهند فى أواخر القرن الثانى ، اكتسبت التجارة الشرقية فى نظر البطالمة أهمية لم تكن لها من قبل[٤] . ولا أدل على ذلك ذلك من أنهم أنشأوا منصباً جديداً فى أواخر القرن الثانى وبداية القرن الأول قبل الميلاد ، وهو منصب « قائد البحر الأحمر والبحر الهندى » ، الذى يرجح أنه فى بداية الأمر كان يتولاه قائد مريدية قفط ، أما منذ عام ٧٨ ق . م . فإن قائد منطقة طيبة هو الذى كان يشغل هذا المنصب الجديد[٥] .

ولا سبيل إلى الشك فى أن التجارة الشرقية والاستكشافات تقدمت باطراد فى عهد البطالمة ، فأصبح لمصر نفوذ كبير فى بلاد العرب والهند حتى أن كليوبترة السابعة إقترحت على أنطونيوس بعد هزيمتهما فى موقعة أكتيوم أن يهجرا البحر الأبيض ويقيما لهما ملكاً على شواطىء البحار الهندية . ولا ريب فى

---

(١) Tarn, Hell. Civ. p. 214.

(٢) Jouguet, Nat. Eg. III, p. 171.

(٣) Tarn, p. 216.

(٤) Tarn, p. 215.

(٥) Rostovtzeff, p. 928; O.G.I.S., 186, 190.

أنها كانت جادة فى اقتراحها[١] ، وتلم جيداً بتلك الأصقاع الشرقية التى درسها المستكشفون ونشروا أخبارها . فقد كانت تدفعهم إلى كشوفهم حب المعرفة ، والحاجة إلى وصف الأقاليم المأهولة بالسكان ، والميل الفلسفى إلى دراسة حياة الشعوب المتبربرة التى كانت أكثر بداوة وكذلك أكثر سعادة من غيرها ، والرغبة فى فتح طرق جديدة نحو الشرق تقضى على احتكار الأعراب ، والشغف بإحياء التقاليد القديمة التى وضعتها حتشبسوت والإسكندر ودفع إليها حب المنفعة ، فكل هذا قد حدا بأولئك الرجال إلى كشف سبل طريق الجنوب . وتتجاوب أصداء هذه الدوافع فى مذكراتهم أو تقاريرهم التى رفعوها إلى البطالمة ، واستخدمها المؤرخ أجاثارخيدس (Agatharchides) والجغرافى أرتميدوروس فيما كتباه فى القرن الثانى قبل الميلاد . وكذلك اعتمد ديودوروس واسترابون على هذين الكاتبين فيما ألفاه بعد ذلك بحوالى قرن[٢] .

إبراهيم نصحى

---

(١) Tarn, p. 216.

(٢) Tarn, J.E.A. XV, 1929, p. 14.

إقريطش بين المسلمين والبيزنطيين
فى
القرن التاسع الميلادى

شاهد القرن التاسع الميلادى نشاطاً بحرياً إسلامياً باهراً فى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، أشبه بالعمليات الحربية البحرية الرائعة التى قام بها الأسطول الإسلامى على عهد الأمويين . وكانت آية هذا النشاط البحرى الجديد استيلاء المسلمين على جزيرة إقريطش (كريت) ، التى استعصى فتحها على بنى أمية وغدت قاعدة رئيسية لحركات الأساطيل الإسلامية فى هذا الشطر الهام من البحر الأبيض المتوسط . وجاء هذا النشاط البحرى وليد بعض أحداث داخلية تمخض عنها العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، إذ كانت هجرة جماعة من أهالى الأندلس إلى مصر إيذاناً بمطلع نشاط بحرى عظيم فى البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، جعل المسلمين يتجهون إلى تقليم أظافر البيزنطيين والحد من أعمالهم الحربية واعتدائهم على أرض الإسلام ، وبعث سالف هيبتهم ورسالتهم فى نشر راية الإسلام .

انبعث هذا النشاط البحرى عن ثورة قامت فى ركن قصى من أركان العالم الإسلامى المطل على البحر الأبيض المتوسط ، لم يكن يدرك أحد مدى ما تحمله أحداثه من تأثير على مجريات الحياة فى ذلك الوقت . إذ قامت فى الأندلس فى عهد الحكم الأول (٧٩٦ — ٨٢٢ م) ثورة أجج أوارها زعماء الفقهاء المقيمين فى الربض ضاحية قرطبة الجنوبية . ذلك أن عامة المسلمين هناك حنقوا على الحكم لإغراقه فى تناول الخمر وحبه للصيد ، فضلا عن اتخاذه حرساً له مكوناً من الزنوج والأجانب الذين لا يعرفون اللغة العربية، وما كان فى ذلك من استفزاز لشعور الناس . وبدأ الاضطراب سنة ٨٠٥ م حين كان كان الحكم يجتاز ذات يوم أحد شوارع العاصمة ، إذ هجم عليه الناس ورموه

بالحصباء وسط تصفيق الفقهاء وتشجيعهم . وتفاقم الأمر منذئذ حتى انفجرت ثورة خطيرة سنة ٨١٤ م تحت زعامة فقيه من البربر ، إذ حاصر الثوار الحكم فى قصره وضيقوا عليه الخناق . لكن حرس الحكم تمكنوا أخيراً من إخماد الفتنة والقبض على مدبريها .

وعاملت السلطات هذا الحى الثائر وأهله بمنتهى الشدة والقسوة ، فصلبت زعماء الثلثمائة ، ثم طلبت من سكانه أن يبرحوه جميعاً فى مدى ثلاثة أيام ، وبدأت بتدمير الحى فوراً . وأخذ سكان الربض يرحلون خارج الأندلس ، متجهين فى أعداد كبيرة إلى بعض بلاد الدولة الإسلامية التى يرونها صالحة لإقامتهم . فلجأ ثمانية آلاف منهم إلى مراكش ، على حين تابع عدد كبير منهم — ويبلغ نحواً من خمسة عشر ألفاً — سيرهم إلى مصر ونزلوا بالإسكندرية . وكان أولئك المهاجرون الذين حلوا بأرض مصر نواة النشاط البحرى فيما بعد من أرض كريت .

وصل هذا الحشد اللجب من الأندلسيين إلى الإسكندرية سنة ٨١٤ م — ١٩٩ هـ ، وكانت البلاد تعج بالحروب الأهلية ، حيث انتهز الأهالى فرصة الخلف بين الأمين والمأمون وناهضوا سلطان الخلافة العباسية . وهيأت هذه الأحوال الجو للأندلسيين ، الذين سرعان ما احتلوا الإسكندرية ، ونصبوا عليهم زعيماً من بينهم يدعى أبا حفص عمر بن عيسى الأندلسى . وظل الأندلسيون أصحاب الكلمة العليا فى الإسكندرية مدى ست سنوات ، حتى انتصر المأمون وأخذ يتفرغ لإخماد الفتن الداخلية بأرض خلافته . فبعث المأمون إلى مصر سنة ٨٢ م أحد قادته الأكفاء ، عبد الله بن طاهر ، الذى نجح فى إخماد الثورات الأهلية ، ثم اتجه إلى الإسكندرية التى اعتصم بها الأندلسيون . غير أن أولئك المهاجرين أدركوا قوة عبد الله بن طاهر ، وعقدوا معه صلحاً فى يونيو ٨٢٧ م — ربيع الأول ٢١٢ هـ تعهدوا فيه بأن يغادروا مصر ، وألا ينزلوا بأرض تابعة للخلافة الإسلامية ، وإنما يحطون رحالهم فى بلد تابع للدولة البيزنطية ، واختاروا مقرهم الأخير فى جزيرة إقريطش التابعة للبيزنطيين ، وهى من أثرى وأخصب أراضيهم (١) .

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك (طبعة مصر) ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

ويعتبر اختيارهم لجزيرة إقريطش حدثاً هاماً من أحداث القرن التاسع الميلادى ، لما تتمتع به الجزيرة من موقع استراتيجى ممتاز فى القسم الشرقى من البحر الأبيض المتوسط . إذ يمتاز هذا القسم من البحر الأبيض بكثرة بحاره الداخلية التى تتحكم فيها الجزر الصغيرة لسيطرتها على مسالكها الضيقة العديدة . وغدت هذه المضايق البحرية الواقعة بين الجزر مطمح أية قوة تبغى لنفسها السيادة والسيطرة على مياه تلك البحار . وعرف سكان هذه الجزر تلك الحقيقة ودأبوا على إفادة أنفسهم منها . غير أن جزيرة إقريطش تمتعت بمركز الصدارة بين هذه الجزر وغدت واسطة عقدها . ذلك أن بحر إيجه الذى اختص بالقسط الوافر من جزر البحر الأبيض المتوسط يشبه فى حده الجنوبى فوهة قربة تمتد عبرها جزيرة كريت ، وتقسم مدخله إلى شطرين تتحكم الجزيرة فى كل منهما . ومن ثم كان سادة كريت فى العصور القديمة أصحاب حضارات زاهرة ورجال بحار ممتازين أخضعوا لسلطانهم مياه البحر الأبيض المتوسط الشرقى من برقة إلى بلاد اليونان . فكانوا يتحكمون فى السفن التى تمخر عباب هذه المياه وفاضت خزائنهم بالمال حتى أطلقوا على هذه المساحة من الماء اسم « البحر الذهبى »[١] .

وتمتعت كريت إلى جانب موقعها الجغرافى الممتاز ، بمقومات أخرى جعلت سيادتها على سائر جزر بحر إيجه راسخة الأوتاد ، إذ لها سهل ساحلى خصيب يمتد على شاطئها الشمالى بجزاء سلسلة جبالها ويقوم بأود بعض سكانها ، على حين وجد باقى السكان فى أخشاب جبالها مصدرا لبناء أسطول دائم هيأ لهم الاشتراك فى عمليات نقل المتاجر أو الدفاع عن سواحل الجزيرة ومد يد المعونة لمن يحتاج إليهم من القرى المحيطة بهم . ومن ثم اشتهرت كريت بأنها كانت منذ أقدم العصور مصدراً عظيماً للجند المرتزقة الذين نزحوا من جزيرتهم إلى البلاد المجاورة يعرضون بها قوتهم وشجاعتهم[٢] . فهذه العوامل جميعها جعلت كريت قلب البحر الأبيض المتوسط النابض ، والمحور الذى تدور عليه أحداثه .

(١) Semple, The Geography of the Mediterranean Region (London 1932), 74.

(٢) Ibid, 639, 440, 644, 656.

عرف المسلمون هذه الحقيقة منذ أن رسخت أقدامهم فى إقليم الشام ومصر ، وغدا لهم ساحل طويل مطل على البحر الأبيض المتوسط . وكان معاوية بن أبى سفيان سواء وهو والى على إقليم الشام ، أو وهو خليفة المسلمين صاحب الفضل الأول فى إدراك أهمية جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقى فى الصراع بين المسلمين والبيزنطيين ، ولا سيما جزيرة إقريطش عمود هذه الجزر الفقرى . فامتدت إغاراته البحرية بعد استيلائه على جزيرة قبرص إلى أرض إقريطش ، حيث غزاها خباءة بن أمية الأزدى ، الذى اشتهر بجولاته البحرية الموفقة فى البحر الأبيض المتوسط الشرقى . ولكن الأمر لم يتعد فى ذلك الوقت المبكر مجرد الإغارات على الجزيرة ، دون أن يغفل سائر خلفاء بنى أمية أهمية هذه الجزيرة . فكانت أنظارهم تتجه إليها إبان موجات فتوحاتهم وتوسعهم الحربى . ففى زمن الوليد (٧٠٥ – ٧١٥ م) الذى بعث موجة الفتوحات الإسلامية مرة أخرى على شواطئ البحر الأبيض المتوسط فتحت بعض أجزاء من جزيرة إقريطش ، ولكن لم تستقر قبضة المسلمين عليها[١] .

وظلت جزيرة إقريطش مطمح أنظار المسلمين حتى زمن الخلافة العباسية . ففى خلافة هارون الرشيد (٧٨٦ م – ٨٠٩) غزاها حميد بن معيوف الهمدانى قائد أساطيل الخلافة العباسية فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، دون أن يستولى عليها جميعاً . وهكذا اقتصر الأمر على جزيرة كريت حتى استولى عليها مهاجرو الأندلس فى خلافة المأمون العباسى (٨١٣ – ٨٣٣ م) [٢] . ويبدو أن الزمن ادخر إقريطش لمسلمى القرن التاسع الميلادى ، لتذكر العالم الإسلامى بأن رسالة الجهاد لا تعرف زمناً معيناً وأن موجة الحماس الدينى لا تحدها فترة خاصة .

ويعتبر اختيار مهاجرى الأندلس جزيرة إقريطش مقراً لهم أمراً وليد الدراسة والتجربة ، إذ عرفوا اثناء إقامتهم بالإسكندرية شيئاً عن الجزيرة وأحوالها . ذلك أن المسلمين إبان نشاطهم البحري فى القرن التاسع الميلادى أغاروا على كريت

---

(١) ياقوت : معجم البلدان (مصر) ، ج ١ ، ص ٣١١ .
البلاذرى : فتوح البلدان (مصر) ، ص ٢٤٤ .

(٢) البلاذرى : نفس المرجع ، ص ٢٤٥ .

كثيراً لثرائها ، واتخذوها ملجأ فى الطريق حين دفعتهم الظروف قهراً إلى ذلك . وفضلا عن ذلك بعث أولئك الأندلسيون سفنهم من الإسكندرية إلى إقريطش ، حيث أغارت عليها وعادت لهم محملة بالغنائم ، حتى استهواهم أخيراً ثراؤها وتجارتها[١] . وكانت أحوال الإمبراطورية البيزنطية فى ذلك الوقت تشجع قيام أمثال هذه الإغارات ، إذ كانت السلطات البيزنطية فى شغل شاغل بإحدى الثورات الخطيرة التى نشبت فى آسيا الصغرى ، وكادت تزلزل أركانها . فسحب الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثانى (٨٢٠ – ٨٢٩ م) قواته وجيوشه من أطراف إمبراطوريته لدفع الخطر المحدق بعاصمته ، ولم يتمكن من إخماد الثورة إلا سنة ٨٢٣ م[٢] .

وجاء انتصار ميخائيل الثانى بعد أن ازدادت رغبة مهاجرى الأندلس فى كريت واقاموا لهم مستعمرة بها فى نفس السنة التى قضى فيها على الثورة (٨٢٣ م) حول خليج سودا (Suda) . ثم لم تلبث مجريات الأحداث فى مصر أن دعمت هذه المستعمرة ، إذ أن انتصار عبد الله بن طاهر وحمله الأندلسيين على مغادرة الإسكندرية ، دعا سائر المهاجرين إلى النزوح إلى إقريطش والاستيلاء عليها ، وضمها إلى قائمة الفتوحات الإسلامية ، إذ جمع زعيمهم أبو حفص الذى تسميه المراجع البيزنطية Απόγαω' أربعين سفينة حمل فيها كثيراً من أتباعه ، ومعظمهم من الشباب الفتى ويمموا وجههم شطر كريت عازمين على اتخاذها وطناً مستقراً لهم[٣] .

ويعيد استيلاء مهاجرى الأندلس على كريت أحداث الفتوحات الإسلامية الأولى ، إذ نزل أولئك المسلمون الأول الذين حملوا رسالة الإسلام بأراضى قطعت أوصالها المنازعات الدينية والاضطهادات المذهبية ، فضلا عما ناءت به

---

(١) Vasiliev, Byzance et les Arabes (Bruxelles 1935), 54, 55.

(٢) أشعل نيران هذه الثورة أحد الخارجين على الإمبراطور ميخائيل الثانى ويدعى توماس ، وتمتاز هذه الثورة بأن المأمون مد يد المساعدة لتوماس وشجعه فى ثورته على الإمبراطور ، مما جعلها ثورة خطيرة كادت تطيح بالدولة البيزنطية .

(٣) Finlay, History of Greece, II, 135; Vasiliev, Op cit, 55.

من أعباء الضرائب الباهظة ، كما كان الحال فى مصر والشام زمن تبعيتها للبيزنطيين . وكان ذلك هو حال جزيرة إقريطش عشية استيلاء الأندلسيين عليها ، إذ كانت تئن من شدة وطأة السلطات البيزنطية عليها ومن سوء إدارتها . ولذا كما رحب سكان الشام ومصر بالغزاة المسلمين ، استقبل أهالى إقريطش الفاتحين المسلمين دون أية معارضة ، وأبدوا رضاءهم بالخروج من التبعية البيزنطية .

هكذا نزل أبو حفص وأتباعه فى خليج سودا بأرض كريت سنة ٨٢٧ — ٨٢٨ م آمنين مطمئنين . وتروى المراجع البيزنطية بصدد نزول هذه الحملة قصة طريفة ، تبين مدى ما حمله أولئك الفاتحون الجدد فى نفوسهم من عزم وبأس ، وتصميم على الإقامة بهذه الجزيرة مهما كانت الملابسات . إذ بعد أن نزل جند أبى حفص إلى الشاطئ وتوغلوا داخل الجزيرة أمر بحرق السفن جميعها حتى يحملهم على التخلى عن أية فكرة قد تعاودهم فى العودة إلى الإسكندرية والالتحاق بنسائهم وأطفالهم الذين خلفوهم بها[١] . وعندما عادوا من غزوتهم ورأوا النار مشتعلة بالسفن ، ثارت ثائرتهم ، واتهموا زعيمهم أبا حفص بالجنون حين اعترف لهم بأنه هو الذى أمر بإحراقها . غير أن أبا حفص قبض سريعاً على ناصية الموقف وقال لهم « م تشكون ، لقد جئت بكم إلى أرض تفيض لبناً وعسلا ، وهذا هو وطنكم الحقيقى ؟ أريحوا أنفسكم من عناء التعب ، وانسوا وحشة وطنكم الأول . » وهنا قالوا له : « وماذا يؤول إليه أمر نسائنا وأطفالنا ؟ » فأجابهم « اتخذوا لكم من نساء الجزيرة الجميلات زوجات ، وبذا تصبحون عما قريب آباء جيل جديد . »

وكان استقرار المسلمين أولا بالغرب من خليج سودا ، حيث شيدوا لهم حصناً وأحاطوا مستعمرتهم بخندق يحميهم شر هجوم مفاجئ . غير أن أحد رهبان جزيرة كريت دلهم على مكان آخر أكثر ملاءمة وصلاحية فى الجهة الشرقية من الجزيرة ، فأسسوا لهم هناك عاصمة أقاموا بها حصناً وأحاطوها

(١) Vatiliev, Op. cit, 55.

(٢) Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire (New York), II, 820

بخندق كذلك ، ومن هذا الخندق أخذت العاصمة اسمها والذى تعرف به حتى اليوم وهو «كانديا» (Candia) وهذه الظاهرة الخاصة بتأسيس حاضرة لهم تسير مع سياسة العرب المسلمين فى تدعيم فتوحاتهم ، إذ أسسوا من قبل الفسطاط والقيروان وغيرها إبان فتوحاتهم الأولى ، وتجدد ذلك مرة أخرى فى جزيرة كريت فى القرن التاسع الميلادى على أيدى أولئك المهاجرين الأندلسيين . وبدأت بذلك فى جزيرة إقريطش نواة مجتمع جديد حيث تزاوج المسلمون مع أهالى الجزيرة ، وشاهدت الجزيرة كذلك عهد نظام جديد خلصهم مما عانوه من قبل[١] .

وتهدم هذه الظواهر السالفة ما تردده المراجع الأوربية الحديثة من وصف نزول المسلمين بأرض إقريطش بأنها ضرب من أعمال القراصنة . وإصرار هذه المراجع على ترديد هذه الحقيقة لا يخلو من التعصب ، لأن المسلمين لم يحترفوا القرصنة فى يوم من الأيام ، كما أنها ليست مما تألفها نفوسهم أو من الأمور التى أعدتهم الطبيعة لها . ويعزى زيوع هذه الفرية التى يسميها الكتاب الأوربيون بأعمال مسلمى كريت البحرية إلى البابوية التى أطلقت هذا التعميم الخاص بكلمة القراصنة على أعمال المسلمين البحرية فى البحر الأبيض المتوسط وما اختلط بها من أعمال قرصنة حقة قام بها غير المسلمين من شعوب أوربا المطلة على البحر الأبيض المتوسط . على أن تأسيس المسلمين حاضرة لهم بجزيرة إقريطش وإقبالهم على الامتزاج بأهلها ونشر الإسلام بينهم ينهض كل هذا دليلا يدحض ما يردده الأوربيون بالقرصنة .

وأخذ المسلمون يوسعون سلطانهم تدريجياً حتى شمل أرجاء الجزيرة كلها . وكانت الجزيرة مقسمة إذ ذاك إلى ثمان وعشرين مقاطعة دانت كلها بالطاعة للمسلمين ، وبدأت تشاهد عهداً جديداً فى ظل الإسلام دام قرناً ونصف قرن تقريباً . إذ دخلت فى ظل التبعية للخلافة العباسية حيث اعترف ولاتها بسلطان الخليفة فى بغداد ، وغدت تابعة لمصر فى التقسيم الإدارى لأرض

---

(١) Finlay, op. cit, 135, 136.
Gibbon, op. cit, 820.

الخلافة[١] . وهكذا وجد العالم الإسلامى ميداناً جديداً بعث نشاطهم البحرى من جديد، ورفع راية الإسلام خفاقة على مياه البحر الأبيض المتوسط . إذ سرعان ما تلقى مسلمو كريت المساعدات والإمداد من أرجاء العالم الإسلامى ، فضلا عما قاموا به أنفسهم من مجهودات خاصة فى تلك السبيل . إذ سرعان ما جددوا أسطولهم حيث أمدتهم غابات جبال « إدا » (Ida) بما احتاجوا إليه من أخشاب[٢] . واستطاعوا بفضل ذلك أن يردوا المحاولات البيزنطية المتكررة لاستعادة الجزيرة على أنقاضها ، ثم القيام بنشاط بحرى جعل المسلمين سادة البحر الأبيض المتوسط الشرقى .

وحقق استعداد المسلمين فى إقريطش الأغراض التى هدفوا إلى الوصول إليها . ذلك أن الإمبراطورية البيزنطية لم تكن لتغفل أمر هذه الجزيرة وتتركها لقمة سائغة يلتهمها المسلمون ، إذ فضلا عن أنها ركن تابع للإمبراطورية فإن ضياعها أصاب نظمها الإدارية القائمة إذ ذاك بشلل معقد ، لأن الإمبراطورية كانت مقسمة فى ذلك الوقت إلى أقاليم إدارية بكل منها فيلق من جند الجيش البيزنطى للدفاع عنها ، ويتولى شئون الإقليم القائد العام للفيلق . وعرف هذا التنظيم الذى جمع فيه قائد الفيلق إلى جانب سلطته الحربية ، سلطات مدنية ، باسم نظام البنود . وكانت بنود الإمبراطورية البيزنطية قسمين ، بنود برية ومعظمها ينتظم آسيا الصغرى ، وأخرى بحرية وتضم شواطىء آسيا الصغرى المطلة على بحر إيجه ، وكذلك سائر جزر هذا البحر . ولذا جاء ضياع كريت حادثاً فرط عقد البنود البحرية ، وأشاع الفوضى فى نظام التعاون الذى قام بينها وبين البنود البرية فى صدر حركات المسلمين البحرية . ومن ثم اضطلع قادة بنود آسيا الصغرى بمهمة استرداد كريت ، وأمدتهم السلطات المركزية بالقسطنطينية بما احتاجوا إليه من أمداد وأساطيل .

---

(١) Vasiliev, op. cit, 56;
Finlay, op. cit, 137.

(٢) Gibbon, op cit, 820.

بدأ الإمبراطور ميخائيل الثانى جهوده لإخراج المسلمين من إقريطش بعد أن انتهى من تهدئة الحالة فى آسيا الصغرى عقب القضاء على الثورة التى نشبت فيها . فجهز حملة قامت فى سنة ٨٢٨ م أى بعد نزول المسلمين مباشرة بأرض إقريطش . وتولى قيادة هذه الحملة فوتيناس (Photinas) حاكم بند أناتوليا بآسيا الصغرى ، واختيرت تلك الشخصية من ذوى الأصل العريق وممن كانوا يتمتعون بمركز ممتاز فى الدولة البيزنطية لجلال المهمة التى عهدت إليه . ولكن ما إن اقترب فوتيناس من إقريطش حتى أدرك صعوبة غزو الجزيرة بما كان لديه من قوات . فأرسل يطلب إمداداً ، بعثتها السلطات البيزنطية توا تحت قيادة داميان أحد كبار رجال البلاط البيزنطى . غير أن هذه القوات كلها لم تستطع أن تناضل مسلمى كريت ، الذين برهنوا على صفاء معدنهم الأصلى ، وهو أنهم رجال شم الأنوف أباة ، يدافعون عن عقيدتهم دفاع الأمجاد الأبطال . فكما أنهم أبوا أن يطأطئوا الرأس من قبل فى بلاد الأندلس كذلك أبوا أن يهنوا أمام جحافل البيزنطيين ، وأنزلوا بهم هزيمة فادحة جرح فيها داميان وأخذ أسيراً ، على حين فر فوتيناس ، صاحب الأصل العريق ، فى مركب صغير إلى جزيرة « ديا » (Dia) التى تقع شمالى الخندق عاصمة كريت ، ومنها فر إلى القسطنطينية ليبلغ أول نبأ سيئ إلى الإمبراطور البيزنطى (١) ، ويكشف بجلاء عن صلابة عود مسلمى كريت ، وأنهم لا يقلون استبسالا فى القتال عن المسلمين الأول .

غير أن الإمبراطور ميخائيل الثانى لم يفقد الأمل ، وصمم على أن يعيد الكرة على مسلمى كريت . وأعد حملة اضطلع بها كراتيروس (Krateros) حاكم بند « كبيرا » ومعه أسطول مكون من سبعين سفينة . وتدل هذه الحملة الثانية على مدى ما جاش بنفس الإمبراطور من قلق ولهفة على استرداد كريت ، حتى إنه حشد لها قوات أكبر بند بحرى فى الإمبراطورية . إذ أن هذا البند هو الذى وقف بالمرصاد لعمليات العرب البحرية منذ أيام بنى أمية والعباسيين الأول وعرقل كثيراً من حركاتها . وتدعى المراجع البيزنطية أن هذا لحملة نالت

---

(١) Cedrenus, Annals, (1566), 418.

نصراً فى المعركة التى دارت رحاها على الشاطئ والتى ظلت مستعرة من مطلع الشمس إلى مغربها ، وأن المسلمين فروا تحت جنح الليل إلى داخل الجزيرة . ولم يتابع البيزنطيون جهودهم ، معتقدين أن المسلمين هزموا نهائياً وأنهم سوف يستسلمون فى صباح اليوم التالى . ولكن يبدو أن انسحاب المسلمين كان خطة مرسومة ، إذ جمعوا صفوفهم أثناء الليل ، وتسللوا إلى الساحل حيث استولوا على الأسطول البيزنطى الراسى فى مياه كريت ، ثم فاجأوا المعسكر البيزنطى ، حيث أنزلوا بالجند هزيمة ساحقة ، وقلبوا مرحهم ومجونهم الذى كانوا يقضون به أمسيتهم إلى أنين وجراح مثخنة . ولكن تمكن كراتيروس من التنكر والهرب على ظهر سفينة تجارية حملته إلى جزيرة كوس (Cos) . غير أن مسلمى كريت أدركوا هذه الخدعة ، وسارعوا إلى مطاردة هذه الشخصية الخطيرة فى ميدان العمليات البحرية ، وقبضوا عليه فى هذه الجزيرة ونقلوه إلى كريت حيث أعدم[١] .

وهكذا أنزل مسلمو كريت هزيمتين ساحقتين بشخصيتين من أعظم قادة الدولة البيزنطية ، وأطاحوا بحملتين كرست لهما السلطات البيزنطية الشىء الكثير من جهودها وماليتها . وضمن هذا الفوز استقرار كريت تحت السيادة الإسلامية ، وحمل البيزنطيين على التخلى عن مشاريعهم لاسترداد الجزيرة . وقنعت الإمبراطورية البيزنطية بأن تكرس نشاط أساطيلها للدفاع عما تبقى لها من جزر فى بحر إيجه ، وتدفع عنها بأس أساطيل مسلمى إقريطش التى بدأت تبسط نفوذها على الجزر المجاورة لهم . فأعد الإمبراطور ميخائيل الثانى أسطولا حشد له خيرة رجال الإمبراطورية وأحسن أساطيلها ، وأنفق عليه بسخاء لحراسة بحر إيجه . واتجه هذا الأسطول إلى استعادة بعض الجزر الصغيرة التى دخلت فى التبعية لجزيرة كريت[٢] ، دون أن يستطيع التوفيق فى هذه المهمة . ومن ثم أخذ نفوذ البيزنطيين وهيبة أساطيلهم تضعف فى البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، وانقلبت خطة مسلمى كريت من الدفاع إلى الهجوم .

---

(١) Cedrenus, op. cit, 420

(٢) Vasiliev, op. cit, 61.

بدأت حملات أساطيل إقريطش المظفرة فى عهد الإمبراطور ثيوفيل (٨٢٩ – ٨٤٢) ، صاحب الجولات مع المعتصم العباسى . إذ فى السنة الأولى من عهد هذا الإمبراطور نالت أساطيل إقريطش فوزاً مبيناً على الأسطول الإمبراطورى نفسه قرب جزيرة ثاسوس (Thasos) ، ثم تابعت نشاطها تدريجياً حتى بلغت إغاراتها فى أواخر عهد هذا الإمبراطور إلى سواحل آسيا الصغرى سنة ٨٤١ م(١) .

وامتزج هذا الدور من النشاط البحرى باستغلال الفريقين المتناضلين للأحوال السياسية فى كل من دولتيهما ، إذ اتجه كل من المسلمين والبيزنطيين إلى تلمس حالات الضعف أو الفرص المواتية لعرقلة أى مجهود حربى به يقوم أى فريق منهما . إذ حدث فى سنة ٨٤٣ م أن أعد أحد القادة فى مجلس الأوصياء على الإمبراطور ميخائيل الثالث حملة للهجوم على جزيرة إقريطش يبتغى بها لنفسه الشهرة والمجد . ونجح هذا القائد ويدعى ثيوكيستوس (Theokistos) فى حصار مدينة الخندق بجنوده وأساطيله . لكن مسلمى إقريطش حملوه على رفع هذا الحصار والقضاء على خطته ، إذ دبروا له خدعة أشاعوها بين جنده حتى وصلت إليه ، وذلك بأن رشوا بعض ضباطه على أن يرددوا بين الجيش البيزنطى أن الإمبراطورة الأم الوصية رفعت أحد منافسى هذا القائد البيزنطى إلى مرتبة شريكها فى مجلس الوصاية وأبعدت ثيوكيستوس عن ميدان النفوذ والسلطان . وما إن بلغت هذه الشائعة مسامع ثيوكيستوس حتى أسرع عائداً إلى القسطنطينية ، تاركاً جيشه وأسطوله تحت رحمة مسلمى إقريطش(٢) . وبذلك باءت هذه الحملة بالفشل ، واستعادت أساطيل إقريطش نشاطها حتى هددت مياه القسطنطينية نفسها .

أثارت الهزائم المتتالية التى منيت بها الحملات البيزنطية الهائلة أولى الأمر فى القسطنطينية على دراسة هذا الموقف وتدبر سر قوة مسلمى كريت . ودلت

---

(١) Finlay, op. cit, 137.
Finlay, op. cit, 137.

(٢) Vasiliev, op. cit, 194, 195;
Bury, History of the Eastern Roman Empire, (London 1912), 291, 292.

الأحداث على أن بلاد العالم الإسلامى المطلة على البحر الأبيض المتوسط أمدت مسلمى إقريطش بالمؤن والعتاد ، وزودتهم بما جعلهم شجى فى حلق الإمبراطورية البيزنطية . واتضح أن مصر كانت القاعدة الرئيسية التى كفلت شئون إقريطش فى هذا الميدان ، تحت إملاء سياسة الخليفة فى بغداد ، إذ آثرت السلطات الإسلامية فى العراق تشجيع هذا النشاط البحرى الإسلامى لإضعاف قوة البيزنطيين على الجبهة الشرقية الممتدة بين شمال الجزيرة والشام وأرض الدولة البيزنطية فى جنوب آسيا الصغرى .

أدركت الإمبراطورية البيزنطية أن مصر دعامة نشاط مسلمى كريت البحرى ، وأعدت حملة للهجوم على دمياط وشل حركة التعاون بينها وبين كريت . وحدث الهجوم البيزنطى سنة ٨٥٣ م على دمياط فى عهد ولاية عنبسة بن إسحق على مصر . وكان الأسطول البيزنطى مكوناً من ثلاث وحدات كل وحدة منه بها مائة سفينة ، هاجمت واحدة منها تحت قيادة أمير بحر بيزنطى يدعى ابن قطونة دمياط فجأة أول أيام عيد الأضحى ١٢ مايو سنة ٨٥٣ ــ ٢٣٨ هـ وجاء هذا الهجوم ومدينة دمياط خلو من حاميتها ، التى سبق أن استدعاها الوالى إلى الفسطاط للاشتراك فى العرض الحربى هناك بمناسبة عيد الأضحى(١) . ومما لا شك فيه أن الدولة البيزنطية كانت واقفة بالمرصاد لهذه القاعدة الهامة وتنتهز الفرص للأيقاع بها ، إذ ليست المصادفة البحتة هى التى هيأت للبيزنطيين الهجوم على دمياط والمدينة عارية من وسائل الدفاع .

بدأ البيزنطيون جاهدين على إشعال النار فى المدينة التى وقفت عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، ثم اتجهوا إلى مخازن المدينة واستولوا على مؤن كانت معدة لإرسالها إلى حاكم جزيرة إقريطش . وبعد أن حققوا هذه الهدف الرئيسى ، حطموا خزائن المعدات البحرية وأسرعوا عائدين إلى بلادهم ، قبل أن تصل النجدات الإسلامية من داخل البلاد . ولا يعرف الدور الذى قامت به الوحدتان البيزنطيتان الأخريان ، ولكن يحتمل أنها كانت تعمل على مراقبة مياه مصر

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٤٨ .

وكريت لمنع وصول المؤن التى كان مزمعاً إرسالها من مصر[١] . وهكذا جاءت أحداث حملة دمياط تثبت مدى التعاون الذى قام بين مصر وإقريطش ، وأن الإمبراطورية البيزنطية تنبهت إلى هذه الحقيقة بعد أن أعيتها الوسائل للحد من شوكة مسلمى إقريطش .

على أن هجوم البيزنطيين على دمياط بعث نشاطاً بحرياً إسلامياً جديداً على مقياس واسع المدى ، إذ اتجهت مصر أولا إلى تقوية أسطولها ولا سيما وحداته التى عهد إليها حراسة شواطئ البلاد ، وأخذت تنتقى الرجال الذين يصلحون للأسطول . وتردد صدى هذا النشاط الجديد فى استئناف أساطيل كريت حملاتها على أراضى الدولة البيزنطية واشتداد وطأتها . وزاد فى قوة هذه الإغارات الإسلامية الجديدة تعرض الدولة البيزنطية لخطر جديد من ناحية الروس، الذين ظهروا لأول مرة فى ذلك الوقت على مسرح أحداث الدولة البيزنطية . إذ فى سنة ٨٦٠ م قام الروس بغارة مفاجئة على القسطنطينية، وأعملوا فيها النهب وعادوا مسرعين . فانتهز مسلمو كريت هذه الفرصة المواتية وهاجموا جزر سيكلاديس (Cyclades) وشواطئ آسيا الصغرى وعادوا بغنائم وفيرة . وكان امتداد النشاط البحرى الإسلامى إلى شواطىء آسيا الصغرى هدفاً مرسوماً رمى المسلمون إلى تحقيقه . إذ كانت قواعد هذا الشاطئ مراكزاً يتجمع فيها الجند البيزنطيين الذى يحملهم الأسطول لمهاجمة جزيرة إقريطش، ومن ثم عرقلت إغارات المسلمين المتكررة عليها جهود البيزنطيين ، وقضت على التعاون بين قواتهم البرية والبحرية . وفضلا عن ذلك كانت إغارات المسلمين على جزر بحر إيجه حد لنشاط الأساطيل البيزنطية ، ومنع أهاليها من مد يد المساعدة للبيزنطيين . ففى سنة ٨٦٢ م أغار مسلمو إقريطش على جزيرة ميتيلين (Mytilene) وكذلك جزيرة نيون (Neon) سنة ٨٦٦ م[٢] .

وهكذا دعم مسلمو إقريطش سلطانهم البحرى فى بحر إيجة مرة ثانية ، وأثبتوا أن الجهاد الإسلامى ميدان تتعاون فيه جميع قوى العالم الإسلامى بما يكفل له

---

(١) Vasiliev, op. cit, 212-218.

(٢) Vasiliev, op. cit, 258.

العزة والمنعة . وغدت حركات الأساطيل الإسلامية مثار فزع وقلق فى الإمبراطورية البيزنطية ، دون أن تستطيع الخروج من هذه المآزق التى سببتها لها أعمال مسلمى إقريطش . واتضح من الأحداث الداخلية للإمبراطورية البيزنطية فى تلك الفترة من القرن التاسع الميلادى أن مسألة إقريطش كانت الشغل الشاغل لأولى الأمر بالدولة ، وأنهم لم يكونوا جادين فى إعداد الحملات التى بعثوها إذ ذاك لإخراج المسلمين من إقريطش . إذ غدت أعمال القادة البيزنطيين الحربية ضد إقريطش ستاراً أخفوا وراءه أطماعهم السياسية وتحقيق مآربهم الشخصية . وتجلى ذلك كله فى الحملة التى أعدتها الدولة البيزنطية ضد مسلمى إقريطش فى عام ٨٦٦ م .

أخذت التيارات الخفية فى البلاط البيزنطى إذ ذاك تحدث أعمالها حتى انتهت بالقضاء على القائد الذى عهد إليه بتدبير شئون هذه الحملة وضياع مجهوداته نهائياً . وكان الموقف السياسى فى الدولة البيزنطية حينئذ يلخص فى أن مجلس الوصاية على الإمبراطور ميخائيل الثالث ظل قائماً ، غير أن أحد أفراده وهو برداس أخو الإمبراطورة تيودورا الأم الوصية ، وخال الإمبراطور ، أقصى جميع أفراد المجلس عن السلطة وانفرد بالهيمنة على شئون الدولة . وساعده على ذلك أن الإمبراطور القاصر كان خلواً من الصفات التى تؤهله لهذا المنصب الإمبراطورى ، إذ اهتم فقط بالملاهى وحفلات السباق ومصارعة القواد ، والإدمان على الخمر وهو فى هذا السن الصغير ، حتى منحه التاريخ لقب ميخائيل السكير .

كانت هذه الحا السائدة فى البلاط البيزنطى فرصة مواتية لمسلمى إقريطش ، الذين أكثروا من الإغارات على أراضى الدولة البيزنطية ، لكن برداس صمم على أن يدعم هيبته وما وصل إليه من نفوذ فى الدولة بإعداد حملة هدف من ورائها إلى إخراج المسلمين من إقريطش . على أن أحداث البلاط البيزنطى جرت إذ ذاك بما لا يهوى برداس ، إذ أن الإمبراطور السكير أظهر ضجره من خاله برداس ، وأخذ يعمل على إقصائه من الدولة . وكان للإمبراطور تابع أرمنى الأصل مقدونى الموطن اسمه باسل ، اتفقا سوياً على اغتيال برداس .

وسنحت لهما الفرصة حين أقبل برداس على استعداداته الحربية ضد مسلمى إقريطش[١] .

وكان مسرح المؤامرة فى آسيا الصغرى حيث ذهب إليها برداس ليشرف على معدات الحملة التى أخذت تتجمع فى موانى ساحل آسيا الصغرى استعداداً للانتقال إلى إقريطش ؛ إذ خرج الإمبراطور ومعه باسل المقدونى لتوديع برداس ، وأقاما فى آسيا الصغرى دون أن يأذن الإمبراطور لبرداس بالرحيل إلى إقريطش . ولما استبطأ برداس الحصول على أمر الإمبراطور ذهب لمقابلته واستئذانه فى القيام بالحملة . وفى هذه المقابلة تم ارتكاب الجريمة التى بيتها الإمبراطور وباسل ، إذ هجم عليه الحرس الإمبراطورى وقطعوه إرباً ، وأجهز الإمبراطور بنفسه على ما تبقى من هذا القائد . وتلى ذلك انهيار الترتيبات الحربية ضد مسلمى إقريطش ، وعاد الإمبراطور ومساعده باسل إلى القسطنطينية .

أثارت هذه الحادثة سخط الرأى العام فى العاصمة البيزنطية ، التى كانت تتحرق شوقاً لما ينتظر أن تسفر عنه هذه الحملة ، والتى عقدوا عليها الآمال الكبيرة فى طرد المسلمين من إقريطش ، إذ كان برداس القائد الفذ فى نظر العامة ، ومنقذهم المنتظر من إغارات المسلمين البحرية . وعبر أحد الرهبان الحانقين عما كان يجيش فى نفوس الأهالى إذ ذاك حين وقف الناس لاستقبال الإمبراطور وهو يطوف بأحد شوارع العاصمة عائداً من آسيا الصغرى بعد اغتيال برداس ، إذ هتف ذلك الراهب قائلا : « يحيا الإمبراطور ، وتحيا عودته من حملته المظفرة ! ، لقد عدت ملوثاً بالدماء ! »[٢] . وحاول حرس الإمبراطور القبض على هذا الراهب ، غير أن الأهالى تدخلوا ونجحوا فى إطلاق سراحه بحجة أنه مجنون لا يدرى ماذا يقول[٣] .

وهكذا ظلت إقريطش طوال القرن التاسع الميلادى الصخرة التى تحطمت عليها كل المجهودات البيزنطية ، وما حشدته لها السلطات البيزنطية من عدة

---

(١) Finlay, op. cit, 172-173.

(٢) Ibid, 193.

(٣) Ibid, 193.

وعديد . وسطر بذلك مسلمو إقريطش صفحة جديدة فى تاريخ الفتوحات الإسلامية فى العصور الوسطى ، وأتاحوا لجزيرة إقريطش مكاناً فى التاريخ البشرى ، وما تمتعت به فى ظل المسلمين من عز ورفاهية . واضطرت الإمبراطورية البيزنطية إلى خطب ود حكام كريت المسلمين بعد أن تبين لهم ما هم عليه من قوة وبأس ، واعتمدت فى ذلك على الوسائل السلمية ، حيث تجلى ذلك فى رسالة ودية بعث بها بطريق القسطنطينية نيقولا ميستيكوس أوائل القرن العاشر الميلادى إلى حاكم جزيرة إقريطش المسلم ، وسجل فيها ما يأتى :

« إلى الأمجد الأشرف الأعز ، أمير جزيرة إقريطش ، إن أعظم قوتى العالم أجمع ، قوة العرب وقوة الروم ، تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء ؛ ولهذا وحده يجب أن نعيش إخوة ، على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين . »

إبراهيم أحمد العدوى

---

(١) Vasiliev, Histoire de l'Empire Byzantin, I, 405.

يوميات عباس بك

معاون حكمدار عموم السودان

الذى استشهد فى ميدان معركة شيكان بكوردفان ٥ نوفمبر ١٨٨٣
تحت إمرة الجنرال هيكس باشا

هذه الوثيقة إحدى مخلفات حملة هيكس . خطها بالقلم الرصاص عباس أفندى معاون اللواء علاء الدين باشا حكمدار عموم السودان قائد ثانى الحملة . وقد التقط مذكرة اليوميات درويش من مجاهدى المهدية من بين متعلقات الضابط الشهيد بعد قتله . وظل هذا الدرويش محتفظاً باليوميات حتى قتل هو الآخر فى ميدان معركة أم درمان عام ١٨٩٨ ، وعثر عليها أحد ضباط مخابرات الجيش المصرى . الذى سلمها إلى رئاسة القوات المصرية البريطانية . ثم بعثت بها إلى أمين قصر وندسور بإنجلترا . لصيانتها بين محفوظات القصر التاريخية .

وقبل نشر اليوميات نقدم لها ذاكرين بعض الأحداث الممهدة :

فى عام ١٨٨٢ صممت الحكومة المصرية بعد الاحتلال البريطانى على إرسال حملة لاسترداد مدينة الأبيض عاصمة كوردفان . التى سقطت فى قبضة المهدية بعد حصار طويل .

وفى العام المذكور عينت الحكومة ــ الجنرال هيكس من ضباط الجيش الهندى بالمعاش رئيساً لأركان حرب عموم الجيش المصرى تمهيداً لتوليه قيادة الحملة . وعينت الأميرالاى حسين مظهر بك وكيلا لحكمدارية عموم السودان . فوصل أولهما إلى الخرطوم فى ٥ مارس عام ١٨٨٣ .

وكان الجيش المصرى على أثر الثورة العرابية قد حل . ثم سعت الحكومة لإنشاء جيش حديث . فعبأت بسرعة حملة قوامها ضباط وجنود الجيش العرابى . من فلول القوات المصرية . لينضم إليهم فى الخرطوم بعض القوات المعسكرة فى

السودان . جمعت الجنود والضباط بسرعة . ولم تكن الحملة فى تكوينها وتسليحها وتنظيمها أو فى معنويات رجالها ما يتفق مع الأهداف المبتغى تحقيقها . وكان تأخر المعدات فى الخرطوم . وعدم تعاون الضباط الكبار مع هيئة القيادة من أهم عوامل اندحار الحملة .

وتلقى المكاتبات والبرقيات الرسمية التى تبودلت بين الجنرال هيكس وأولى الأمر فى القاهرة من مصريين وبريطانيين — الضوء على ما كان يسود هذه الحملة من الارتجال وعدم الاستعداد وفقد الانسجام .

وفيما يلى مقتبس من خطاب كتبه القائد هيكس فى ١٤ إبريل ١٨٨٣ للورد دوفرين يوضح لنا الموقف(١) .

« إننى فى حيرة من ناحية تموين الجنود ودفع مرتباتهم . أما عن الأمر الأول فعند بعض القوات تعيين يكفيهم أسبوعين . وللبعض الآخر عشرين يوماً لم تصل بعد تعيينات من اللواء علاء الدين باشا . ولم تصل بعد إلى الخرطوم — الباخرة — التى كنت أوفدتها لإحضار المرتبات ومصاريف الحملة . وآمل أن يوفق أحد ضابط أركان حربى لإحضار المال والطعام . . . وإلا كانت النتيجة تأخر قيام الحملة .

إن الأرض التى سنسلكها لا تحتوى على ما نفيد منه — ولقد صمم الجنود الباشبوزق لضباطهم أنه إذا لم تدفع لهم مرتباتهم فسوف لا يسافرون .

سأعمل كل ما فى طاقتى للوصول إلى « جبل عين » . وليست عندى التعيينات الكافية . ولم يتسلم الجند مرتباتهم منذ أشهر . وعدد بواخر النقل قليل . ومعظمها فى حالة سيئة لا وقود كاف لتسييرها » .

وفى برقية أخرى بعث بها هيكس إلى سير ماليت بتاريخ ٣ يونيو من الخرطوم نجده يشكو له فيها(٢) . قلة عدد رجال الحملة مع جسامة أهدافها . وضآلة كميات التموين التى تحت يديه . وطول المسافات التى سيسيرها . وصعوبة حراسة خطوط المواصلات وسوء الحالة فى الخرطوم لامتداد الثورة إليها .

---

(١) Henry Russel. The Ruin of the Sudan. p. 29-30.

(٢) Henry Russel. The Ruin of the Sudan. page 31.

وفى برقية أخرى بتاريخ ٨ يونيو يشكو القائد[١] ، صعوبة العمل مع القادة المصريين والأتراك فى السودان . وعدم تعاونهم معه . وعلى الأخص اللواء سليمان باشا نيازى . وتقديم استقالته إذا لم تجب طلباته .

فتوافق الحكومة المصرية على استدعاء نيازى باشا ، وأخيراً تصدر أمرها بتقليد هيكس القيادة العامة ، وتأمر اللواء علاء الدين باشا فى منتصف أغسطس بمعاونة هيكس وتنظيم وإعداد الحملة وضم ما يراه من قوات السودان . ثم عينته حكمداراً عاماً للسودان . وأن يسير مع الجنرال هيكس كقائد ثان للحملة .

وفى أواخر أغسطس ١٨٨٣ كانت قد تمت معدات الحملة فى أم درمان . وتألفت من القوات الآتية :

٧٠٠٠ مشاة .

٤٠٠ خيالة من الباشبوزق غير النظاميين .

١٠٠ جندى مدرع .

أربعة مدافع كروب وستة مدافع نورد نفلدت وعشرة مدافع قصيرة المدى (صاروخ) .

وكان على الحملة من القادة المصريين :

اللواء حسين مظهر وأمراء الآلايات سليم عونى ، والسيد عبد القادر ، وإبراهيم حيدر ، ورجب صديق . وكان على المدفعية والخيالة عباس بك وهبى . وتبع الحملة — ٥٥٠٠ جمل وخمسمائة جواد .

وكان من ضباط هيئة أركان الحرب : الكولونيل فركاهر والميجور سكندورف وورنر وماسى ومستر إيڤانس (رئيس المخابرات) والكابتن هرلت وغيرهم . ورافقهم لفيف من مكاتبى الصحف الأوربية .

تبدأ حوادث اليوميات من يوم ١١ سبتمبر ١٨٨٣ بالدويم التى تقع على مبعدة ١٢٠ ميلا جنوبى الخرطوم وعلى النيل الأبيض . وكانت الدويم قاعدة الحملة .

---

(١) برقية بتاريخ ٨ يونيو من هيكس إلى الجنرال إيفلين وود سردار الجيش المصرى بالقاهرة . وبرقية بتاريخ ٢٣ يوليو ١٨٨٣ من هيكس إلى سير ماليت مندوب الحكومة البريطانية فى مصر .

فى ٩ سبتمبر غادرت الحملة أم درمان .

فى ٢٠ « وصلت إلى الدويم حيث كان اللواء علاء الدين باشا .

وإلى ذلك التاريخ كان الجنرال هيكس فى الخرطوم يتصل مع حكومة مصر وكان من رأيه أن تسير الحملة من الدويم إلى الأبيض عن طريق باره . فيفتحها أولا . فلما وصل إلى الدويم تفاوض مع علاء الدين الذى رأى بناء على خبرته ومعلوماته أن طريق باره قليل المياه . وفضل هذا أن تسلك الحملة طريق خور أبو جبل والرهد جنوباً لكثرة المياه . وإن كانت مسافة الطريق أطول (٢٥٠ ميلا أما الطريق الأول — الدويم إلى الأبيض عن طريق باره — ١٣٦ ميلا) . فاقتنع هيكس ووافق على مسير الحملة عن طريق خور أبو جبل .

فى ٢٧ سبتمبر وصلت الحملة من الدويم إلى شات .

فى « « « شات وهى فى تشكيل بهيئة قلعة مربعة .

فى « « « قرية رزيقة على مسافة ثلاثين ميلا من من الدويم .

فى ٢٠ أكتوبر « « إلى الرهد .

فى ٢٦ « تقدمت « إلى كاشجيل .

فى ٢٩ « الوصول . . . . علوبة .

فى ٤/٥ نوفمبر هزمت الحملة فى شيكان بعد مفاجأة الدراويش لها وكانت لا تقل قوتهم عن مائة ألف من المقاتلين المتحمسين . فأبيدت الحملة . حتى الذين استسلموا وسلموا سلاحهم لم ينقذوا من الموت .

وكانت آخر برقية أرسلها هيكس إلى القاهرة بتاريخ ١٧ أكتوبر قال فيها :

« نحن الآن على مسافة ٢٠ ميلا من نوارلى . وإنى متأسف لأننا لم نحفظ خط الرجعة . فقد أفادنى حاكم السودان (علاء الدين) أن العرب سيقطعون عنا الذخيرة والزاد ويحيطون بنا من كل ناحية بعد أن يوغل جيشنا فى البلاد وزد على ذلك . أن برك المياه ستجف . فلا يمكننا استقاء الماء إلا بحفر الآبار . وصحة العساكر جيدة والحر شديد » .

تمت هزيمة الحملة كما يأتى(١) .

« فى صباح يوم الإثنين ثالث محرم أمسك الدراويش عن إطلاق النيران وبعد شروق الشمس ركب المهدى . واستدعى الأمير عبد الرحمن النجومى بخيله ورجاله . وأمره بالهجوم على الحملة من جهة الجنوب . وأمر يعقوب أمير الراية الزرقاء بالهجوم من جهة الشمال الشرقى . وموسى حلو أمير الراية الخضراء . بالهجوم من الجنوب الغربى . فهجم الجميع وفتكوا بالجنود وأخذ هيكس يصرخ بأعلى صوته ويقول خذونى . أسيراً . فابتدره فارس بطعنة . وهكذا كان هلاك حملة الجنرال هيكس » .

وكان من نتائج الهزيمة أن اضطر سلاتين باشا حاكم دارفور إلى التسليم بدون مقاومة . وتم ذلك فى ٢٣ ديسمبر ١٨٨٣ . وأخذ أسيراً عند الدراويش حيث ظل إلى عام ١٨٩٥ حينما استطاع الفرار إلى مصر .

عبد الرحمن زكى

---

(١) إسماعيل سرهنك – حقائق الأخبار عن دول البحار . ج ٢ ص ٤٧٦ .

يوميات عباس بلك

. . . . . [لياقتها لبعد مسافة اعتدال] الأرض عن البحر وصعوبة نقل المهمات من البحر إليها كما علم أن مسافتها تزيد عن ساعتين فقد استقر رأى سعادة أفندم الحكمدار على عدم تكليف الجيش [بجسامته] الذى صار معلوماً لنا عند قيامه جهة أم درمان على حضوره لهنا ورجوعه لنقطة بربرة ثانى مرة فإن الأوفق هى فى هذه الساعة يقتضى قيام سعادة حسين باشا مظهر وحضرة شكرى بك بوابور الفاشر واستكشاف النقطة التى تحد مواقعه وانتظار سعادته هذا من حيث عزم على القيام طوغرى بوابور بردين المذكور إلى جهة الكوة ورجوعه بالتالى ماراً على جنابه لمقابلة سعادة حسين باشا مظهر بالجهة التى استصوب جعلها معسكراً للجيش والجمال وخلافه .

قمنا من نقطة الدويم[1] قاصدين الكوة[2] فى الساعة ١١ و ٣٠ دقيقة — وصلنا قريب من الكوة الساعة ١٢ ودقيقة ١٠ ليلا .

وقمنا منها صباحاً الساعة ١٢ عربى قاصدين الكوة فى يوم الأربع المبارك موافق ١٠ القعدة سنة ٣٠٠ ، ١٢ سبتمبر سنة ٨٣ .

فى يوم الأربع المبارك ١٠ القعدة سنة ٣٠٠ (١٢ سبتمبر سنة ٨٣) وصلنا الكوة فى الساعة نصف نهاراً عربى وعند اشتغال الوابور ضربت المدافع من من طابيتها إيذاناً بوصول سعادة أفندى الحكمدار للنقطة المذكورة وصار نزولنا بالبر وقد اقتضت إرادة سعادته المرور داخل خط الاستحكام الذى وجد فى فى غاية الإتقان محيطاً بالبلدة من البحر داير إلى الجهة الغربية وقد اصطفت العساكر الجهادية على خط منتظم فى مركز البلدة ثم عساكر الباشبوزوق والشايقية مقابلين بعضهم وعند اقتراب سعادته عمل السلام اللازم على حسب

(١) تقع الدويم على الشاطىء الغربى للنيل وعلى بعد ١٢٥ ميلا جنوب أم درمان وكانت مركزاً تجارياً هاماً .

(٢) الكوة قرية صغيرة جنوبى الدويم على بعد عشرين ميلا منها (Kawa)

ما جرت به العادة وطاف سعادته أمام الجميع وهم على هيئة سلام طبور ودعوا هنا لحضرة الخديوى (أفندى مزجوق يشا) ثلاث مرات ثم طلع سعادته مع حضرة على بك قائمقام النقطة إلى برج قلعة ٧ جى فى مركز البلدة ووقف سعادته وهناك مرت العساكر ودعوا للحضرة الخديوية ثانى مرة وكان هذا على نسق منتظم ، ثم انصرفوا ممنونين ، وقد دعا سعادته الضباط وأظهر لهم مزيد ممنونيته من هذه الإجراءات العظيمة وأخبرهم بتبليغ ذلك أيضاً إلى كامل العسكر ثم قصد منزل حضرة على بك القائمقام وهناك شربنا الشربات وحضرت الضباط لتبليغ السلام إليهم وكذا الشواربات الشايقية(١) وحضرة عبدالعزيز بك أيضاً ثم قمنا من هذا المنزل قاصدين منزل حضرة عبد العزيز بك وهناك أيضاً شربت القهوة والشربات وهناك اجتمعت كامل أهالى البلدة من كبير أو صغير فرحين مسرورين بتشريف سعادة أفندى الحكمدار لهذه الجهة ثم قمنا هناك قاصدين الوابور فى الساعة ٢ نهاراً وحضر رفقتنا حضرة على بك وحضرة عبد العزيز بك وحضرة حسن أفندى البكباشى وكامل الشواربات الشايقية وبالتأمل إلى هيئة وصحة العسكر وجدوا جميعهم فى غاية الصحة التامة — وقد أخبرهم سعادته وعداً بأن سيرعى راحتهم مع شمول التفاته إليهم جميعاً حيث علم بعصيان الضباط لم صار ترقيتهم كأقرانهم وعلى هذا انصرفت الضباط ممنونين مودعين بالترقى داعين ببقاء سعادته وبقاء الحضرة الخديوية .

فى الساعة ٢ و ١٠ دقيقة قد دعا سعادته شخصين من أهالى هذه النقطة وبالاستفهام منهم عن الطريق الأسهل لمرور الجيش بجملته وجماله منها لكردفان قد أوروا السكة الموضحة بآخر هذا الدفتر(٢) . وبالتأمل لها وجدت أسهل طريق على الخصوص لكثرة وجود المياه بها التى تكفى الجيش وخلافه .

فى يوم الأربع المبارك ١٠ القعدة سنة ١٢٠٣٠٠ سبتمبر سنة ٨٣ قمنا من نقطة الكوة فى الساعة ١٠ عربى نهاراً وصلنا من الكوة إلى الدويم الساعة ١٢ و ٣٠ دقيقة ليلا .

---

(١) أثبتنا هذه الكلمة كما هى فى الأصل .

(٢) لم يعثر عليها ومن المحتمل أن تكون مزقت فى الكراسة الأصلية .

يوم الخميس صباحاً الموافق ١١ القعدة سنة ٣٠٠ ، ١٣ سبتمبر سنة ٨٣ الساعة ١١ و٣٠ دقيقة نزل سعادة أفندى الحكمدار للبر وبعدها نحن صار نزولنا أيضاً الساعة ١٢ صباحاً وبحال تشريف سعادته بالمعسكر الداخل الاستحكامات ضربت المدافع إيذاناً بوصوله بالسلامة وعملت التشريفة اللازمة حسب المعتاد ثم فى الساعة ٢ و٣٠ دقيقة كان جار تجهيز المحل المعد لنزوله خارج الاستحكام وهناك نصبت الخيام لسعادته وقمنا للقيام بهم ووجد معمول أيضاً دايرة من الشوك خصوصية مانعة المرور فيها وإليها خلاف كوبرى [وحصة] عمل مخصوص لاتصال المعسكر بهذا المحل المذكور .

فى الساعة ١٠ عربى نهاراً أرسلنا جواب إنكليزى لسعادة هيكس باشا بوابور الفاشر صحبة اليوزباشى إيدى توجه مخصوص بجواد من سعادة أفندى وآخر من سعادة اللواء حسين مظهر باشا لمقابلة سعادته بالطريق .

فى يوم الجمعة الساعة ٣ ليلا عربى قد حضر الرد من سعادة هيكس باشا دل على وصوله قريب الترعة الخضرة بغاية الصحة والسلامة مع جميع المعسكر والضباط وفقط نفق ماية سبعة وخمسون جمل بالموت بعضهم سابق وجود عيا بهم ولم يحصل لهم أدنى تعب بالطريق وإنه مسرور عن تعريفه بالطريق التى صار استحسانها لمرور الجيش منها لكردفان وأوعد أن سيكون وصوله هنا فى يوم الثلاثاء القابل . (بالمدويم) .

فى يوم السبت ١٥ سبتمبر سنة ٨٣ لم حصل شىء .
» » الأحد ١٦ » » » » .
» » الاثنين ١٧ » » » » .
» » الثلاث ١٨ » » » » .
» » الأربع ١٩ » » » » .

فى يوم الخميس صباحاً الساعة ١ عربى ٢٠ سبتمبر سنة ٨٣ بلغنا من الهجان الذى أرسل مخصوص لمناظرة الجيش وأعطانا خبر لقيامنا وبينما نحن مستعدين للخروج لمقابلته إذ تصادف وصول حضرة الكولونيل فركهار رئيس أركان حرب وعرف على أن سعادة الجنرال هيكس باشا سيصل مع الجيش

فى الساعة ٥ عربى وبعد المذاكرة مع جنابه عما قابلهم بالطريق قمنا حيث كانت الساعة ٤ عربى ومعنا جنابه للخروج ومقابلة الجيش وحينذاك قد اصطفت جميع العساكر الموجودة بهذه النقطة مع الباشبوزوق وقدرهم ثلاثة آلاف عسكرى للتعظيم لمقابلة الجيش وسعادة هيكس باشا وقد كان ، وقابلنا سعادة هيكس باشا بغاية التعظيم وسلمنا عليه حيث كان سعادته فى مقدمة الجيش ثم عدنا معه إلى الخيمة تعلق سعادة أفندى الحكمدار وتذاكرنا معاً عن أحوال سفره مدة غيابه الاثنى عشر يوم من أم درمان لحد هنا وكان فى غاية الممنونية من جميع العساكر والضابطان ثم فى الساعة ٧ قد استحضر الغدا الذى أعده له سعادة أفندى الحكمدار حالة كوننا مقيميين قبله بثمانية أيام —

فى يوم الجمعة ٢١ سبتمبر سنة ٨٣ الساعة ٤ عرنى نهاراً قد توجهت (فى وقته) لسعادة هيكس باشا مسافة نصف ساعة حيث كانت خيمته بعيدة عن خيمتنا وأفهمناه بأن لا يصح إبقاء الجمال فى هذه الحالة بدون خروج للمرعى نظراً لشدة احتياجنا إليهم و [بوقفة][1] سعادته دعا حضرة رجب بك وأخبره بالاستفهام عن السبب الموجب لترك الجمال هكذا بدون خروج إلى المرعى كسابقة الأوامر ولعدم إمكانه الرد على هذا السؤال أجاب محتجاً بأن لما نظر سعادة حسين باشا مظهر أمس تاريخه أجرى بعض إجراءات نحو توضيب المعسكر قد تصور بأن لربما أن يكون صدر لسعادته أوامر من سعادتكم عن ذلك حيث أن حضرته كان مستلم إدارة الجيش من وقت قيامه من أم درمان لحد هنا وكان حسن باشا مظهر مقيما هنا بالفرقة الأولى فأجابه بأن ما دام لم تصدر لك أوامر جديدة منى فما كيفية ارتكانك على تصورك الفاسد من بادئ رأيك الذى تسبب عنه تأخير الجمال بدون مرعى مدة الثلاثة وعشرون ساعة فاستعد حضرة رجب بك للقيام قائلا إن على حسب الأمر سأنظر فى خروجهم حالا وابتدى يعتذر بالعفو من سعادته — من هنا يعلم حصول الغيرة بين حضرة رجب بك وسعادة حسين باشا مظهر اللوا — فشكرت سعادة هيكس باشا على على ذلك ورجعت عائداً لخيمتى فى شدة الحرارة وبوقته حصل عندى نوع

---

(١) فى الحال .

تأثير حمى ومكثت بها يومين .

فى يوم السبت ٢٢ سبتمبر سنة ٨٣ كنت عيان نوعاً .

« « الأحد ٢٣ « « ٨٣ الساعة ٤ نهاراً قد حضر سعادة هيكس باشا للمداولة مع سعادة أفندى الحكمدار عن الطريق الأسهل لمرور الجيش منها لكردفان وعن أن [المترآى] أن ٤ جى آلاى يقوم باكر يوم الاثنين لجهة شاه[١] لاستكشاف المياه وورود التقرير اللازم بمعرفة حضرة رجب بك الذى استلم قيادته ومعه المدافع اللازمة والخيالة وحصل الاتفاق على جعل [سته] فقط مراكز عسكرية وبكل منهم أربعمائة عسكرى جانب باشبوزق وجانب عساكر منتظمة ومدفع جبلى [وحصى][٢] وعطا لسعادته أسماء الجهات التى سيمر الجيش عليها ووجود المياه الكفاية بالآبار فضلا عن وجود برك أى فولات[٣] من الأمطار التى لا يضر الارتكان عليها نظراً لجسامة الجيش الذى يبلغ عدده وجماله وخلافه عشرون ألف روح تشرب مياه وأسما الجهات من الدويم لشاة إلى الزريقة[٤] إلى سراقنه إلى أنا رابى إلى العقيلة إلى جوهان إلى عبلى إلى البيلاب إلى أم شيخ إلى الرهد[٥] إلى الكزقيل إلى الملبس إلى الأبيض .

فى يوم الاثنين المبارك ٢٤ سبتمبر سنة ٨٣ الساعة ١١ عربى ليلا فى الصبح قام حضرة رجب بك بالآلاى الرابع ومعه مدفعين كروب وأربعة جبلى واثنان مترولیوز قاصدين شات .

فى يوم الثلاث ورد تقرير من حضرة رجب بك بشات بخصوص المياه وأورى أن موجود هناك خمسين بير وعمقها من أربعة لخمسة قامات والمياه عمقها فقط متر ونصف تقريباً وأنه رأى فوله أى بركة مياه فى منتصف الطريق .

فى يوم الأربع المبارك ٢٦ سبتمبر سنة ٨٣ ورد تقرير آخر من حضرته

---

(١) شاة أو شات تقع غربى الكوة بمسافة عشرين ميلا و إلى الجنوب الغربى من الدويم .

(٢) هذه الكلمة غير واضحة فى الأصل .

(٣) تطلق فوله على عيون المياه الصغيرة فى كوردفان أو البركة .

(٤) زريقة Zereiga حلة تقع جنوب غربى شات .

(٥) تقع الرهد عند منخفض فى السهل تتجمع فيه مياه الأمطار الغزيرة فى شهر يوليو وتبقى فيها أثناء الشتاء .

ومن الباشمهندس يورى فيهم كما أورى أولا وأنهم جارين تنظيف الآبيار لحين وصول الجيش وقد استقر الرأى مع سعادة هيكس باشا على قيام باقى الجيش ويتجه أيضاً باكر تاريخه يوم الخميس لجهة الشات بسلامة البارى .

فى يوم الخيس هذا اليوم صباحاً موافق ٢٧ سبتمبر سنة ٨٣ الساعة ١ عربى نهاراً صار قيامنا بالجيش المنصور من نقطة الدويم لجهة شات قاصدين كردفان وبعد مبارحتنا بأربعة ساعات صار ضرب صفاً[١] للعساكر المنصورة وفى الساعة ٦ عربى مررنا من على بركة مياه وسقينا الخيول والجمال فيها ثم بعد ساعة أيضاً وقفنا مسافة ساعة ونصف ثم قمنا ووصلنا شات الساعة ١٢ وقت الغروب (المسافة ٢٠,٩) وهناك تعسكرنا حيث كانت ليلة الجمعة .

يوم الجمعة المبارك أقمنا بشات وليلة السبت أيضاً ثم فى أثناء وصولنا لشات وبالنظر لكون أن الحركة التى صار عملها عند دخولنا من حيث عدم انتظام القلعة والتنبيه بالمرور أورطة أورطة حيث كان المحل الذى تعين معسكراً مستبعداً عن النقطة التى صار [تفريك] القلعة لها لا أقله ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف متر ولحصول الهيضة فى ذاك الوقت قد اشمئز جميع الضابطان والعساكر والحاضرين من غوائل ما لو حصل شىء أى ترقب عدولنا أو غيره كونها خطرة جداً قد حضر سعادة حسن باشا مظهر بحالة الزعل وأخبر سعادة أفندى الحكمدار بأن هذا غير جايز وغير تعريف سعادته أما أن تكون الإدارة لسعادة الجنرال هيكس باشا أو لسعادته أى حسين باشا مظهر حيث لو استمر الحال على هذا السير فلا بد من حصول خطر لهذا الجيش العظيم ويلزمنا دواما الاحتراس وأخذ يتكلم بألفاظ خلاف هذه ، فسعادة الحكمدار أمامنا أوعده عن حصول التكلم مع سعادة هيكس باشا عن هذا الخصوص لمناسبة أن ليلة السبت المذكورة كان من المستحيل الاستدلال على أى إنسان بالنظر لضخامة الجيش واتساع حركته فضلا عن ضجة أخوار الخيل والبغال والحمير والجمال الذى ينوف عددهم سبعة آلاف لا أقل ، وقد استمرت هذه الليلة بدون أن يعرف الضابط جنده ولا البلوك أورطته ولا الأورطة آلايه وهكذا ، وفى الساعة ٢

---

(١) صدرت الأوامر بإراحة الجند .

عربى نهاراً من يوم الجمعة قد حضر سعادة الجنرال هيكس باشا وبعده بعشرة دقائق قد حضر سعادة حسين باشا مظهر بخيمته سعادة أفندى الحكمدار بينما كنت أعرف سعادة الجنرال هكس باشا عما أتحرى سعادة حسين باشا مظهر من الكدر وفوران الدم حين دخول الجيش بشات بالحالة التى ذكرتها قبلا وأجابنى سعادته بأنه لا يرغب أن يرى قومنداناً آخراً بالجيش إذ أنه ليس إلا وكيلا لسعادته وأظهر مزيد الأسف قائلا نه كان لا يظن أن سعادة حسين باشا مظهر بهذه الحالة إذ الواجب على سعادته مخابرتنا عن ما طرأ بأفكاره وعدم حصول ما حصل منه فى حقنا المحققين بأن هذه المناورة التى حدثت عند دخولنا هى [مرض] أفكارنا ونحن على يقين من أن تعليماتى بشأن ذلك جرى أجراها غلطاً من الترجمان الخاص بسعادته وكنت إذ ذاك بعيداً عن مركز القلعة والمحل الذى أعطيت أوامرى وفضلا عما حصل لى من الأسف هل ينسب إلى الجهل مع كونى أديت مناورات حربية بجهات متعددة أغلب عمرى فإنى مستعد بغاية الأسف بالرجوع للخرطوم ما دام نسب إلى الجهل ممّن هم تحت إدارته وإلا سأكون ملزوماً برجوعه الخرطوم ولأجل أن أفصح لكم تعليماتى التى أجريتها لتقفوا على حقيقتها أقول إن أمرى هو أن بالنظر لكون القلعة كانت مستبعدة عن النقطة التى صار تعينها بمعرفة حضرة رجب بك وكيل لوا ٤ جى آلاى الموجود هنا ووجود كثير من الزربيات والحفر والعشش القش التى هى سابق مساكن هذه الجهة المقتولين بمعرفة هجوم الشقى المكاشفى (١) وعدم وجود طريق طوغرية توصلنا إلى المحل الذى تعين لمعسكرة الجيش تراءى لى عدم إمكان وصول الجيش بهيئه قلعة إليها وأن وجود الزرايب والحفر ستكون مانعة للمرور قد أعطيت أوامرى بأن يكون المرور أورطة أورطة خلف بعضهم وعدم أخذ مسافة واسعة بالنظر لحسامة الجيش وترك الجمال بمحل القلعة حتى بعد أن يصير تعسكر الجيش يجرى حضورها خلفه بحالة منتظمة ، وليس كان القصد منها مخالفة أوامرى والتنبيه . بمرور أورطة أورطة لوحدها بدون كل أورطة لا ترى الأخرى الذى تسبب منه حصول هذا الغلط الخطر المهم فأجبته بأن سعادته

---

(١) أحد رجال المهدية .

لا يقصد بذلك التكلم بصدد حادثكم ولا ما نسبتوه إليه وفقط مع حصول هذه الحركة الخطيرة فإن رغب ما دام منحنا البارى بحسن عاقبتها أن الإجراءات المماثلة لذلك تكون بالمشاورة قبلا وتفهمينا عن الحركة المقتضى أعمالها لتكون العساكر والضابطان على معرفة بها حتى عند حصول الندا فمع سابقة التيقظ لا يحصل أدنى شىء ما دام أن سعادتكم أفصحتوا عن حقيقة أفكاركم وتعليماتكم فلربما يكون كما ظننتم عدم تتبع الأمر بصحة من المترجم ، وإنى أرى عدم اللزوم فى حصول أدنى كدر بينكما لأننا نحن الجميع فى أيديكم وضمان وصولها لأذهان الضابطان حفظاً من معلومياتهم بما وقع لئلا يكونوا بعدها غير واثقين بسعادتكم فعند ذلك حصلت المذاكرة بهذا الخصوص [معاتبتا] مع سعادة حسين باشا مظهر وكنت أنا الواسطة فى تبليغ كل منهما لهذا المجلس أمام سعادة أفندى الحكمدار بما ينطق به الآخر عشما فى نزع ما فى خواطرهم إذ الحالة لا تساعد مطلقاً ، وقد حصل الاتفاق على أن لا يحرر شىء من الآن فصاعداً إلا بأخذ أفكار سعادته مع بعض من الضابطان العظام حسب طلب سعادة أفندى الحكمدار فظهر غاية الأسف لذلك أيضاً ثم نزع سطعادة أفندى الحكمدار فيما هو لازم التكلم بخصوصه واستقر الرأى على حفظ نقطة شات بمائتين نفر باشبوزق وبلوك جهادية ومدفع واحد جبلى وأن يصير القيام من هنا أى الشات إلى جهة الزريقة بايكنجى ودورتنجى آلاى مع سعادة هكس باشا وسعادة أفندى الحكمدار لعدم تحققنا وجود المياه الكافية للجيش جميعه بجسامته التى أوضحتها قبلا وأن يصير إبقاء سعادة حسين باشا مظهر لقيامه مع برنجى واجتنجى آلاى وعمل نقطة استحكام صغيرة كافية على قدر الثلثمائة نفر الذين سيصير أبقاهم بشأنه وانتهت الجلسة على ذلك مما يؤسفنا غاية الأسف الزايد إن لشدة احتراز سعادة أفندى الحكمدار على الجمال النافعة لنا قبل كل شىء الحاملة لنا زادنا ومياهنا وجبخاناتنا وعفوشاتنا صدرت الأوامر بإخراج الجمال للمرعى هذا اليوم الذى هو يوم الجمعة فبالجملة جرى إخراج جمال حملتنا التى هى معية سعادة أفندى الحكمدار وتعين معها اثنين أونباشية وثلاثة أنفار لحفر الجمال وقدرهم ماية وكسور فأحد الأونباشية المسمى أبو الفارس سليمان الذى

أصله من الفرقة السابق توجهها مع سعادة المرحوم على بك لطفى وأخذ أسيراً بكردفان وفنيت عن آخرها كان حضر من كردفان فى يوم الثلاث ٢٥ سبتمبر سنة ٨٣ ونحن بالدويم أى قبل قيامنا منها بيومين وبحضوره حضر أمام سعادة أفندى الحكمدار وبالاستفهام منه عن حال وأحوال الشقى محمد أحمد بكردفان أوضح قد فر هارباً وحضر فى مسافة تسعة أيام ملتجئاً للحكومة ورغبته فى إلحاقه بعساكرها بعد أن أعطى بعض إجابات بشأن الشقى محمد أحمد كالذين جارى حضورهم قبلا بمثابته مشفقة من سعادة أفندى الحكمدار وطمعاً فى استجلاب قلوب الذين بكردفان وعلى الخصوص العساكر المأسورة هناك قد أمر بصرف شهرية بواقع استحقاق يومين الأونباشى وبدلتين هدوم ونظراً لفصاحته قد أمر أيضاً بأبقاه بمعيته والتوجه معنا لكردفان [حيث أن من هناك] فربما يكون خبيراً بالطريق أولى من غيره أو يستفاد منه عن بعض معلومات بأحوال كردفان آخذين بظاهره غير عالمين بضميره لشىء نحونا وحيث كان تحدد القيام من نقطة الدويم لشات فى يوم الخميس ٢٧ سبتمبر سنة ٨٣ فبعد قيامنا ووجودنا بشات فى اليوم المذكور وخروجه للمرعى فى ثانى يوم الذى هو يومنا هذا الجمعة إذ بلغنا فى الساعة ١ عربى ليلا أن قد انتهز فرصة الهروب فى وقت العصر الساعة ١٠ عربى بعد أن سرق جمل من الجمال وحمل بندقيته وعشرة دستات جبخانة وبدلة هدوم والماهية التى أخذها وفر هارباً لكردفان عالماً بحالنا وأحوالنا وساعة هيئة دخولنا بشأن زيادة عما نعلمه بخصوص كردفان وقد ظهر أنه جاسوس فصيح قادراً على أعمال الحيل التى بها يثبت للشقى وجوده معنا وحقيقة الأخبار التى يعطيها إليه بالبندقية والجبخانة والجمال الذى اغتنمهم بضبط توقيع حيلته على غاية ما يرام ، وحيث أن هروبه هذا لم يكن متصوراً بالبال جملة كافية كونه من زمرة العسكرية ولا نظن ذلك مع حسن التفاته سعادة أفندى الحكمدار إليه ، فقد سئل من الأونباشية الأخرى قبل الذى كان معه يرعى الجمال بمسافة تبعد عن الاستحكام بأربعة آلاف متروكسور عن كيفية هروبه وكيف تمكن ذلك مع وجودكم سوية فأجاب قائلا بأنه لا كان يعلم ما فى ضميره السيىء إذ أن أصله عسكرى وأونباشى ومع حسن الالتفات إليه هكذا وتعينه بالمعية بعد أن كان

فى حالة الجوع والعرى فاستفهم منه عما إذا كان أمره بشىء قبل انتهاز فرصة هروبه فقال إن بعد خروجهم للمرعى صباحاً قد استئذن بالعودة للاستحكام لقضاء بعض لوازمات ويعود لى وقد كان . وتوجه وعاد ثم فى الساعة ١٠ تقريباً وقت العصر أخبرنى بأن يرغب التتميم على الجمال فأخبرته بأنهم تمام ثم قال لى أنه يرغب التوجه لجهة البير ويعود بالتالى وقد كان إذ أنى غير عالم لمقاصده فتوجه وأخذ جملا من أمامى الغير تابعين للمعية وركب عليه حاملا البندقية والجبخانة وأسر إلى بأن يقصد جهة البير ويعود وبوقته قد غطس من أمام عينى ولم أراه لحد الآن فعلمت أن لربما هرب وبحضورى من المرعى أخبرت البكباشى والملازم عنه وحيث كان الوقت أزف مسافة ثلاث ساعات وكسور تقريباً وأن توجهه لا بد وأنه يكون من طريق الغربى حذا شات لإمكانه الوصول إلى كردفان فى ظرف ثلاثة أيام فلم يمكن الاقتفاء بأثره وعن ذلك قد اندهش عقل الجميع مصممين على عدم قبول أى إنسان كان من هذا القبيل وأن يلزمنا زيادة الاحتراس فى القابل ولا شك من أن ما حمله على ذلك إلا موعده منهم بمقدار من النقود أو تأهيله [بخادمه] التى هى له الأمر المهم والأدهى كونه عسكرى أونباشة وله دراية بأحوال العسكرية نعم إن لم يأتينا من ذلك أدنى تغير بالفكر من حسنه لله الحمد [حسانه] قوتنا لكن كونه كان ناظر لحركتنا عند دخولنا بشات وهو الأمر الذى تسبب عنه حصول الزعل من سعادة هكس باشا وسعادة حسين باشا مظهر واشمئزاز جميع الجيش من هذه الحركة الخطرة كما أوضحت قبلا .

فى يوم السبت المبارك موافق ٢٩ سبتمبر سنة ٨٣ الساعة ١٢ ونصف عربى صباحاً قمنا من شات قاصدين الزريقة واستمر المسير مسافة خمسة ساعات ونصف (ضربت صفاً مرتين)[1] ووصلنا لجهة يقال لها الهجليج ما بين شات والزريقة وهناك تعسكر الجيش بعد أن صدرت أوامر القومندان بقطع أشجار الصفصاف لأعمال الزريبة اللازمة وقاية للعساكر حيث استصوب المبيت بها ليلة الأحد وإرسال الكشافين اللازمة مسافة ثلاثة ساعات لتحقيق محل وجود المياه وفى انتظار الفرقة الثانية وهى ١ جى قوة ٣ جى آلاى تحت

(١) وذلك لغرض الاستراحة .

قيادة حسين باشا مظهر الذى حصل الاتفاق بقيامها ثانى يوم [كى عند حضورها] قد استحسن قيام الفرقة بأجمعها بدون جعلها فرقتين عندما يتحقق وجود المياه الكافية لها وفى الساعة ٧ ونصف عربى قد استقر كل فى موقعه أخذ الاحتراس كما جرت به العادة داخل الزريبة ثم فى الساعة ٩ ليلا قد أمطرت مطراً خفيفاً منه [الأمل] حصول السهولة فى الحصول على المياه وفى يوم الأحد بعد وصول الفرقة الثانية قد علم وجود المياه بكثرة .

فى يوم الأحد المبارك ٣٠ سبتمبر سنة ٨٣ قد حضرت الفرقة الثانية تحت قيادة حسين باشا مظهر فى الساعة ٦ ونصف عربى نهاراً بغاية الانتظام ومرت على الجهة اليمنى والزريبة التى نحن بها وبوقته جرى أعمال زريبة أخرى بمعرفتها لعدم إمكان تواجد الاتساع الكافى للفرقة جميعها وبتنا فى هذه النقطة المذكورة ليلة الإثنين ٩ أكتوبر سنة ٨٣ وفى الساعة ٢ ليلا من الليلة المذكورة حضر الخبيرى وعرف بوجود المياه بكثرة تكفى الفرقة بأكملها وهناك حصل الاطمئنان (حيث لا يخفى جسامة الجيش كما أوضحت) .

فى يوم الإثنين صباحاً الساعة ١ عربى نهاراً موافق أول أكتوبر سنة ٨٣ قمنا من نقطة [عند] الهجليج قاصدين الخنفرية وبعد مسيرنا بأربعة ساعات وقف الجيش صفا أى راحة وقد تحقق وجود المياه فى الطريق كما لاحظنا ذلك زفى الساعة ٦ عربى نهاراً وصلنا نقطة الخنفرية وبها تعسكرنا بجوار بركة مياه وعند ذلك نبيت بها هذه الليلة وفى أثناء الطريق قبل الوصول حصلت محاورة بينى وبين حضرة رئيس أركان حرب الكولونيل فركهار بينما نحن راكبين [أجودتنا] حضر سعادة حسين باشا مظهر فافتتح كلامه بالقول أنه لم يصير تنفيذ أوامره فى صباح هذا اليوم فاستفهمت منه عما هى التى لم صار تنفيذها فأجاب بأنه [أمس تاريخه ليلا] قد أرسل أمر إلى حسين باشا مظهر بأن عند أعمال القلعة خارج الزريبة للسفر يقتضى فى أن الوجه الأول من الزريبة يصبر فتح أبواب لخروج الآلايات منها أورطة أورطة وبعدها الجمال حتى يصير توضيب القلعة بالنسبة بالسير علما بأن ذلك ممكن تتميمه فى أقل من نصف ساعة وكان قد راى سعادة حسين باشا مظهر أن يصير رفع الوجه الأول بأكمله من

الزريبة أولى من فتح أبواب بها حتى يمكن خروج الجيش جملة وتواجده الذى هو الأصوب واحتراساً من العدو سأل سعادته حضرة الكولونيل فى عدم سماع أوامره فأخبرته بأنه فى الموقع ولو أنى عارياً معرفة القواعد الحربية لأن... حصلت المكالمة بشأن ذلك منه مع سعادة هكس باشا عندنا إذ أن عدم حضوره بالمجلس يعد كسر شرف له بما أنه من ذوات مصر الحربيين المعول عليهم فأجابنى بأنه لم يزل ممنون وكلفنى بالتكلم مع سعادته وسعادة أفندى الحكمدار أيضاً حيث كان سعادة أفندى الحكمدار مجاوراً لنا بجواده فأخبرته بذلك وحصل الوعد بأنه سيتكلم مع سعادته بهذا الصدد .

فى يوم الثلاث المبارك ٢ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١٢ صباحاً قد تعين الجندى أحمد صبيح ومعه القبدان هراث[1] ومائة خيال لاستكشاف المياه بطريق شيراكنه لغاية الطرحة نفسها وكان منتظر وصولهم تقريباً فى الساعة ١٢ غروباً ولما لم يحضروا لغاية الساعة ٢ ليلا من ليلة الأربعاء صرنا جميعاً فى حالة الترقب لوصولهم وقد كان وحضروا حيث كانت الساعة ٣,٥ وبالاستفهام اللازم منهم أوروا عن عدم وجود مياه بالطريق خلاف بركة مياه لا تكفى أقل عدد من الجيش وكان من الغير ممكن وصولهم للطرحة وثبت ذلك أولا كما قيل من القبدان هرلث أنه بعد قيامهم من هنا بساعتين قابلتهم بركة مياه غبر نظيفة وأخذوا فى المسير مسافة نصف ساعة بعدها وقبل وصولهم لحلال الخبيرى قد أخبرهم بأنه لا زوم للعبور من الحلال المذكور وأشير إليهم بطريق آخر وقد كان وسمعوا قوله ارتكاناً عليه بمعلوميته ومن سوء البخت قد استمروا فى المسير بالجبل مسافة خمس ساعات بعدها ولم يصادفهم سوي بركتين ميه ناشفين قد قيل منه بأن عربان البقارة لربما علموا بحضورنا من هذه الطريق فأوردوا بها بهايمهم ولم يتركوا لنا قطرة ماء وحيث أن المسافة صارت طويلة ولم نصل للطرحة فالأحسن رجوعنا ورجعوا من طريق خلاف الطريق الأولى متمسكين بالخبيرى وبمرورهم من على الحلال السابق التعريف عنه لم يجدوا به سوي فراخ بلدى وحمام ، وأما الأهالى وحيوانتهم فقد انتهزوا فرصة الهروب عند وصول الكشافين

(١) أحد ضباط هيئة أركان حرب الجنرال هيكس باشا .

وقد لوحظ لجنابه أن الخبيرى فعل ذلك مقصده منه فينا لعدم إدلالهم على الطريق وكان يقصد بذلك وقوعهم فى يد العربان أم الضل عن الطريق الهادية لهم للوصول إلى الجهة المطلوبة وأنه يتلاحظ من ذلك إعطاء أخبارية منه مقدماً للحلال بالهروب لأنه إن لم يقصد ذلك فعلا فلا كان يضلهم عن الطريق والدخول فى وسط الغابات التى وجد بها أشجار كثيرة وحشيش ارتفاعه يسقط الراكب عن نظر الأعين ولعدم تمكنه من الفرار قد أتوا به بغاية التحفظ غير عالمين بمعسكر الجيش ولحسن الحظ قد سمعوا النفير يضرب من بعد فقصدوا صوته اثنين برناته مستدلا به عن الجهة المعسكر بها الجيش وقد كان وحضروا ولو لم يكن ذلك لتاهوا جملة كافية فى الخلا على اتجاه الجهة الشرقية وأما قول الثانى وهو الجندى فقال ان بعد القيام من هنا بساعتين نظروا بركة مياه فى طريقهم لا تكفى للجيش فاستمروا فى السير مسافة صغيرة ولما لم يجد مياه فبعد أن مشى مستقيما بالطريق فقد مال لجهة الشرق متعشما فى وجود بعض برك مياه التى كان يعبرها فقد كان بهذه الجهة بما أنها مسكنه الأصلى الذاتى وبعد قطع جزء منها قد شوهد اثنين من العربان مرسولين بصفة طلائع من طرف الشقى محمد أحمد وحالما حققوهم فروا هاربين على أقدامهم فاقتفوا أثرهم راحين بخيولهم بوصولهم فأطلقت عليهم نيرانهم فقتلوهم الاثنين وفى هذه الأثناء زاغت عنهم طريقهم ولم يمكنهم العودة للخلف ولا التقدم أمام فحاولوا أنفسهم وهو لم يزل مرشدهم فقطعوا مسافة ميلين لم يرجعوا خلفهم وبعد مسافة ثلاثة ساعات قد تحصلوا على طريقهم وحضروا وأن ما أخبروا به هو بخلاف إذ طمعهم فى الاثنين العربان هو الذى أهملنا عن الطريق وبهذه الواسطة ما أمكن الوصول للطرحة ولم يعلم حقيقتها وأما البركتين مياه السابق الإيضاح عنهم فوجدوها ناشفين وعلمنا وجود بعض عربان البقارة قبل وصولنا ببضعة أيام وانتهزوا فرصة سقى مواشيهم قبل الوصول (مسألة قتل الاثنين عربان طلائع محمد أحمد قد أوضح عنها جناب القبدان المذكورة فى تقريره الواضح قبل هذا) فالتأم المجلس حينذاك باحثاً فى نتيجة هذه المسألة محققاً لعدم وجود مياه أمامنا وخلفنا كقول سعادة الجنرال هكس باشا بأنه ما دام عربان البقارة قد أحضروا مواشيهم وسقوها

أمامنا للعلم بأننا صرنا بعيدين عن مركزنا الأصلى فمن المحتمل أن العربان المارين بجهة أراضيهم ما دام لم يقابلونا فلربما يريدوا إعدامنا بإتلاف ما تركناه من المياه خلفنا مع العلم بأن النقطة المقيمين نحن بها الآن لا تكفينا زيادة عن أربعة وعشرين ساعة فمن ذلك قد وقعنا فى دائرة الحيرة وأن رأيى لسعادته هو انتقال أورطة حالاصبح باكر تاريخه للبركة المياه التى تركناها خلفنا مسافة ساعة ونصف لأعمال زريبة حولها وعدم تمكين أحد من الوصول إليها لغاية ما يصير إرسال قوتنا بمياه ٤٨ ساعة طوغرى لغاية الصراخنة بعد حضور من سيحرر تعيينهم باكر للاستكشاف ثانى مرة كما أن العساكر الخيالة السابق إرسالهم قد تأخر منهم خمسة باشبوزق بخيولهم ثم قبل قفل حوادث يومنا تاريخه يلزمنا التعريف هنا عن الجلسة التى صار عقدها فى الساعة ١٢ عربى غروباً حسب طلب سعادة الجنرال هكس باشا بناء على ما صار تفهمه من سعادة أفندى الحكمدار من عدم لزوم وضع نقط خلفنا نظراً لما شاهدناه من أن لم يحضر لطرف سعادته أحداً من العربان أو المشايخ للطاعة لسابق الإنذار من سعادته لهم بأن لا يحيق بهم سوى التلف وأنه عفا عما سلف فاجتمع المجلس مركباً من سعادة الجنرال هكس باشا وسعادة أفندى الحكمدار علاء الدين باشا وسعادة حسين باشا مظهر لوا الفرقة وحضرة الكولونيل فركهار وحضرة سليم بك عونى ميرالاى برنجى آلاى وحضرة رجب بك ميرالاى ٤ جى آلاى ونحن فرغب « الجنرال هكس باشا » بعد ما حصلت المداولة فى شأن النقط وحفظ خط الرجعة خلفنا حتى يمكن وصول اللازم لنا من جهة الدويم بطريقة أمينة عن كل منهم يلزمه أن يوضح أفكاره لوحده فأجاب سعادة حسين باشا مظهر بأنه يعطى القول منه بعد إعطاء أقوال حضرات الميرالايات فأجاب حضرة رجب بك بأنه وإن كان وضع النقط العسكرية لحفظ خط الرجعة هو من أصول العسكرية ومن الضرورى لكن من حيث أن الجيش الموجود معنا هو كافى فقط للمقاومة ولا يصح أخذ ما يلزم منه لحفظ النقط إذ أن ذلك لا يكون إلا نقصاً فى القوة فيرى عدم اللزوم فى أعمال النقط المذكورة لحفظ قوتنا الموجودة بأجمعها وبعدها أجاب حضرة سليم بك عونى بما هو من هذا القبيل

والإقرار على عدم لزوم النقط المذكورة وتغيرها أجاب سعادة حسين باشا مظهر بأنه لايصح تقدم الجيش بدون أن يجعل له خط رجعة حفظاً له وحضور ما يلزم للجيش من جهة الدويم وإذا لم جعلنا النقط خلفنا فلا يعد ذلك إلا خروجاً عن حد القانون العسكرى فقال سعادة هكس باشا بأن ذلك ضرورى ولكن بالنظر لما أبداه سعادة أفندى الحكمدار فقد عمل هذا المجلس بقصد أخذ أفكاره عن ذلك والإقرار منه بما يلزم أجراه فأجاب سعادة حسين باشا مظهر بأنه ما دام لم يصر أجعال النقط المطلوبة خلف الجيش قولا بأن تنقص هذه القوة لا يصح ولما أبداه سعادة الحكمدار فلأجل عدم الاستهزاء منا فى المستقبل أرجو الاستفهام مقدماً عما جرى فى الخمسة آلاف عسكرى السابق طلبها من الحكومة الذى كان طلبها مبنياً على أعمال النقط خاف ايحيش ومن أجل ذلك فقد عمل واحد لواء عليهم وموجود الآن بالخرطوم فلعلمى بأن ٥ جى و ٦ جى آلاى السابق طلبهم سبق حضورهم وموجودين الآن بالخرطوم فالقصد إرسال ما يلزم من العساكر من الخرطوم للدويم بحسب ما يلزم لكل نقطة أولى من قطع خط رجعتنا الخارجة عن حد القوانين جملة كافية فقال سعادة هكس باشا بأن الخروج عن الموضوع لا يصح وإنى لا أرغب سوى أخذ إقراركم بأن القوة الموجودة معنا لم يكن خلافها وعلى ما أبداه سعادة الحكمدار هل لم يزل ضرورى أعمال النقط وتنقص القوة الموجودة معنا فأجاب سعادة حسين باشا مظهر بأنى لا أرغب أن أكون مسئولا فيما بعد وأن ما هى الطريقة التى يمكن جلب ما يلزم للجيش فيما بعد تقدمنا إذا احتاج الحال فقال سعادة هكس باشا بأن ذلك ممكن تدبيره فيما بعد عند وصولنا بسلامة البارى وأن عندما نظفر بالأعداء فعوضا عن حضور لوازمات الجيش من هذه السكة فوقتها يجرى حضورها من طريق آخر يكون أسهل من هذه فأجاب سعادة حسين باشا مظهر بأنه لا يقر على عدم لزوم النقط مهما كانت الحالة لأن ذلك من الضرورى فقال سعادة هكس باشا بأنى أعلم بأن وضع النقط هو من المهم لحفظ خط الرجعة ولذلك فقد عقدت هذا المجلس لأخذ أفكاركم وإقراركم فيه ليكون معلوماً ذلك لدى عموم الدنيا بناء على ما أبداه سعادة الحكمدار

العالم زيادة عنا بأحوال هذه الجهات لئلا يقال لو سمح أنه لو حصل شيء إلينا أن السبب الوحيد فى ضياع العسكر ما هو إلا يكون فى تسليم لقيادة جيش عظيم كهذا إلى هكس باشا الحربى الجاهل فى عدم فطنته بضرورة وضع النقط خلف الجيش العظيم لحفظه من غدرات العدو لأنى غير مبال بما يقال فى حقكم فأجاب سعادة حكمدار عموم السودان بأن من رأيى هو أنه بالنظر لعدم مقابلتنا بأحد من العربان ولا مشايخهم من عهد قيامنا ، وثم لحد هذا ومنذ ذلك لا يرى سوى امتداد خروجهم عن طاعة الحكومة وأن العساكر السابق الاتفاق على وضعهم بالنقط لا يكن كافياً لحفظ خط رجعتنا ولربما يطمع بهم العربان بعد تقدمنا بالجيش وذلك لا يمكن لأحدنا منفعة بالآخر وفقط ما هو إلا تنقيصاً فى قوتنا الحالية ولزيادة علمى بحال وأحوال السودان وعربانه فأرى عدم لزوم وضع نقط خلفنا وتقدمنا بالجيش جميعه لجهة الأبيض [وعنه تعالى] بعد الفتك بهم فمن جهة التعيينات وما يلزم للعسكر وقتها يصير حضوره من الطريق التى مسافتها لا تزيد عن سبعة أيام فضلا عن أن بعدها محققين بأن العربان تكون فى يدنا أولى من تفريق قوتنا هنا مائتين وهناك ثلثمائة التى لا تنتج منه سوى تضعيف قوتنا واستهزاء العربان بنا وعدم ارتكاننا على مما يقال بأن القوة الموجودة مع محمد أحمد لم تكن شيء وأن ما دام أن سعادتكم قومندان الجيش والموجودين هم رؤساء الجيش فالذى يتراءى لحضراتكم لا مانع من النظر فيه فأجاب سعادة هكس باشا بأن الصوت الأقوى هو عدم وضع النقط وأن كلا من سعادتكم يضع أفكاره وإقراره مكاتبة وإرسالها إلينا لحفظها بطرفى فأجابوا جميعاً بالقبول وانصرفوا عازمين على تقديم فكر كل منهم كما رغب سعادته وبقينا نحن وسعادة هكس باشا وسعادة أفندى الحكمدار وحصلت المذاكرة فى شان ذلك أيضاً ولم تذكر أدنى موانع خلاف ما أبانه سعادة أفندى الحكمدار ثم استأذنا وقمنا راجعين لخيمتنا[١] .

فى يوم الأربع المبارك ٣ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١١ عربى صباحاً قام لأجل الاستكشاف حضرة الكولونيل فركهار رئيس أركان حرب ومن لزم

١ – لاحظ أهمية ما اتخذه المجلس من القرار الخاص بالنقط العسكرية

من الظابطان وأربعة خبراء خلاف الاثنين السابق إبقائهم أمس بتاريخه وفى الساعة بعينها قد قامت الأورطة التى تعينت لحفر البركة التى أوضحنا عنها خوفاً من حضور العربان إليها خلفنا لحين ما يرد الخبر المفرح عن وجود المياه بطريق الصراخنة [أو يصر أخذ نفسها] ومع حضرة الكولونيل أيضاً مائة و سون خيال وقد نبه عليه سعادة هكس باشا بأنه لم يكن مصرح لمقابلة أعداء مهما كان عددهم وفى الساعة ٢,٠ ونصف عربى ليلا قد حضروا وأوروا عن وجود بركتين مياه تبعد كل منها عن الأخرى مسافة ساعتين ونصف بالحصان مسافة حملة الجيش يوم واحد وصرنا مطمئنين من ذلك ثم بركة أخرى بالصرخنة تكفى الجيش يومين مع وجود الأبيار وبناء على ذلك قد عين سعادة هكس باشا واحد بلوكباشى وثلاثة عساكر حاملين خطاب من سعادته إلى بكباشى الأورطة الموجودة بحفر البركة فى الساعة ٣ يأمرهم بالحضور باكر تاريخه صباحاً للقيام معنا لجهة البركة الأولى المسماة أم سدرة وبعد دخولهم للأورطة قد دخلوا الثلاثة عساكر عازمين على المبيت بالأورطة لحد الصباح أما البلوكباشى فقال إنه يرجع بالثانى حيث كانت الساعة ٥ ليلا تقريباً .

وفى يوم الخميس ٤ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١ عربى صباحاً حضرت الأورطة من نقطة الحفر ولم تجد البلوكباشى المذكور وبالاستفهام قيل إنه بعد أن أوصل الخطاب إلى الأورطة فالثلاثة عساكر عزموا على المبيت ، وأما هو فأخبرهم بالعودة للجيش حيث كانت الساعة ٥ عربى ليلا ولم يعلموا أين توجه فوا أسفاه عن فقد هذا الرجل الذى حضر من التاكا قاصداً التوجه مع الجيش صحبة سعادة أفندى الحكمدار واتته هذه المصيبة التى لم تكن تنتظر وقد بلغ الخبر الجيش عموماً عن فقد هذا الرجل ولعدم إمكان إرسال من يقتفى أثره لمناسبة قيام الجيش فبعد وصولنا إلى نقطة أم صدرة كانت الساعة ٦ عربى نهاراً وبعد أن صار أعمال الزريبة اللازمة للمعسكر فقد حضر لطرف سعادة أفندى الحكمدار وسعادة هكس باشا شخصين بلوكباشية موجودين معنا من أقاربه بحالة الأسف وأخبروا سعادتهما بأنه لا ينبغى لنا التوجه من هنا ما لم نرجع خلفنا للبحث على جثته لا أقل وأما إذا علمنا أنه ضل عن

الطريق كونه كان ليلا فأجابهما سعادتهما بأنه يخشى على فقدهما الآخرين من العربان وأنه لا مانع من أن يأخذوا معهم خمسين خيال ويرجعوا لغاية البركة المذكورة وهناك يقتفوا أثره ويعودوا [محموداً] سعادتهما على ذلك وقاموا بوقتها مع الخيالة وعادوا من هناك الساعة ١ ليلا قائلين بأنهم لم يجدوه مطلقاً وأنهم أخذوا يتبعون أثره مسافة طويلة زيادة عن ساعتين بالخيل فدخلوا فى وسط القش وهناك وجدوا أثره دالا عن كون المفقود لما وصل إليها وعلم أنه تايهاً عن الطريق وقف يجول بحصانه يميناً وشمالاً ثم مال بحصانه بحرى غربى ولكثرة الحشائش فى تلك الجهة لم يمكنهم قص أثره فعادوا خائبين باكيين على صديقهم تاركين العوض لوجه الله ثم بتنا فى تلك الليلة وهى ليلة الجمعة ٥ أكتوبر سنة ٨٣ بنقطة أم سدرة .

فى يوم الجمعة المبارك سنة ٥٣ الساعة ١٢,٥ صباحاً عربى قمنا من أم سدرة قاصدين رهد العبيد ووصلنا هناك الساعة ٦,٥ عربى بعد مكابدة الأتعاب فى المرور من وسط الغابات وبها تعسكرنا ليلة السبت المبارك .

فى يوم السبت المبارك ٦ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١٢,٤٠ صباحاً قمنا من رهد العبيد قاصدين الصراخنة ووصلنا فى الساعة ٥ عربى نهاراً بعد مكابدة الأتعاب فى المرور من الغابات وزرع الأزرة وبها تعسكرنا ليلة الأحد المبارك — فى الساعة ٨ عربى بعد وصولنا حضر بطرفنا حضرة الكولونيل فركهار رئيس أركان حرب وأخبرنى بأن صادق أفندى الحكمدار أن بالنظر يكون موقعنا الحالى محتاطاً بكثير من المرتفعات المرتفعة جداً من صنف الأزرة وقليل من الكامات ترأى لسعادته عدم لزوم إقامتنا بها معرضين أنفسنا للخطر والأحسن القيام من هنا باكر صباحاً لنقطة تورابى وهناك تؤخذ الراحة التامة للعساكر وبأخبارية سعادته بذلك وافق ما أبدى له فأفهمت حضرته بذلك لمخابرة سعادة هكس باشا كما رغب .

(سهى علينا أن نتذكر حادثة يوم الخميس الماضى أول من تاريخه وهو أن بعد وصولنا لنقطة أم سدرة وتعسكر الجيش بها وعمل الزريبة اللازمة واستعدينا لأخذ الراحة من التعب إذ سمعنا طلقتين على بعد وحضر واحد سوارى من

الكشافين على بعد ألفين متر وزعق بنفيره (زنهار) فهاجت جميع العساكر والبروجيين لاستعداد القلعة واستعداداً لضرب النار على قدم واحد وقد جرت المدافع من محلاتها لموقعها المعد لها فاكرين بحضور عربان إلينا للجهوم وحسب ندا السوارى وبعد برهة قد علم بأن بمرورا السوارى من أمام بركة مياه إذ وجدوا اثنين عربان جواسيس يأخذوا مياه فطلقوا عليهم البنادق فقتلوهم ولما استشعروا بروجى السوارى بذلك نادى بكبسه على الجيش وما هى إلا . . . . . . وقد رجعنا لمحلاتنا بوقتها) .

فى يوم الأحد المبارك ٧ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١٢ و ٤٠ دقيقة صباحاً عربى قمنا من نقطة الصراخنة وصلنا لنقطة خور الصاغ الساعة ٦ عربى نهاراً وبمرورنا على حلة ولد صبيح قد وجدنا بها رجل من العربان عمره يفوق التسعين سنة وبالاستفهام منه عن وجود هذه العربان أهل هذا الحلال أوردوا بأنهم هربوا بجميع عائلاتهم قائلين بأن الأتراك لحاضرين ونحن لا يمكننا مقابلتهم وقصدوا جهة تورابى للتجمع هناك كما [حل] ولما لم يكن خلافه بهذه الجهة وما تركوه إلا العجزه فلذلك قد أخذناه معنا للجيش وأمر سعادة أفندم الحكمدار بوضعه على أحد الجمال وبعد المسير بأقل من عشرين دقيقة وقع من فوق الجمل إلى الأرض فمات حيث كانت [تناديه البهائم] وعند وصولنا الحلة وجدنا ولد صغير ومن قبل تعسكرنا وجدنا أمرأة عجوزه تبلغ عمرها حوالى ثمانون سنة تقريباً وبنت عاجزة صغيرة عمرها لا يتجاوز الخمس سنوات قد أخرجوهم عساكر الاستكشاف [قبل البدو فى (صرف) الحلال] وبالاستفهام من المرأة العجوزة عن أهل هذه البلدة أجابت بأنهم فروا هاربين قائلين بأن الترك قد حضرت ولا يمكننا مقابلتهم ولذلك قصدوا جهة تورابى أى الخور من منذ يومين مضت وأما هى فلعجزها لم أمكنها وبالاستفهام عن والدة هذه الطفلة الصغيرة أورت بأنها لا تعرفها إلا هذه الساعة وأن والدتها تركتها وهربت ولعدم اللزوم بها تركناهم حيث كانوا ، وأما البلدة فلم يترك يها بيت بدون حريق كما هو جارى بباقى جميع الحلات التى هى بطريقنا .

فى يوم الإثنين المبارك ٨ أكتوبر سنة ٨٣ قمنا من نقطة خور الصاغ بطريق

تورابى التى هى كما قيل تبعد عن تورابى بمسافة ساعتين الساعة ١ عربى صباحاً قاصدين تورابى وبعد مسيرنا بساعة ونصف قابلتنا غابة فى مواجهة الجيش ولكون غير ممكن المرور منها ووجود زراعة أزرة على شمالها فبعد الاستكشافات اللازمة قد استقر الرأى تدوير القلعة إلى الجهة اليسرى حتى بعد تمكنا من مرور الغابة يجرى تدويرها للجهة اليمنى للسير على المحور الأصلى وبينما كانت الرويسا وسعادة الجنرال هكس باشا مشتغلين فى الكيفية البادئة الذكر أو على بعد استشعرنا بضرب عيارين نار منها صرنا نلتفت يميناً وشمالاً فلم نرى شيئاً بالنظر وحيث كان هذا الموقع فى غاية الصعوبة فلم يسمح [البارو] بحصول شىء بعد أن صارت القلعة فى شديد الاستحفاظ ثم تحقق عدم صحة لهذا الخبر وسرنا قاصدين تورابى وبعد وصولنا وتعيين المحل الذى ينبغى أن للجيش التعسكر به بحسب تعريف حضرة رئيس أركان حرب توجه أحد الخبراء المدعو الحاج إبراهيم من أهالى الكوه الذى أحضره سعادة أفندى الحكمدار لسابق معرفة صداقته مع الجيش لجهة الجبلين ويكونه العالم بطريق كردفان ومحال وجود المياه لاستكشاف بركة مياه قريبة من معسكر الجيش بمسافة نصف ساعة مع اثنين خبراء إذ صادفا حين وصوله مع رفقائه للبركة جمعين من العربان ودراويش الشقى محمد أحمد جالسين بدائرة البركة مختفين وهجموا عليه هو ورفقائه فأطلقوا العربان عليهم النار فلم يصبهم شىء ولكونهم وجودهم يزيدون عن قوتهم ولا محالة لفرارهم قد رجعوا خلف طريقهم وفى الأثناء أخذ أحد العربان المذكورة قد تحكم فى إصابة الحاج إبراهيم بحربة فأصابته فى ظهره ومن شدة الألم قد سقطت من يده البندقية إلى الأرض فانجبر حرصاً عليها غير عالم بما يذوقه بعدها ولا سباها باسترداد ركوبته وهو الجمل كى يمكن من أخذها وحينذاك قد أتوه جملة من العربان من حيث لا يعلم راغبين اغتصاب الجمل منه بعد أن أحدهم قبض على البندقية فتمكن من الرش فأتاه آخر وضربه بالسيف فى يده اليسرى فانقطعت ثم قبض بيده اليمنى على الرش فأتاه آخر وضربه بالسيف فى يده اليمنى فقطعها أيضاً ولوقته سقط على وجهه مغشياً عليه فأتاه آخرين وطعنوه بثلاثة ضربات فى ظهره وسيف آخر فى رأسه

وأخذوا الجمل وما عليه والبندقية أيضاً وفروا هاربين بأجمعهم ، وأما رفقائه فحضروا راجحين إلينا مخبرين ببعض مما حصل فأخذت الاحتراسات اللازمة بالنقطة أى بالمعسكر وأمر بأعمال خندق وقد كان وعمل ثم فى الساعة إحدى عشر تقريباً من النهار بمرور الكشافين التابعين لنا من الجهة التى ضرب بها حميد السيرة الحاج إبراهيم وجدوه واقف على قدميه راجياً إمكانه الوصول إلينا فحملوه وأتوا به إلى المعسكر بالصفة المار ذكرها فحصل لجميع العساكر والرويسا مزيد الأسف والكدر على غدر وقساوة هؤلاء الأشقياء جعل هذا الصادق الخبير أعجوبة كما بالفرنجة يزعمون ولوقته دعى حضرة خلوصى بك حكيمباشى الجيش وبعد أن كشف عليه لمعرفة آلامه قد أجرى الوسابط الحكمية [. . . شفاه غير منتفعين به] وكان دخولنا للمنطقة المذكورة فى الساعة ٧ عربى نهاراً وفى الساعة ٣ عربى ليلا حضر لطرفى أحد أركان حرب من قبل سعادة الجنرال هكس باشا راغب استئذان سعادة أفندم الحكمدار بالحضور لطرف سعادته للمذاكرة فيماهو لازم إجراؤه وحيث كان سعادته نظراً لما اعتراه من الكدر بشأن الحصول على المياه والصعوبة الحاصلة فى تقدم الجيش لجهة الأبيض [وإمكانه] على الجنرال اعتقاداً لمعرفتهم حقيقة الطريق ولما أخبره به سعادة حسن باشا مظهر بالبوصلة الواردة فيه من أن القيام سيكون باكر تاريخه بناء على ما ورد من سعادة القومندان هكس باشا قد عزم على النوم آخذا فى التفكير فيما يكون غداً فأخبرته بذلك فتوجه وأخبر سعادته وعاد يطلبنى من أجل هذا القصد وقمت وتوجهت لسعادته فاستفهم منى عن ذلك فقلت له إن سعادة أفندى الحكمدار نام [للمناسبات كذا] وكذا التى أشرت عنها قبلا فأجابنى بأنه لم يأمر بقيام الجيش وأن لا يلزم سعادته أن يعتنى بأوامر أو بأخباريات خاصة بالجيش إلا أن تكون منه شخصياً وأنه لا يرى لسعادة الحكمدار أدنى دخل من هذا الخصوص وبما أنى مستعد الآن للمذاكرة من فيما يكن غداً بخصوص السفر وتعزيز المياه وكونه نائم فلا شك من أن ذلك يكون سبباً فى تعطيلنا باكر إذ أن هو حاكم هذه الجهات ونحن تابعين له فيما يكن خاصاً بالقيام والمياه فأجبته بأن إذا كان ولا بد من

القيام باكر فأرى أنه لا يكن لسعادتكم حق فى نسبة عدم القيام إليه أركاناً على عدم إخبارية سعادتكم إليه وبما أن البوصلة الواردة لسعادته ما هى إلا نبأ على إخباريتكم وأمركم الرسمى لسعادة حسين باشا مظهر فأرى أن لسعادته حق الزعل من ذلك إذ أنه هو الأحق بمعرفة قبل كل إنسان ولا يجوز القيام من نقطة إلى نقطة إلا بعد علم وإعطائكم القول الكافى عن الطريق وفيما إذا كان موجود بها مياه أم لا ومع ذلك ما دام سعادتكم أوضحتم ذلك فالأصح أن لا يقال شىء فى المستقبل مع علمى بأنه له حق فى ذلك فلا مانع من أن أتوجه لسعادته وأنظر كى يمكنى إيقاظ سعادته وتفهمه بذلك كله وهو المخير فى الحضور من عدمه وأريد أن تسمح بذلك وقمت وتوجهت لسعادة أفندى الحكمدار وأيقظته من النوم وبعد تفهمه فيما أخبرنى به سعادة هكس باشا أخبرنى بأنه لا يرغب التوجه إليه فى هذه الحالة وأنه مكتفى بالبوصلة الواردة لى بناء على أمر سعادته وما دام سعادته يرغب حضور الخبراء فهاهم موجودين ولا مانع من أن يتوجهوا معك وأنت عوضاً عنى إذ لا يمكنى الخروج الآن بما أنى عرقان فأخبرت سعادته بأنى أعلم الحق لكم ولكن لأجل أن لا ينسب التأخير لسعادتكم فغاية رجايا أن يصرف ما عندكم من الزعل بما أننا وصلنا بسلام إلى نصف الطريق ومع ما هوحاصل والمواردة فى السابق أظن إن كافى لحفظ هذه النادرة ببال سعادتكم ولا يكن أدنى باعث فى التشبث فى الحالة الراهنة وسعادتكم أعلم بذلك زيادة عنا فحمداً لله قد قبل منى ذلك وقمنا مع سعادته والخبراء وتوجهنا بهم لسعادة هكس باشا حيث كان ينتظرنا وعند مقابلة سعادته قابل سعادة أفندى الحكمدار بغاية الاحترام وأخذ يعتذر لسعادته لا [ينبغى] أن يتبع أخباريات ما لم تكن منه ذاتا الخاصة بقيام الجيش وقد علم أن الذى أصدر الأمر بالقيام هو حضرة الكولونيل فركهار رئيس أركان حرب قولا منه بأن حضر لسعادة هكس باشا قبل المغرب وهو نايم واستفهم منه عن القيام باكر فأجابه بالقبول وبناء عليه [توقفه] حضرة الكولونيل حرر لسعادة حسين باشا مظهر إعلاناً بالقيام فأجاب سعادة هكس باشا بأن لا يعلم ذلك مطلقاً وأنه لم يتصور أن أحداً حضر إليه مستفهماً عن ذلك

فأخذوا يجاوبون بعضهم بعضهم كلام مناقض الآخر فرجونا سعادته بأن لا لزوم الآن للتحمل مع بعضكما وأن هذه قضية لا ينبغى المكالمة فيها إذ لله الحمد لم ينتج أدنى شيء مضر فيها فسكتوا الاثنين وفتحت المذاكرة من سعادة أفندى الحكمدار وهكس باشا بشأن القيام باكر وما هى معلومات الخبراء فى وجود مياه من عدمه فأجاب سعادة أفندى الحكمدار بأن هؤلاء هم الخبراء وأنه يلزم للاستفهام منهم عما ترغبوه سعادتكم ليكون ذلك معلوم بطرفكم فقبل سعادته ذلك ودعى أولهم أحمد صبيح واستفهم منه هل تعلم جهة العقيلة فأجاب نعم هل موجود بطريقها غابات فأجاب لم يكن فيها غابات غزيرة وفقط أشجار خفيفة وزروعات بكثرة ممكن عبور الجيش منها بطريقه سهلة . ما مقدار مسافتها فأجاب مسافتها كالمسافة بين شات والدويم هل موقعها على النيل وهو الخير كما تقولوا فأجاب نعم إن العقيلة هى ليست بلدة معلومة بنفسها وإنما هى نقطة موجودة بها بير يسمونه العقيلة وموجود بجواره كثيراً من الحلالات وجميعها تسمى جهات العقيلة وموقع هذا البير هى محكم على خور النيل هل محقق وجود المياه بالخور نعم هذا فى كل سنة يملى بالأمطار وتمكث به المياه تجرى طول السنة ولاتساعه يسمونه النيل عظيم جداً هل كنت تقيم هنا قبلا أم كيف معلوميتك به فأجاب بأنه أقام بهذه الجهات مده عشر سنوات وكان تاجراً فى وقتها ويعلم حقيقتها وكان يسوح منها وإليها فأخبره بالتوجه وحضور واحد آخر فحضر بكير أخاه فسأله هذا جميعه فأجاب بمعنى الأول وفقط إن كان حاكماً بهذه الجهات فى مدة موسى باشا حكمدار السودان أول فأخبره بالتوجه وحضور آخر فحضر واحد بعد الآخر فأجابوا بما لا يخرج عن مضمون الأول فانصرفوا جميعاً وحققنا معرفة النقطة المتوجهين إليها وزيادة عما توضح من الخبراء فقد قيل من أحمد صبيح الخبير الأول بأنه قد كان بهذه الجهة يعلم وجود برك مياه فى منتصف الطريق بين هنا تورانى والعقيلة ببلدة يقال لها الحُمَد وعلى ظنه أن يوجد بها مياه وبالنظر لما أبداه الخبيرى من وجود مياه على الظن بمنتصف الطريق بالجهة التى ذكرها رغب سعادة هكس باشا بإجعال هذه النقطة محطتين لراحة العساكر وعلى ما قيل إنه يظن تجمع

العربان بجهة العقيلة استقر الرأى على القيام بالجيش باكر تاريخه كالعادة وبعد المؤانسة قمنا عائدين لمحلنا .

فى يوم الثلاث المبارك ٩ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١ عربى نهاراً قمنا من نقطة تورابى قاصدين الحُمَد أوالسنيطة وهما فى منتصف الطريق لحد العقيلة كما عرف بذلك الخبير ووصلنا لجهة الحُمَد فى الساعة ٧ عربى نهاراً داخل غابة صغيرة وبها تعسكرنا وعملت الزريبة اللازم كالمعتاد وقد وجد بها كم بير غير مستعملين وبوقته توجه من لم يكن عنده مياه وأخذوا كفايتهم وبتنا بها ليلة الأربع وباكر تاريخه قايمين للعقيلة التى هى كالمسافة من تورابى لهنا كما عرف بذلك الخبيرى .

فى يوم الأربع المبارك ١٠ أكتوبرسنة ٨٣ الساعة ١ عربى نهاراً قمنا من نقطة الحُمَد قاصدين العقيلة وصرنا نقطع الطريق بين غابات وزروعات بغاية الصعوبة لغاية الساعة ٧ عربى نهاراً ولم كان يعلم لنا موقع الجهة القاصدين إليها فضلا عن كوننا كما علمنا أننا سنصل للحوار الذي ارتكن عليه كثيراً من من العساكر ولم يأخذوا كفاية لا أقله يومين مياه وحيث كان خط مسيرنا فى اعوجاج لعدم وقوف الخبيرى على حقيقة الطريق فما قاسيناه من الأتعاب تارة ومن العطش الزائد أخرى شىء فيما لا ينبغى التعبير عنه خوفاً من تكدير من يهمه أمرنا ولكن من حيث ابتدينا بالدخول فى هذا الحد فلأجل أن يعلم حال الجيش وبهدلة العساكر من شدة العطش أرى الوجوب على نفسى أن أفصح الحقيقة على قدر ما يصل إليه علمى غير مبال بما يلومنى عند ذلك وهى أن من شدة حرارة الشمس وطول السير يميناً وشمالا وعلمنا بإضلال الخبيرى عن الطريق المستقيم قد انتهيت زمازم العساكر المملوءة بالمياه لعلمهم بقرب النقطة الموجهة إليها قد أخذوا يعتزلون واحد بعد الآخر وعشرة أحدا بعشرة وما فوق ذلك حتى نشأ منها انكسار حذاء القلعة وصاروا يطوقون بأنفسهم غير متعقلين بما يلاقونه أدهى من ذلك لغاية ما صار اتساع القلعة والحملة من الجهات بمسافة ألفين متر تقريباً وخوفاً من أن يفوز بنا العدو لا سمح الله بحالتنا التى كانت القلعة قد اندهشت جميع الرويسا وتيقنوا ونحن جميعاً عدم الخلاص

من هذه الجهة ومن شدة ما حاق بالعساكر بالعطش الزائد ظانين جميعاً بأن هذه مقصده من الخبير فاندفع ملهوفاً لجهة العساكر سعادة الجنرال هكس باشا نادياً إليهم بالانتظام خشية من علاقات العدو فلا يسمع إليه قولا فنادى على الضباط راجياً منهم حصول الهمة فى عدم تبويظ القلعة وعدم خروج العساكر عن حد الطاعة إليهم فلا كانوا يمتثلوا وكان بهذه الصفة سعادة أفندى الحكمدار يجول بجواده يميناً وشمالا لجهات صفوف القلعة نادياً للضباط بحفظ نقطهم وللعساكر بالطاعة خوفاً من تمكن العدو بهم فلا يسمع إلا النداء بالعطش وقد ضاعت فى هذه الساعة عقولهم وصاروا كأنهم لم يذوقوا مياه عشرة أيام أو أكثر فوقع الرعب فى قلوب الرويسا فمنهم وهو سعادة هكس باشا باشا قال وهو فى شدة الغيظ كيف يكون الحال لو أتتنا فرقة من العربان لا تزيد عن المائة فى هذه الساعة فلا يكون إلا الغدر ببعضنا فوأسفاه من أن تكون عساكر منظمة كهذه لا تحفظ نفسها اثنى عشر ساعة من العطش ما دام قدر الله بها وأنى على يقين من أن ذلك لابد وإن يكون ناشئا عن عدم إطاعة أوامر ضباطهم فأخبرته بأن كثرة أكلهم فى الفول السودانى والبسلة وهى اللوبية والأذرة تسبب فيهم عطشهم حتى أوصلهم لهذه الحالة وكان أغلب العساكر الموجودين بالقلعة يقطعون القرب ويكسرون الصهاريج المياه ومن أجل شربة ماء [فانفقدون فإلى] القربة والصهريج وبالاختصار يا سعادة الجنرال أن هذه الحالة مخيفة جداً ونحمد الله تعالى ومن علامات النصر والنجاح قابلوا خور بطيخ بالطريق حيث كانوا يمتصونه لغاية الساعة ١٠ ونصف عربى نهاراً لم نزل سايرين على الفيض وكانت طلائع الشقى محمد أحمد يتبعون أثرنا من خلف القلعة وقدرهم تقريبى كما بلغنا من الكشافين الباشبوزق لا يزيدون عن الثمانين خيال وثلثماية بمسافة ربع ساعة وتارة نصف ساعة يحاولون طريق سيرنا طامعين فى أخذ ما نتركه خلفنا من ضعيف الجمال وغيره وما يسقط من الحملة والفتك بما يتأخر من عساكرنا وعلى الخصوص فى هذا اليوم المهول ونقول بدون إنكار أنه لحسن حظنا والسلامة لقوتنا وشفا ظمأ عساكرنا قد ساعدتنا المقادير الإلهية بوجود حضرة القبودان هلث أحد ضباط أركان حرب البروسيانى إذ أنه

لكونه من الصيادين العظام ففى أثناء سيره مع السوارى الموجودين برفقته إذ على بعد رأى ارتفاع مقدار من البط من وسط الحشائش فظن أن محل وجود هذا البط ولا بد وأن يكون بها مياه إذ البط لا يمكث إلا بمحلات المياه فقصده وكان حقيقى فوجد بركة كبيرة فأوقف هناك السوارى وعاد إلينا مع أربعة منهم وأخبرنا بوجود البركة المذكورة فحمدنا الله على ذلك وصاروا يطمنون العساكر بوجود المياه بمسافة تبعد عشرة دقائق ومع ذلك فلم نزل بغاية البهدلة العظمى وقد وصلنا الساعة ١١ تقريباً وأعطيت الأوامر بأعمال الزريبة اللازمة وهذه الجهة تسمى ولد رُخَيِّص وتوجهت بنفسى مع حضرة الكولونيل فركهار ريس أركان حرب لتحقيقها وكانت مسافتها تبعد عن العسكر بربع ساعة وعند وصولنا ووضع الخفر اللازم عليها ما نشعر إلا وحضرت جميع العساكر بعد بعضها تاركين عمل الزريبة لمن لا . . . . . . وحضر أيضاً سعادة الجنرال هكس باشا وبعدها بعشرة دقايق حضر سعادة حسين باشا مظهر وتزاحمت العساكر على البركة ولا كان أحداً يمكن منعهم وصارت أحوالهم فى حالة التبويظ زيادة عن الأول إذ تركوا الحملة بدون أن يحرسها أحد على بعد مسافة ربع ساعة فحصل لسعادة الجنرال هكس باشا مزيد الزعل إذ أن هذه ليست عساكر كونهم فاقدين معلوميتهم بقوانين العسكرية وعلى الخصوص ضباطهم فأتانى سعادة هكس باشا وأخبرنى بأن أخبر سعادة حسين باشا مظهر برجوعه حالا للمعسكر وإيجاد العساكر فى محلاتها فأخبرته فأجابنى بحماقه ها هو القومندان نفسه هيا إذا أمكنه حفظهم فى هذه الحالة إذ أنى غير قادر على على ذلك فأخبرت هكس باشا بذلك فقال متعجباً أن يريد منك الاستهزاء بى وأنه كل هذا التبويظ ما هو إلا من سوء إدارة حسين باشا مظهر وبهذه الحالة فلا يجوز إجعاله وكيلا له على الفرقة إذ ليس لى منه سوى التعند وتوقيف أوامرى ظاناً بذلك أنه أعلى درجة منى ولوقته ركب جواده بنفسه وعاد لمعسكرنا تاركاً حسين باشا مظهر بالبركة وقد أجرى ما فى إمكانه فى توضيب العساكر وأمر بعضهم بأخذ جمال المياه والقرب ويتوجهوا لملىء قربهم ويعودوا مع باقى العساكر فحصل منهم مزيد التشكك فى أعمال الزريبة وفى الساعة ١١ و٢٥ دقيقة

عدنا للمعسكر وبالاستفهام عما تركناه خلفنا من العساكر والحيوانات فوجدوا واحد وعشرون عسكرى منهم خمسة جهادية وتسعة عشرة باشبوزق وأربعة خيول من بطاريات الكروب وهذا من شدة العطش وكثيراً من الجمال تقريباً من أربعين فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ولا يخفى أن بعد هذا جميعه لم نصل للعقيلة والله يعلم أين موقعها .

فى يوم الخميس المبارك ١١ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١ ونصف عربى نهاراً قمنا من أم رخيص قاصدين العقيلة وقبل قيامنا من النقطة المذكورة قام حضرة القبودان هلث ومعه السوارى للاستكشاف كالعادة وبعد مسيرنا بساعتين رأينا حضرة القبودان المومأ إليه عائدا إلينا مع أربعة من السوارى وأخبر بوصوله للخور المنتظر الوصول إليه وأنه وجد مياه بكثرة تكفى خمسة أشهر وزيادة فعندها حصل للجميع غاية الاطمئنان من ذلك وكان مسير القلعة على غاية من الضبط ووصلنا الساعة ٣ ونصف عربى وعلى بعد مسافة نصف ساعة من الخور صار تعسكر الجيش عملت الزريبة اللازمة كالعادة وتوجهت العساكر لجلب مياههم منه ومن الساعة نصف ليلا قد ابتدأت الأمطار لغاية الساعة ٣ ونصف عربى ليلا وبينما كنا [مترغبين إليها] الأمطار خوفاً على البقسماط من البلولة إذ استشعرنا الورديات بحضور طليعة من العربان بقرب الزريبة فبوقته حصل الندا من العساكر على بعضها واستعدت القلعة لضرب النار وبالنسبة لظهور الطليعة المذكورة من الضلع الأيمن قد أطلقت عليهم النيران والمدافع الكروب والساروخ مسافة سبعة دقائق تقريباً وبعدها ضربت نوبة وقف ضرب النار فهللوا جميع العساكر بالنصر وكما أوضحنا فإن هذه الليلة مظلمة بالسحاب جداً شديدة الأمطار وفى الإثنى[1] قام سعادة أفندى الحكمدار على قدميه ومن معه لافتقاد[2] هذه الحركة فشكر للعساكر والضباط على ما ظهر منهم من الهمة والنشاط والشجاعة وبهذه الحالة صرنا لا نخشى بأس من يقابلنا من الأعداء مهما كان يصل إليه عددهم ثم عندما اشتغل ضرب

---

(١) فى الاثناء

(٢) تفقد .

النار بحالة السرعة كما ذكر قمت من خيمتى عازماً على الخروج منها فما أشعر إلا وضرب عيار نار بعيداً عن خيمتى بعشرة أمتار فسقطت الرصاصة قريبة منى بمسافة ثلاثة أرباع المتر وتحقق لى أن إطلاق هذا العيار هو على غير قصد إذ أن الضارب لهذا العيار لا يخلو من كونه قام ملهوفاً من نومه فأعلم بوجود العدو خارج الزريبة فأخذ يعمر سلاحه بسرعة فأخطأ الحرز منه بغتة ولله الحمد لم يصيبنى بشىء وإنما لم يضايقنى سوى دخان البارود حال ضربها ولقد عزمت على تعريف سعادة أفندى الحكمدار وسعادة هكس باشا ليكون سعادتهما على علم بذلك لتصدر الأوامر بعدم إطلاق نيران من وسط القلعة لئلا يحصل من ذلك إيهام داخل القلعة ويترتب عليه ما لم ينبغى ذكره وحيث أن خيمة سعادة أفندى الحكمدار مجاورة لخيمتى بمسافة عشرة أمتار وكذا خيمة سعادة هكس باشا أيضاً بثلاثة عشر متر فلا ينبغى فى أى حال من الأحوال إطلاق النيران قريباً من هذين الرئيسين الذى عليهما مدار وثبات هذه الحركة وقد علم يقيناً أن الضارب لها هو أحد عبيد حضرة قناوى بك أو حضرة عبد الرحمن بك بأن انتعسا ولأجل أن لا ننسى من الواجب علينا إفصاحه فى أثناء السفرية المهمة فأقول إن هذه الليلة المباركة هى ليلة عيد الأضحية المباركة ولقد دعى سعادة أفندى الحكمدار الموسيقية للترنم تفريحاً لجيشنا هذا العظيم وكونها ليلة مباركة فبعد أن ترنمت من الفرح الأول قد استشعرنا بضرب عيارين نار حيث كانت الساعة ٢ ونصف عربى فبوقته قد نبه سعادته بأن لا لزوم لضرب الموسيقية فى هذه الليلة كونها شديدة المطر ولربما يصغى إليها العساكر بدون التفات لخفرهم داخل الزريبة ويأتينا العدو على حين غفلة لأن من عوايد العربان انتهاز الفرص فى أوقات كهذه وقد كان وتوجهت الموسيقية لمحلها ومن التصادف العجيب أنه لم يمض مسافة ساعة واحدة إلا وقد حضرت طليعة العدو واستشعرت العساكر إليها من حسن التفاتهم وأطلقت عليهم نيران جهنم كما ذكر قبلا — نحن لا يلزمنا أن ننسى فضل سعادة أفندى الحكمدار فى كونه نبّه على حضرة عباس بك وهى حكمدار الطوبجية بضرب واحد وعشرون مدفع باكر تاريخه صباحاً الذى هو يوم العيد المبارك إحياء لهذا اليوم العظيم .

قبل الظفر بالشقى محمد أحمد . . . . . ستكون مبشرة بالنصر وذلك كان فى الساعة ٢ عربى من هذه الليلة ولو أنه لم ضربت المدافع فى وقت العصر الذى هو يوم الوقفة إعلاناً بالعيد المبارك باكر [لاقد أن لنا الطبيعة] باستشعارنا بالعدو فى الساعة ٣,٢٠ وإطلاق الرامنجتون والكروب والسواريخ عليهم فلله الحمد قد اكتفى الحال بذلك ولا بد من بلوغ هذا الخبر باكراً وبعد باكر للشقى محمد أحمد وبذلك يقع الرعب فى قلوبهم ولا يخفى ما لضجة مدافع الكروب ونويت أتمشى فى أثناء الليل ولقد تصورنا أن لا بد وأن يسمع صيحات المدافع بجبل كون الذى يبعد عن هنا بمسافة أربعة ساعات تقريباً إذ كما بلغنا أن هناك تجمع الأشقياء تحت قومندانية نجل الياس باشا العاصى بكردفان ربما ضد الشقى محمد أحمد (سنقيم هنا يومين الجمعة والسبت) .

قد افتتح هذا اليوم المبارك وهو عيدنا الأكبر فى يوم الجمعة ١٢ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١ عربى نهنىء بعضنا بعضاً بحلول هذا اليوم العظيم متعشمين نجاحنا بهذه المأمورية والعودة لأوطاننا سالمين مظفرين ونكون قد أرحنا العباد من شقاوة هذا الضال محمد أحمد وقد استعد سعادة أفندى الحكمدار بمقابلة الخيمة وأول من زاره صباحاً سعادة هكس باشا وحضرة الكولونيل فركهار وضباط أركان حرب الإنكليز يهنئون سعادته بهذا اليوم المبارك وبعد المؤانسة قاموا عائدين لمحلاتهم وبعدها سعادة اللواء حسين باشا مظهر وحضرات جميع ضابطان الفرقة تهنئة واحدة بالملابس اليومية مارين أمام سعادته واحداً بعد الآخر على ما جرت به العادة وعندها أطلقت المدافع إعلاناً لهذا اليوم العظيم . وجميعهم داعين لولى نعمتنا بدوام العز والبقاء ونجاح هذه الحركة المهمة والعودة سالمين وبعدها حضرات الذوات المحضرين بمعية سعادته من بندر الخرطوم وغيرهم من المستخدمين بالجيش المنصور وعلى هذا المنوال فبعد خروجهم من عند سعادته طائفة بعد الأخرى توجهوا قاصدين خيمة سعادة الجنرال هكس باشا للمعايدة على الهيئة المذكورة ، وفى الساعة ٢ ونصف عربى توجهت من خيمة سعادة الحكمدار لخيمة الجنرال المشار إليه للمعايدة أيضاً ومكثت بطرف سعادته مسافة ساعة واحدة وبعد التهنئة افتتحت بينى

وبين سعادته المحاورة عن حالة السودان الراهنة وما سبب إيصال هذه الفتنة لهذا الحد وكيف كانت أسبابها وما هى أفكارك من جهة كردفان ودارفور فأجبته بأن حالة السودان الراهنة هى كما ترى سعادتكم ، وأما السبب الذى أوصل هذه الفتنة وقوى محمد أحمد لهذا الحد هو أن كما علمت من الآخرين أن الشقى محمد أحمد كان بجزيرة أبا الواقعة على البحر[١] الأبيض قد أهمل فى قبضته ومنعه من التعدية لجهة الغرب سعادة رؤوف باشا الحكمدار السابق ومع ذلك فلكونه تقوى بالجهة القريبة للبحر الأبيض وتعضده بعض من قبائل العربان اعتقاداً بأن هو المهدى المنتظر كما أغراهم بذلك [فقد . . . له] فرقة بعد الأخرى غير كافية اشتهر أن يكون لم يكن شيئاً مذكوراً وتمكنت العربان بالفتك بهم بجبل قدير .

قد طلب سعادته إرسال قوة عسكرية من مصر لعلمه أن لا خلاص للحكومة منه إلا بإعدامه أو إعدام معاضديه وقد كان وأوعدت الحكومة بإرسال ما يلائم من العسكر ومن سوء الحظ قد صادف سعادته الرفت من حكمدارية عموم السودان بناء على أمر عال وتعين بدل سعادته عبد القادر باشا وذلك كان فى شدة [استقوى] الحوادث الأخيرة بمصر[٢] فارتكنت العربان على على قيام الشقى محمد أحمد بالسودان وقيام عرابى بثورته المهولة فى مصر عالمين بأن هذا لا يمكن إمداد السودان بعساكر لارتباك مصر فى استعداداتها اللازمة لمقاومة الإنجليز ضد مساعدتهم للحضرة الخديوية ولا يخفى على سعادتكم ما كان فى ذاك الوقت واستقوى الشقى أيضاً بالسودان وصارت العربان معاضدين له والأغلبية منهم خائفين منه لئلا يرسل قوة منهم عليهم قد يفتك بجميع عربان كردفان ولما أن قام سعادة رؤوف باشا من الخرطوم لمصر حسب الأمر وكان سعادة عبد القادر باشا لوقتها لم يقم من مصر قد كان ججلر[٣] باشا وكيلا للحكمدارية فاستفهمت الحكومة المصرية منه عما إذا كان لا زال ضرورى

---

(١) النيل الأبيض .

(٢) الثورة العرابية

(٣) ججلر باشا وكيل حكمدارية السودان .

فى إرسال القوة العسكرية للسودان فجاوب بأنه لا ينبغى إرسال قوة عسكرية من مصر لأن الحالة فى تحسن عن الأول (مع كونه زاد عن الأول) وأنه بالعساكر الموجودة بالسودان يمكن إطفاء هذه الحركة ولا لزوم لتكليف مصر بمصاريف باهظة فاعتمدت الحكومة على هذا الخاين مع علمه الحقيقى بتجمع وعصاوة العربان بكامل وأكنان السودان وفى الحين وصلت الفتنة بالجزيرة وهى إقليم سنار والخرطوم فصبر حتى أن صارت الفتنة فى غاية التحكم وعين أورطة بعد أخرى من عساكر الباشبوزق والشايقية فلم يرجع منهم نفر وقتلوا عن آخرهم ولما رأت العربان هذه الحالة طمعوا زيادة وقام كل شيخ قبيلة مدعياً لنفسه أن هو وزير المهدى وعلت الفتنة فى جميع الجهات الذين كانوا طالعين واتسع الخرق حتى كما لا يخفاكم أن وصل لجهة سواكن بشرق السودان الذين قام بها سعادة الحكمدار علاء الدين باشا ما ينوف عن الاثنى عشر سنة تقريباً ولم كان يسمع شىء مطلقاً بظهور أي فتنة أو حركة بجهة شرقى السودان وعلى الخصوص فى وقت ثورة مصر بعرابى وغربى السودان بالشقى محمد أحمد فلم يحصل أدنى خلل بجهات شرقى السودان بل حفظها سعادته بالسياسة مرة وبالتخويف مرة أخرى حتى أن قدر وانتهت حركة مصر بتأييد الخديوى ولو أن الأغلب منهم كان ينتظر النهاية ولم يمكن إظهار نفسه. فى الوقت ذاته وإنى يا سعادة الجنرال أقول أن ججلر باشا قال كلمة حكيمة ولربما بلغت سعادتكم وهى لما سئل كيف تقول إن الحال تحسّن وتمنع حضور القوة من مصر فقال بأن لا حق علىّ فى ذلك والحق هو الحكومة نفسها كونها سمعت قولى لأنى ليس كنت جهادى حتى أعطى قول حقيقى وإنما الحكومة نفسها محقوقة فى سماع قولى وكان يلزمها النظر فيه فيظهر من ذلك أنها مقصده منه يزيد ارتباك حكومة السودان أو يكون أحداً أفهمه ذلك فأجابنى سعادته قائلا بأنه هذا هو كما بلغنى وإنما الحق الأكبر هو على الخاين ججلر باشا وإنى لا أريد أن يسمح لى الدهر بمقابلته فأخبره بأنى سمعت أن له أمل فى الرجوع للسودان فأجابنى بأنه لا يمكن ذلك مطلقاً وإذا سئلت فأكون أول معارض لذلك لأنى لو علمت هذا قبل قيامه من هنا لكنت أوقفته وجعلته

عبرة بين الأوربيين . هذه عن الخيانة وكما أن الحكومة كانت تثق به ورقته لهذه الدرجة التى لم يراها أحد ما من قبله فكان من الذمة عليه أن يحيطها علما بحقيقة الحال ولها بعد ذلك التصرف وليس يعترف بحسن الحال عن الأول ويلزمها بالاتكال عليه ولكن مضى والسلام وأما كون (أفهمه) أحد فلا تتصور ذلك لأن بروسية لم يكن لها من المنافع مثقال ذرة وأن هذا لا يقال إنه سياسى وإنما رجل دنىء جاهل وإنما انظر يا عباس بك ما قاله اللورد دوفرين بخصوص ترك كردفان ودارفور ما كونه إلا عالماً بها وبطريقها وإنى كنت أنا [الغير قابل دائما] لهذه المشتقات وعدم وجود المياه وعدم وجود وسايط لأجل كل هذا فيما لا ينتج منه سوى كثرة المصاريف وتحمل الحكومة بدلات قيادة مع كون حكومة مصر لا قدرة لها على ذلك فقلت له إن كردفان هو السودان نفسه وليس الخرطوم هو السودان إذ الخرطوم وخلافها لا يكن شىء بالنسبة لكردفان حيث أغلب التجار والتجارة هى بكردفان بالنسبة لمحصولات الصمغ لأنى قد كنت أمين جمرك سواكن فى سنة ٨٢ كانت واردات الصمغ الكردفانى هى عبارة عن مائة وأربعون ألف قنطار هذا بخلاف المعتاد مروره من طريق عتمور كروسكو بهذا القدر وجميعه بخلاف باقى أصناف مثل سمسم والريش النعام وغيره والواردات من أوربا وما يلزم السودان وهى غرب السودان شىء لا يحصى من كامل الأصناف وبهذه الواسطة لا يصح تركها مطلقاً حفظاً على عربان الشرق منها وإنما أوافق ومن الضرورى أن يصير ترك دارفور التى لا منفعة لها مطلقاً وعلى الدولة مصاريفها وحكومة السودان أن يرد منها شىء وعوض الله الحكومة الخديوية خير فيما صرفته عليها من عهد افتتاحها لحد الآن ومصاريف حربها التى كان سبباً فيه سعادة إسماعيل باشا إذ أنه صعب الوصول إليها جداً لا أقله عشرون يوم بدون مياه ولكون من هذه المسألة وهى مسألة دارفور خاصة لوحدها فلا لزوم للدخول فى معرضها فقال عظيم جداً وهل ستعرضون التقرير اللازم على الحضرة الخديوية لتعلم حقيقة هذه الجهات أدله من تكليفها بما لا طاقة لها بها كما أنى سأعرفه فى تقارير عن ذلك جميعه للحكومة الخديوية لترى صالحها معه لأن الحكومة الخديوية لا علم لها بحقيقة

هذه الجهات وأنها مرتكنة فقط على تعريف الحكمدار قوته الخارجة عن حد الصواب فأجبته بأن سعادة الحكمدار لا بد بأن يكون مستعد لذلك أيضاً إذ لم يكن عليه منها ضرر وكل إنسان يهمه وطنه الحقيقي فلا عليه سوى عرض أفكاره وعلى الحكومة قبولها من عدمه فقلت لسعادته أيضاً ان حالتنا المهمة الراهنة هي نهو هذه الحركة والتمكن من الشقى محمد أحمد ورجوع العربان لحالتها السابقة فقال إن هذا ضرورى وإنى مؤمل الفتك به إذا لم يهرب لجهة أخرى فأجبته بأنى أظن أن قتله هو مهم جداً فقال هذا أول واجب علىّ فأجبته بأنى سبق كنت استفهمت من سعادة الحكمدار هل يجوز لى قتله إذا نظرته قريب منا ولا يكون ضبطه أسير وإذا قتلته فما هو القانون الذى أعامل به فقال لى سعادته بأنه ما دام ضبطه أسير فلا يجوز قتله إذ القانون لا يساعد على ذلك فأجابنى بأنه ولو فرض وقتلته وكان بين يدى بدون أن يصيبنى ضرر منك فلا يكون لك سوى المكافأة ومع ذلك فإنى لا أمكنه من الوصول إلىّ بحالة أسير وإنى سأقتله حالا وإن مأموريتى هى خاصة بذلك فقط فإذا كان سعادة الحكمدار عنده أمر من الحكومة الخديوية بعدم قتله وحضوره أسير لمصر فهذا لا يدخل لى فيه ومع ذلك فسأصرف غاية جهودى فى قتله لأنه لا يخفى عليكم أن إذا اعتد هذا الرجل فتلفه عايد على عموم أوروبا فأجبته بأنى ممنون من ذلك وغايتنا الوحيدة هى هكذا وإنى يا سعادة الجنرال أقول أن مسألة محمد أحمد هى مسألة دينية وإذا امتدت فلا يكون منها سوى حصول زيادة الارتباك ، وأما كونه موجود أوامر من الحكومة للحكمدار تقضى بضبطه وعدم قتله فهذا لا يكن مطلقاً لأنى أعلم بذلك إذ الحكومة التى (حاربت) هذا الشقى لا تقصد سوى إعدامه وإعدام أعوانه عند التمكن منه وإنها لا ترغب خراب بلادها وكفى ما حصل لحد الآن من جهتى مصر والسودان فأجابنى بأنه ما دام الأمر كذلك يحصل المقصود ونعود جميعاً سالمين .

فى يوم السبت المبارك ١٣ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ٢ ليلا قد أخبرنى سعادة الحكمدار بأن الحرمة التى ضبطناها يوم أمس تاريخه لكون أنها حرمة عجوزه يريد أن يعطيها إعلانات لتوزيعهم على المشايخ بالحلالات لاطمئنانهم

لربما يحصل تمرد وأن حرر الإعلانات بأسماء بعض المشايخ وأنه يرغب أن أتوجه لسعادة الجنرال هكس باشا لاستخراج رأيه فى ذلك وإذا أراد أن يضع إمضاءه أيضاً فلا مانع فأخذت حسب الأمر الإعلانات وتوجهت لسعادته وبعد تفهمه مضمونهم قد استحسن هذا الرأى وأن يرغب أن يضع إمضاءه أيضاً بمعنى (أنا الإنكليزى قومندان ورئيس الجيش المصرى) فناولته الإعلانات ووضع ختمه عليهم . . . المذكورة وفى أثناء مكوثى حصلت المذاكرة من سعادته ومن حضرة الكولونيل فركهار وريس أركان حربه فى مسألة محمد أحمد فقال لى الأول بأنه فى غاية الأسف من عدم مقابلتنا بأى من العربان أو مشايخهم من عهد قيامنا من الدويم .... لحد هذه النقطة التى هى زيادة عن نصف الطريق ولم يكن يصادفنا أحد بل هم على ما قيل إن جماعة من العربان تحت قيادة عامر ابن الياس باشا متبعنا من خلف منتهزين الفرصة فى إعدام كل من يتأخر منا من العساكر وهذا عار علينا ومما يشوش أفكارنا بخصوص أحوال الأبيض فضلا عن عدم [. . .] صلتنا مع أهالى الأبيض لمعلومية حالهم وأحوالهم وما هى مقاصدهم ليس خائفين منهم فقط للرسيان على أفكارهم لأننا صرنا بين جميع الأعداء ومن جميع جهاتنا وقال [الثانى] بأن ما دام معلوم لنا جميعاً هكذا فهل لم يمكن بواسطة سعادة الحكمدار أجراء طريقه للمراسلة مع الياس باشا بالأبيض والواسطة يكافأ بمقدار من النقود قدر عشرون أو ثلاثون ألف ريال لإعطاؤه الأمان وتوعده بتوظيفه بوظيفة عالية لعل وعسى أن يميل إلينا ويحافظ على عدم تمكن الشقى محمد أحمد من الهروب إذا كان له عزم على ذلك وإلا يضبطه ويسلمه لنا عند دخولنا ونكون حينذاك راسين عن أحواله هناك إذ كما هو منظور الآن بالنظر لسفرنا هذا صعوبة الحال لنا جداً للحصول عليه خوفاً من أنه يهرب ضاحكاً علينا ويزيد اعتقاد العربان فيه بأنه إن لم يكن هو المهدى الحقيقى لكان تمكن هذا الجيش العظيم منه الذى لم يسبق مروره بجهات هنا وأن هذه من إرادة الله له ويزيد بذلك حالا له ونكون قد وقعنا بين العربان جميعهم وقال سعادة الجنرال بأن ما هى الفائدة بدخولنا الأبيض إذا لم نتحصل عليه بنفسه لأنه لو كانت المسألة قاصرة على دخولنا الأبيض

فهذا فى أى دقيقة فى اليد وأن مقصودنا هو القبض عليه وقتله بوقته حتى بعد ذلك يؤمل انتظام كردفان زيادة عن الأول فأجبته بأن هذه أيضاً هى ملحوظات سعادة الحكمدار وأفكارنا عموماً وإنما ما هى الطريقة الموصلة للمخاطبة مع الياس باشا بالصفة التى ذكرتها سعادتكم طالما أننا لم نجد من يقابلنا مطلقاً وإنى أعرض لسعادتكم بأن النظر لكون سعادة الحكمدار أمضى عليه زيادة عن الثمانية أيام بدون إخطار المعية عنا لئلا كما تعلمون لا بد وأن يكونوا بلا محالة مشغولين البال ليلا ونهاراً من جهة الجيش وما معه وما تم عليه الحال صار فى غاية الكدر وأحس تاريخه ولحد الآن جارى البحث على أحداً من الأهالى الموجودين بالجيش مثل عبيد وخلافهم لتوصيل المعركة لجهة الدويم لإرساله لمصر كى يطمئن بذلك بال الحكومة وأوعد لمن يوصله بمقدار ماية وثمانين ريال بعد ومن هنا للدويم فلم أمكن الحصول على من يجازف بعمره . . . بهذه الحالة ما طريقة المراسلة مع الياس باشا العاصى حالة كونه موجوداً بمركز الفساد ومن المعاضدين للشقى وإنى أقول إنه مع مشغولية أفكارنا من أجل ذلك فلا عبرة فى تقدير أى مبلغ لمن يوصلنا إليه ووقتها نكون عالمين بحقيقة أفكاره بخصوصنا وامتدت المذاكرة بهذا الصدد مسافة ساعة وكسور وعند القيام أخبرنى بالمذاكرة مع سعادة الحكمدار بعد أن اتضح لى بأنه [بحق شرفه فمن يكن قائلا لجميع قائلين] وتكون واسطة فى ضبط الشقى محمد أحمد فإن يسامح فيما قوله هذا بالنظر لأهمية وجوده وخوفاً من امتداد سطوة هذا الشقى الملعون فاستأذنت منه وقمت ومعى الإعلانات بعد ختمهم وها هى صورة الإعلانات المذكورة .

« قد صار حضورنا ومعنا جيش عظيم من العساكر المنصورة لضرب الأشقياء ونحن الآن فى وسط بلادكم ولابد بلغكم ذلك وقبل الآن حررنا لمن يلزم من المشايخ بالنصيحة والأمان فإذا كنتم طايعين للحكومة وتريدون خلاص أنفسكم وأموالكم وعيالكم من التلف وعمارية أوطانكم فبادروا بالحضور لمقابلتنا أنتم ومن يتبعكم وعليكم أمان الله ورسوله ومن لم يحضر فيكون هو الجانى على نفسه ونكون بريئون من ذنبه يكون معلوم . »   ١٣ الجمعة سنة ٣٠٠ .

إنه حكمدار عموم السودان . علاء الدين باشا . إمضاء أنا الإنكليزى قومندان ورئيس الجيش المصرى هكس باشا

ثم وعن حضورى بطرف سعادة أفندى الحكمدار بالإعلانات المذكورة قد أوضحت لسعادة هذه المحاورة وأوريته حقيقة مقصد الجنرال فقال لى مع علمه بذلك كله كيف يمكنك مع كونى فى غاية الحيرة فيما هو متظاهر لى ما دام لم يمكن الحصول على من يوصل تلغراف للحكومة بأى مبلغ كان كيف يمكننا الحصول على مراسلة الياس باشا ، وأما بخصوص الشقى محمد أحمد فأخبره بأننا قبل قيامنا من الخرطوم دفعنا عشرة آلاف ريال لشخص مؤتمن من الخزينة بقصد إعطائهم مكافأة لمن يمكنه قتله فاشترى بعض أصناف بضائع وقام من الخرطوم لكردفان بصفة تاجر ووصل لنا منه خطاب يورى فيه أنه منتظر الفرصة لقتله من وقتها للآن لم يرد لنا خلافه فمن أين نجد ولو بمائة ألف ريال لأننا محققين أن هذا الملعون يتسبب منه خراب كبير ومع ذلك فما دام حضرنا بهذه القوة وتواجدنا الآن فى وسط بلادهم ولم أحد يقابلنا ولا بد وأن يكون ذلك أما من قبيل الخوف لنا أو رغبتهم فى التجمع عليه فنحن لا نسأل الاحسن العاقبة إن شاء الله وأظهر مزيد الأسف بالنظر لحالتنا الراهنة حيث انقطعت مواصلتنا مع مركزنا وهو الخرطوم وعدم وجود وسايط لإحاطة علم الحكومة بأحوالنا وهو الأمر المهم وخياب أملنا فى عشمنا قبل قيامنا بمقابلة مشايخ العربان ظانين بأن حال ما تبلغهم قوتنا فضرورة يحضروا لمقابلتنا بالطريق ووقع الأمر لدينا بخلافه فعدت وأخبرت سعادته بذلك وأظهر مزيد الأسف — سهى علينا أن نتذاكر حادثة وهو أن فى الساعة ٦ ونصف عربى نهاراً قد حضرت العساكر من جهات خارج الزريبة المانوطين برعية الجمال وما نشعر إلا وتفرقعت جلة مدفع فى الضلع الأيمن وتسبب منها إصابة خمسة عساكر منهم اثنين جروح خطيرة والثلاثة جروح خفيفة نوعا وبالاستعلام عن كيفية هذه الجلة علم أن عند ما كانت العساكر ترعى الجمال بعيداً عن الزريبة مسافة ألف أو ألفين متر إذ أحدهم وجد جلة مدفع ساروخ بدون فرقعة فحملها وعاد مع رفقائه إلى المعسكر ودخل خيمته فأخذ يحركها ويدق عليها وإذا هى على حين

غفلة فرقعت وتسبب عنها ما ذكر وهذه جلة من ضمن الخلل التى صار ضربها ليلة أمس تاريخه حال الاستشعار بوجود العربان خارج الزريبة ولم يفتح مسمار طبنها سهو بسبب مداهمة العدو مع كثرة نزول الأمطار وما هذا إلا . . . ما قدر الله به على . . . لخمسة عساكر المحكى عنهم وبوقته دعى حضرة حكيمباشى الجيش لمعالجتهم وفى اليوم نفسه الساعة نفسها عندما كانت العساكر ترعى الجمال إذ توجهت أربعة من العساكر لاقتلاع البطيخ وكانوا بعيدين عن بعضهم بلا أقله عشرين متر ومن سوء الحظ قد أتتهم العربان مختفين فى مزارع الأذرة وهم من أصحاب هذه الأراضى فطعنوهم بالحراب وذبحوا اثنين منهم فى مقاتة البطيخ والاثنين الآخرين أكثروهم بالطعن حتى قتلوا وفروا هاربين وعلى ما قيل يبلغ عددهم من المائتين وكسور والأدهى من ذلك أن العساكر نفسهم الأربعة كانوا خارج الزريبة بمسافة ألفين متر بدون سلاح فلم يكن معهم سلاح لكانوا أقله أعلنوا الجيش ليلحقهم ببعض عساكر ومع ذلك صار من الضرورى صدور التنبيهات بعدم التصريح لخروج أى عسكرى خارج الزريبة بدون أن يكون حاملا سلاحه كى لا يتمكنوا هؤلاء الأشقياء من قتل واحد بعد الأمر من عساكرنا ونطمعهم فينا ثم . . . . على البوصلة الإنكليزى الواردة لنا من سعادة هكس باشا من يوم . . . وهو يوم الخميس من أن سيصير إقامة الجيش هنا يومى الجمعة والسبت لراحة العساكر والجمال وتنظيف أسلحة العساكر وهدومهم أيضاً نظراً لكثرة وجود المياه بهذه الجهة سيكون القيام باكر تاريخه لجهة صوعان مسافة يومين حسب تعريف الخبراء وحسب .

فى يوم الأحد المبارك ١٤ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١ عربى قمنا من العقيلة قاصدين صوعان والعزم على المبيت بمنتصف الطريق وقبل قيامنا علم أن وجد على حرف الحور محل أخذ المياه وحضر عسكرى مذبوح ومشقوق بطنه وتحقق أنه أحد عسكر ضباط أركان حرب وكان جارى البحث عنه كونه أخذ جمل المياه والقرب يقصد ملوهم من عصر الساعة ١١ عربى نهاراً حتى تاريخه ولم

---

(١) المنوطين .

يعد بالجمل لحد الصباح ويكون غير ممكن الخروج من الزريبة بعد أوان الضرب فبقت المسألة فى حيز التصور لحد الصبح وعندما توجهت العساكر صباحاً لملو زمازمهم وجدوه قتيل بالصفة المذكورة وأما الجمل فلم يجدوه وما هذا إلا من الطليعة الكامنة خلفنا التى هى تحت قيادة الشقى ابن الياس باشا وكان لما تحقق أمس تاريخه أنهم مقتفين أثرنا خلف الحملة وأنهم كامنين قرب الحور بمسافة تبعد عنا ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف متر ونظروهم أغلب عساكرنا وقيل إن عددهم يبلغ الثلثمائة بيادة ومائة خيالة قد أمر سعادة هكس باشا بناء على اتفاق مع سعادة الحكمدار بقيام برنجى آلاى ومدفعين جبلى تحت قيادة سعادة حسين باشا مظهر ليطوفوا بعيداً عن الزريبة لغاية خمسة آلاف متر لقتل الأشقياء المحكى عنهم فقام وعاد بدون حصول شىء فقط ضرب مدفعين تخويفاً لهم كونهم فروا هاربين من مكانهم وكنا نراهم على بعد كامنين فوق أعالى الأشجار ليتفقدوا حالنا وفى أثناء سيرنا إذ على بعد استشعرنا بضرب نار من عساكر الاستكشاف الباشبوزق حيث كانت الساعة ٦ عربى وبعد برهة حضر رسول من طرفهم ومعه رجل مصاب بعيار نار فى ذقنه وجارية وأوضحوا أن لما قابلوهم هؤلاء الأشقياء كانوا عازمين على ضربهم بالحرب وبوقته بالرصاص وكان عددهم خمسة فمات منهم ثلاثة وحضروا بالاثنين الباقيين ورفقاً لحال هذا الرجل بما أنه طاعن فى السن قد دعى حضرة الحكيمباشى وأخذ يعالجه وبالاستفهام من الرجل عن مكان عربان هذه الجهات ولماذا تركوا مزروعاتهم وأوطانهم فقال بأن العربان خائفين فقط من الترك والسبب فى ترك مزروعاتهم وأوطانهم هو أن قد وردت جوابات من محمد أحمد للعربان يعلنهم بأن الترك قامت من الخرطوم قاصدين الأبيض إلينا وأن من أجل أن لا يأذوكم بالطريق كونكم قليلين فيلزمكم القيام من حلالاتكم وأنكم ليس مصرحين منا بمقاومتهم وأنهم ليس قاصدينكم بل قاصدين [نفسنا عليكم] سوى أخلى طريقهم بدون تعرض منكم ومن يكن خائف منكم على نفسه فليحضر لطرفى لمحاماته إذ أنى غير مبال مهما كان عددهم وستنظروا قوتى ونبوتى فيهم وبناء على ذلك [تفضلهم] نوجه إليه وهم الآن متجمعين بالأبيض وأما مواشيهم

أرسلوهم جهات جبل كون والرهد الكبير وإنى أرجوكم أن تقتلونى خير لكم حيث أن الذى قتلوها الترك معى هى زوجتى والرجل أخويا شقيقى والمرأة امرأته والزرع تعلق تلفتوه بمرور هذا الجيش منه وحلتى أى بلدى هذه حرقتموها ها هى على يمينكم تسمى حلة الشيخ منصور ولهذه الحالة فلا لزوم لعيشتى وهذه الجارية هى خادم أخى — فأخبره سعادة الحكمدار بأن ما سبب هذا التعصب كله وخراب أوطانكم وقتل أرواحكم لماذا عصيتم الحكومة واتبعتم هذا الفاسد فقال إن هذه إرادة من ربى وهذه مصيبة محمد أحمد فى هذه السنين الأخيرة المدعين به العربان الآن أنه إلههم فقال له سعادة الحكمدار وأنت الآخر تدعى أنه إله فقال حاشى فقط ومع الخوف منه فى قلوب العربان وادعى لهم أن الإمام المنتظر والآن يسمونه الإله ويحلفون به فقط أنا بقيت فى محلى هذا طامعاً فى مقابلة الحكومة وقد حل بى . . . . وفى الساعة ٨ ونصف عربى نهاراً وصلنا قرب حلة الفكى محمد تربيه وهناك تعسكرنا وقد عملت الزريبة حسب المعتاد وباكر نقوم لصوعان .

فى يوم الإثنين المبارك ١٥ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١٢ عربى صباحاً قمنا من حلة الفكى محمد تربية قاصدين صوعان ووصلنا ها فى الساعة ٩ عربى نهاراً وتعسكرنا على شاطىء الخور نفسه ومياهه بغاية النظافة وفقط لم تنتهى أعمال الزريبة ولا توضيب المعسكر لغاية الساعة ١١ عربى وقد حصل للعساكر مرتين العطش ونفق من الجمال بالموت ماية وواحدة من البغال أحد عشر وحصان واحد وأربعة عساكر توفوا بالطريق والجميع من العطش لأننا فى غاية الاستغراب من أنه عند قيامنا من العقيلة فعلى حسب الكشوفات الواردة من حضرات الميرالايات اتضح وجود خمسة آلاف وكسور مليانين مياه ولما وصلنا لحلة الفكى محمد تربية التى كنا بها أمس علم أن الباقى من المياه فقط ألف ومائتين قربة فوقع فى قلبنا عموماً وعلى الخصوص فهذا الأمر وهو أمر حياة يهم سعادة الحكمدار وسعادة الجنرال هكس باشا الرعب من أن ما دام باقى ألف قربة من الخمسة آلاف الأصلية وصرف منها أربعة آلاف وكسور ماذا يكون باكر بالألف قربة فحصلت المذاكرة صباحاً بين سعادة هكس باشا وسعادة الحكمدار

بخصوص المياه وما هو العمل فأجاب سعادة الحكمدار بأن هذا ناشىء من عدم التفات الظابطان . . . . وأنه يرجو سعادته ما دام أن القومندان ولا يصح لى التداخل فى أشغاله مخابرة حسين باشا مظهر بتشديد وتنفيذ تنبيهاته وطلب الستر من الله فى هذا اليوم والحمد لله وصلنا بعد ما فقدمنا ما أوضحناه بخلاف أول أمس فإن فقد أربعة وتسعون جمل وأربعة بغال فقط ولقد وردت لى أخبارية من سعادة الحكمدار أن الجيش سيقيم هنا باكر راحة .

فى يوم الثلاث المبارك ١٦ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ٣ عربى حضر سعادة الجنرال هكس باشا لخيمة سعادة الحكمدار وحصلت المذاكرة فيهم فيما هو لازم فقال سعادة الحكمدار وهو بغاية الأسف أن من كثر الحاحى على سعادتكم بخصوص الجمال خاشى أن يعتريكم نوع زعل منا وأيضاً لو تنبهت عند ذلك حضرات الضابطان فلربما تفتكروا أن هذا تدخل فى أشغالكم مع أنى لا أرغب التداخل مطلقاً فقط كونى أعلم أن أرواحنا فى حياة الجمال الواجب علينا راحتهم فى المرعى والتفات العساكر بدون قساوة إليهم منا يوجبنى زيادة تكرار التكلم فى هذا الموضوع فأرجو أن توكدوا عليهم بالالتفات للجمال حيث لا يخفى سعادتكم أول أمس ٩٤ وأمس ١٠١ من الجمال بخلاف البغال الذى هى منفعتها أريد نظر الضرورة احتياجنا فأجابه سعادة الحكمدار بأنه ما دام سعادتكم أخبرتم حسين باشا مظهر فلا مانع من التنبيه هذه المرة بمعرفتكم ذاتا إلى الميرالايات ولعل وعسى أن يحصل المقصود فأجاب سعادته حاضر ومن المذاكرة قام وبوقته دعا عزة الأميرالايات وحضروا بطرف سعادته وأكد عليهم متعشمين حصول المقصود وفى الساعة ٤ ونصف عرنى حضر لخيمتى حضرة الكولونيل فركهارس فى أثناء المذاكرة أخبرنى بأن القبودان هلت توجه يوم تاريخه مع فرقة من السوارى لاستكشاف محل بجهة أم رعاية قيل عن وجود مياه بها فأخبرته بأن الجمال والبغال تعبانين فأجبته بأننا محتاجين للبغال قبل كل شيء « أنظر للمدافع الكروب ثم الجمال لمشالنا فقال فى الواقع إذ لا يمكننا ترك الكروب بالطريق إذا لم تجد وسايط لشحنهم وفى أثناء المذاكرة أورى بأن الضباط غير مطيعين للأوامر وهو الأمر المهم فأجبته بأنه بالنظر للحالة الراهنة

ولأننا محضرين للمحاربة فمن لم يطيع الأوامر من الضباط يجازى حتى يعتبروا الغير فقال إن عرف سعادة الجنرال الذى هو متكدر منهم وزيادة وعزم على عزل بعض منهم لربما يعتبر غيرهم وقد أخبر سعادة الحكمدار هكس باشا بذلك أيضاً وإنى فى غاية الأسف كونى أرى ضباطنا العسكرية الذين عليهم مدار هذه الحركة مهملين جداً فى ضبط عساكرهم حتى أوجبوا سعادة الجنرال هكس باشا وغيره من إسقاطهم من نظره بعد أن كان ملتفت إليهم وفى الساعة ٥ عربى علمت من سعادة الحكمدار عدم إخراج الرجل الذى صار ضبطه أول أمس بعد أن كان العزم على إطلاق سبيله نظراً لما أصابه ولأن يكون حاملا بعض إعلانات من سعادته لعموم المشايخ لدخولهم فى طاعة الحكومة هذا بالنسبة لما تراءى لسعادته من أن هذا الرجل ما دام فقدت جميع عائلته فلربما لو أخرجناه وطلقنا سبيله يخبر العربان عن حالنا وكيفية العطش الذى لحقنا أمس تاريخه وتبويظ القلعة عند وصولنا للخور ولقد تراءى لسعادته إبقاءه بالجيش ولا لزوم لهذه الإعلانات السابق إعطاها للحرمة عند قيامنا من العقيلة وقد وقع هذا لدى سعادة هكس باشا توقع الاستحسان وما ذلك ببعيد ما دام هذا الرجل فقد حرمه وأهله ومزروعاته . وفى الساعة ٩ عربى لما [. . .] لسعادة الحكمدار وجود بعض الجمال بالمرعى مربوطين فى الأشجار والخفر نايمين تحت الشجر غير مبالين ما ينتج من الضرر لوعد منا هم مدعين سراً حضرة إسماعيل بك القائمقام بالخروج بره وملاحظة هذا الأمر المهم وقد كان وخرج وعاد بكشف واضح أسماء الخفراء وعدد الجمال وتبعية كل بلوك وأورطة وآلاى وبوقته أمرنى سعادة الحكمدار بأن أوصل هذه الورقة لسعادة هكس باشا وتفهيمه ما بها واترجا سعادته فى عدم المؤاخذة والنظر فى معاقبة هؤلاء العساكر وتفهيم ظابطانهم كى لا يحصل إلا مزيد الالتفات فى المستقبل فأخذت الورقة وتوجهت وجدت سعادته نام حيث كانت الساعة ١١ عربى فعطيتها لحضرة الكولونيل فركهاروس وأخبرته بما أمر به سعادة الحكمدار فأخذها وأظهر مزيد ممنونيته عن هذا الالتفات وأنه سيعرف سعاده هكس باشا بما يقضى معاقبتهم بعد ترجمة هذه الورقة المذكورة وتشكرت له وعدت وأخبرت

سعادة الحكمدار بذلك .

فى يوم الأربع المبارك ١٧ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١٢ ونصف عربى قمنا من صوعان لنقطة بلشيك المحل الذى صار [افتقاره] لمعرفة القبودان هلث يوم الخميس أمس تاريخه ووصلنا لنقطة بلشيك الساعة ٤ ونصف عربى وبعد مسيرنا بنصف ساعة حصل إطلاق النار علينا من الغابة الذين كانوا مختفين بها العربان وأرسلت السوارى لاستكشافها وبمناسبة استمرار ضرب النار علينا من الغابة وعدم رؤية العربان بها قد صار إطلاق الرصاص عليهم من السوارى والباشبوزق على مسمع رصاصهم ولم يتحقق لنا أن كان قتل منهم شىء أم لا وأما رصاصهم فقد أصاب منا حصانين ولكن لم تكن الضربات خطره وفى الأثناء سمعنا على بعد صوت مدفع مضروب علينا وبالنسبة لبعد المسافة فلم يصلنا فقط- بعض الناظرين رأوا الدخان الصاعد منه وأما عند وصولنا لجهة بلشيك وبعد أن أعطيت الأوامر لإعمال الزريبة للمعسكر على حسب المعتاد فلكون حادثتها مهمة مستطيلة نوعاً. استصوبنا درجها بورقة مخصوصة لتلصق بهذا للاطلاع عليها عند الاقتضاء وتدرج بهذا الكتاب بتفصيلات ما وقع (خصوصية) وفى الساعة ١٢ عربى مساء حضر حضرة الكولونيل فركهاروس وعرفنى بأنه أخبر سعادة الحكمدار أن القيام سيكون باكر كالمعتاد وحصلت المذاكرة فى شأن حادثة هذا اليوم الأخير فأورى بأن المقتولين هم عشرون نفر من الباشبوزق والسائقين بما فيهم البكباشى ووكيل الأورطة وجميعهم من أورطة حضرة عبد العزيز بك وثلاثة منهم من أورطة حمزة أغا وأظهر مزيد الأسف على ذلك ثم قمنا وبعدها حضر سعادة الجنرال هكس باشا وبعد المحادثة بشأن حادثة يومنا تاريخه قد أخبره سعادة الحكمدار بأن الضرورة ملاطفة حضرات الميرالايات وإظهار الممنونية إلى ما يحصل منهم زيادة الدقة وعلى الخصوص سعادة حسين باشا مظهر فقام سعادته بوقته لخيمته ودعى حضرات الميرالايات للصفة المذكورة وعليه لنا فى أن يكون حصل الموجود ثم توجه له أيضاً سعادة حسين باشا مظهر ولعل وعسى أن يمتنع الخلاف بينهم وأنه لا يتذكر أن لسعادة حسين باشا مظهر الحق فى جميع إجراءاته لأنه لم يخالف

أوامر سعادة هكس باشا لا يعلم ما ينتج منها من الضرر وأما الآخر فلم يرتض قولا بأن أوامره من الضرورة بتنفيذها بدون توقيعنا ولو يحصل منها ما يحصل مع أنه لا يجوز ذلك مطلقاً لأنه غير مبال بما يحدث للحكومة المصرية من التلف لعاقبة أوامره وعلم أن القيام سيكون باكر تاريخه كالمعتاد .

وفى يوم الخميس المبارك ١٨ أكتوبر سنة ٨٣ قمنا من نقطة بلشيك الساعة ١٢ عربى قاصدين عبلى وبعد مسيرنا بساعة واحدة أطلق العدو نحو من ثلاثين عيار من الجهة اليسرى ومن ذلك علمنا اقتفاء العدو .

صار توقيف القلعة[1] واستعدت لضرب النار ولكون انقطع ضرب الأشقياء فقط صار غيار بعد الآخر على مسافة كبيرة فلأجل عدم تأخيرنا (غايتهم الوحيدة) وتشتيتهم من على أضلع القلعة قد أمر سعادة الجنرال لضرب مدفع كروب ساروخين ويا أسفاه من أن المدفع الكروب لم يكن مستعدا للضرب إلا فى مسافة تقريباً نصف ساعة لوجود خلل داخلى به فانجبر الطوبجى لاستعمال المدفع الثانى وما ذلك إلا لعدم دقة التفات الضابطان وريس الطوبجية إذ من الضرورى كما أننا مرتكنين عليه أن يكون دائماً فى كل برهة على هيئة استعداد والأدهى من ذلك أنه بدلا من أن يضرب الساروخ لا أقله على بعد خمسمائة أو ألف متر فكان ضربه لمسافة عشرون متر تقريباً وغاص بالأرض بدون فائدة والثانى لبعد مائة متر وأن إذا كانت حالة المدافع بهذه الصفة فلايكن منهم سوى مشقة التكليف بسفرهم ولو طبيعة أن هذا منسوباً لحضرة عباس بك وهبى حكمدار الطوبجية ومن ذلك فحصل لجميع الحاضرين وعلى الخصوص سعادة الجنرال هكس باشا سعادة الحكمدار مزيد الكدر ثم سرنا كما كنا ووصلنا لجهة يقال لها القداكيم قريب من عبلى وهناك تعسكرنا وعملت الزريبة اللازمة كالمعتاد وسنقوم باكر لعبلى الذى كما قيل موجود بها مياه .

فى يوم الجمعة المبارك ١٩ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١٢ عربى صباحاً قمنا من نقطة القداكيم قاصدين عبلى وفى الساعة ٤ ونصف وصلنا خور على

---

(١) تشكيل المسير فى هيئة مربع .

ولم نجد مياه به فمع ما حصل من الكدر بالنظر لعدم وجود مياه واحتياجنا الضرورى لها فى هذا اليوم أنجبرنا بالسير لجهة يقال لها أم دباكر ووصولنا لها كان فى الساعة ٧ ونصف ولأجل البحث وجد بها بركتين مياه وحل صرف لا تصح للشرب مطلقاً وهناك تعسكرنا وعملت الزريبة اللازمة طمعاً فى كونها تكفينا [المذكورة] وقد كان وأخذ من مياهها ما قدر الله به وكنا على غاية الحذر من من كونها تكفى أم لا مع ضرورة سقية الحيوانات ولله الحمد فى هذا اليوم بليلته وسنقوم باكر تاريخه للبلياب حاملين هذه المياه البطالة لمسافة ثمانية ساعات كما قيل من الخبراء .

فى يوم السبت المبارك ٢٠ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١٢ عربى صباحاً قمنا من نقطة أم دباكر قاصدين البلياب وبعد مسيرنا بساعتين قابلنا غابة لم يتمكن الإنسان من العبور فيها وبينما العساكر سايرين خلف الخبراء إذ وقف الكولونيل فركهاروس وصمم على المرور داخل الغابة قولا منه بأنها أقرب مما عرف عنها الخبير اعتماداً على بوصلة بيده فتعجبنا غاية العجب من أن أفكاره هذه لم تكن صواب إذ أن السفر فى أراضى صعبة كهذه لا ينبغى أن يكون بالبوصلة كونها غابات غزيرة وتكون وما علمنا أفكاره عن هذا الخصوص والوقت لا يلزمنا بالخوض فيها لأن تعريف الخبيرى هو أقوى كونه عالم بهذه الطرق وما أحضرناه إلا لإرشادنا عن الطريق الأسهل لمرور هذا الجيش الجسيم منه ولا لنا اعتبار على حامل البوصلة وبالاختصار فإنه لا يريد من ذلك إلا القول فيما بعد أن هو [المعرف وإلينا نصر الجيش] وكان لا يعتمد على هؤلاء الخبراء الذين أحضرهم سعادة الحكمدار مع كون لم يرى من الخبراء شىء يوجبنا لعدم الاعتماد عليهم حتى كان يقال إنهم لم يريدوا لنا إلا الضرر ولذلك قد جعلنا البوصلة آمنة لنا من أخطارهم مع كون هذا بخلاف ويا هلترى هل يمكنه التقدم بالجيش أو [الضرر] بهذه البوصلة التى أتعبنا بها كامل العساكر من نحو تمزيق هدومهم ودخول الشوك بأجسامهم فضلا عن مشقة الجمال فى العبور وقطع خشب الأصناط بأحمالهم وتارة بأجسامهم وهل لا يدرى أن مع تشبك الأشجار السنط ببعضها والخلاص من بينها يكون مانعاً بالكلية من مرور الجيش وموجباً بلا شك

فى التأخير زيادة عما لو قطعنا الطريق بالميل فهذه خرافة الإنكليز وفراستهم ولو قلنا إن يقصد بذلك الوصول للمياه بسرعة فهل لا يفطن كيف تكون النتيجة لو صادفنا العدو داخل الغابة إن هذا لشيء عجاب ولقد كانت هذه النادرة أخف رحمة فيما صادفناه بعد العصر وهو فى الساعة ٩ ونصف عربى فى أثناء سيرنا إذ توجه الكولونيل ذاته وبعد أن اختفى مسافة عاد وقال إنه لأجل الوصول للخور بسرعة بينما كنا سايرين فوق تل عالى ينبغى علينا العبور من هذه الغابة . . . . للخور وأشار بيده لقطعة غابة ترى من فوق التل كأنها لم تكن . . . . وفقط حشائش خفيفة وبعض أشجار سنط وعند نزولنا فى الواطى وجدت طريق مستقيم وعلى يسارها غابة عالية الأشجار بخلاف [ما تطرق أعلى] ومع كونه عالماً علم اليقين بارتفاع أشجارها ووجود صنف بوص يبلغ ارتفاعه خمسة وستة أمتار فكان الخبيرى لا يرتضى خوفاً من أن يلام فاتبع الطريق وسار عليها وتبعه سعادة الحكمدار مسافة نصف ساعة فزعق الجنرال هكس باشا وقال لى أين الخبيرى فأخبرته بأنه تقدم على هذا الدرب مع سعادة الحكمدار فقال كيف ذلك مع كون الكولونيل فركهاروس عرف عند المرور من هنا وأرسل مندوب يناديه وهو فى حالة الزعل وأحضره وحضر أيضاً سعادة الحكمدار وأمر بالدخول داخل الغابة على الجهة الشمالية فعرض الجيش بهيئته ودخل الغابة حسب الأمر وكنت إذ ذاك رأيت سعادة الحكمدار لقى درب داخل البوص فاتبعته وسرنا داخلا مسافة ساعة تقريباً ولم كانت تنتهى وكان ارتفاع البوص من خمسة لستة أمتار لا يمكن الرائى أن ينظر أو يحقق ما بجانبه على بعد متر واحد ، وفى الأثناء زاغ عن بصرى سعادة الحكمدار وبقيت أنا وأربعة أنفار متحير الفكر كيف تكون نهاية هذه الطريق وكنت لا أسمع إلا ضجة الجيش على بعد بعيد غير ممكن الرجوع إليه [عن معنى] تابعاً أثر سعادة الحكمدار ولم أجده وقد ضاع كل فريق من الجيش والحملة إلى جهة دون معلومية بعضهم بعضا وبينما كنت تائهاً كأمثالى إذ سمعت منادياً ينادى علينا من الجهة اليمنى قائلا ها هنا الطريق فملت حالا اتجاه الصوت وقطعت مسافة عشرة دقائق بدون أنظر أحد فطلعت فى قطعة أرض مكشوفة نوعاً حشيشها واطى فوجدت

من على بعد جانب من السوارى وسعادة الحكمدار وسعادة الجنرال هكس باشا فتقدمت إلى أن وصلتهم ولم يزل الجيش فى التقدم داخل الغابة بحالة توريط فقال سعادة الحكمدار للبروجى التابع لسعادة هكس باشا اضرب تجمع عند القومندان احتراماً له فلم يصغى لأمره فكررها سعادة الحكمدار بحالة الزعل زيادة عن عشرين مرة ولم يصغى له وبالأخير استهل البروجى بالنداء فأمره سعادة الجنرال هكس باشا بتوقيف النداء فتقدم سعادة الحكمدار لجهة تل عالى بحالة الزعل عالماً بأن مسافة الخور لم تزل بعيدة وفضلا عن الخطر فلم يمكن وصول الجيش إليه إلا ليلا وهذا غير جايز بالنسبة لما لحق العساكر من العطش فاتبعته وبقى سعادة الجنرال هكس باشا واقفاً . . . بالمنطقة المذكورة وصار ينادى سعادة الحكمدار على أحد فلم يجدوا بالصدفة [نظر] لمعى أفندى البكباشى فأخبره بأن يأمر البروجى حالا للنداء على القلعة بالرجوع لهذا التل وعدم لزوم التقدم حيث المسافة بعيدة للخور وكانت الساعة ١١ عربى فبوقته رجعت القلعة قاطعاً البوص لاتجاه صوت البروجى وتوجهنا لجهة التل وبوصولنا فوقه فكنا نرى العساكر والحملة تائهين بالغابة كل جمعية على حدتها على مسافة ألفين وثلاثة آلاف متر تقريباً وأول من طلع التل من الجيش كانت الطوبجية ومدافع الكروب ولما رأى سعادة الجنرال هكس باشا ذلك انجبر بالعودة لجهة التل واستمرت العساكر والحملة فى طلوع التل اتجاه ندا جميع بروجية الجيش ولم نتنهى لحد الساعة ٢ عربى ليلا وكان كل من لحق التل من العساكر يأمره سعادة الحكمدار حالا بقطع أشجار السنط لإعمال الزريبة خوفاً من انتهاز العدو هذه الفرصة الملعونة وتعسكرت العساكر فوق التل بحالة غير منظمة لضيق المحل حتى صار كل إنسان لايدرى أين تابعيته وبات كل عسكرى وكل ضابط بأى جهة لحقها بالتل خائفين أفكارهم من هذه المسألة وكان سعادة الحكمدار يطوف بنفسه بدايرة القلعة فى اطمئنان العساكر وتشجيعهم لصرف ما لحقهم من غشاوة الفكر حيث كانوا يتكلمون بألفاظ جهلية فمنهم من يقول إن الحكومة لا تقصد بسفريتنا هذه إلا لإعدامنا ولو لم يكن ذلك لما قادنا القومندان الإنكليزى لجهة الغابة ومنهم من يقول إنه كان مستعداً لقتل نفسه

خلاصاً من ورطة الدخول فى هذا الحشيش الناشف ومن الضابطان العظام من يقول إن هذه بلا شك مقصدة من الإنكليز فى إعدامنا ومن الباقين من استشهد مؤكداً لما يلحقه من الموت داخل الغابة وصارت الألسن عموماً تطعن بما يأتى فكر صاحبها من الملحوظات حسنة كانت أم سيئة ، وفى الواقع لو لم يكن البارى مريد لنا بالنصر وقلوب أعداءنا عمية لكانت حياة هذا الجيش المركب من خمسة عشر ألف نفس وخمسة آلاف جمل تقريباً وألف حصان وبغل موقوفة على كبريتة واحدة تضع فى هذه القشوش الناشفة ولا يمضى برهة زمانية إلا وهى آخذة بأرواح الجيش عموماً فحمداً لمن له الحمد على هذه المنة العظيمة وصرنا بعد هذا لا نفكر فى أعدائنا طامعين فى رضا البار على هذا القياس ولقد مضت هذه الليلة بين كان ويكون إلى أن أصبح الصباح ليوم الأحد المبارك ٢١ أكتوبر سنة ٨٣ عازمين على القيام للبليات حامدين المولى على إنقاذنا من بلية ليلتها (اسم التل التبنة) .

فى يوم الأحد المبارك ٢١ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١٢ عربى صباحاً قمنا من التبنة قاصدين خور البليات وفى أثناء سيرنا إذ بلغنى من حضرة عباس بك وهى أن ليلة أمس تاريخه الساعة ٢ عربى حضر لطرفه المستر افنس مترجم سعادة الجنرال هكس باشا وأخبره عن لزوم حفظ الخبراء فى هذه الليلة وعدم تمكنهم من الهروب ولما رأى حضرته ذلك قد أفهمهم فتعجبوا من أن لم يحصل منهم شىء يوجب حبسهم فأخبرهم بأن لا يفتكروا فى شىء وأن ما دام أن إحضارهم هو بمعرفة سعادة الحكمدار فهو المسئول عنهم وأنه ما دام كذلك فيلزم توجيههم لطرف سعادته وتعريفه عن هذه المسألة وقد كان وتوجهوا وكان بالصدفة سعادة الحكمدار متوجه لطرف سعادة الجنرال هكس باشا وبعد المكالمة فيما هو لازم أخبره بما بلغه بخصوص الخبراء واستفهم عن السبب الموجب لذلك فأنكر فى الحال وقال إنه لم يأمر بذلك وفقط أمره كان قاضياً للالتفات إليهم حتى لا يخرجوا من المعسكر فأخبره سعادة الحكمدار بأن هذا لا يصح لأن هو لا أنا الذى أحضرتهم وائتمنت عليهم ولحد الآن لم أرى منهم غش مطلقاً وكيف يكون العمل لو هربوا منا فإذا تراءى لكم عدم أمينتهم فهذا يكون بالمخابرة

معى لإثباته إذ أن حبسهم بدون علمى يعد خيانة منى معهم وأنه لا ينبغى التعدى على ناسى فأجابه لا يقصد بذلك ضرورة تعدى عليهم وإنما ما دام الأمر كذلك فلا مانع من استحضارهم وتطمينهم وقد كان وحضروا وانصرفت على ذلك فيا للعجب وما أسرع حصول الوسايط لخلاص أنفسهم أهل لا يعلم أين السبب الوحيد الموجب لتعب الجيش ووقوعه فى الأخطار يوم أمس الذى لا يذكر ما هو إلا لمخالفتهم للخبراء اعتماده على بوصلة الكولونيل فركهاروس ، وقد قالوا الخبراء غير مرة إنهم لم يكونوا مدانين إذا لم يتبعوا كلامهم فكيف مع كون الكولونيل فركهار هو السبب وعمومنا يعلم ذلك فهل مع قصر حجته للخلاص من خطر أمس الذى لحقنا عموماً لم يجد حيلة سوى حبس الخبراء ليقال أو يشاع أن ما حصل هو غش الخبراء ليمحى ما لحق من أفكاره السيئة بخصوصهم وهو ينال فرصة أدهى من ذلك وإما نحن [بعجزنا] وأملنا الشديد فى الله سبحانه وتعالى لا نزال طالبين أن يمنحنا بعظيم تلطفاته من كل ضرر يحصل كما منحنا أمس تاريخه وأما مرغوبنا من جهتهم فلا لنا سوى راحتهم مهما أمكن للخلاص من شرهم و يدعونا معتمدين على المولى مقتادين بخبرائنا الذين أظهروا صداقتهم لنا حتى أوصلونا لهذه الجهة إذ لو كانوا يريدوا عدم نصرتنا لكانوا أضلوا بنا فى وسيع الخلوات لأن التمسك بالبوصلة لم يكن إلا منذ ثلاثة أو أربعة أيام قرب وصولنا للجهة المقصودة وبعد مسيرنا بساعة قد أتى علينا الخبيرى مبشراً بوجود قرب المياه بالخور فهللت العساكر لهذا الخبر المسر ووصلنا الخور وهو خور البلياب الساعة ٢ ونصف عربى وتعسكر الجيش بمسافة خمسون متراً بعيداً عن الخور وكانت العساكر يتزاحمون على المياه فرحين مسرورين وعرض الخور عبارة عن خمسة عشر متر تقريباً وبعد أن عملت الزريبة اللازمة كالمعتاد وأعطيت الأوامر بإقامة الجيش هنا يومنا هذا وباكر تاريخه أيضاً وسيكون القيام بعد باكر الذى هو يوم الثلاث ٢٣ أكتوبر سنة ٨٣ ولم تمضى عشرة دقائق إلا والعربان قد تمكنوا من البر الشرقى للخور واستمر إطلاق النار على القلعة من الساعة ٣ لغاية الساعة ٣ نهاراً وبالنظر لعدم رؤيتهم كونهم مختفين بالأشجار فلم يضرب عليهم نار من القلعة إلا ما ندر احتراساً

من جناح رصاصنا فى الفارغ البطال وأما هم فلم يمتنعوا من الضرب علينا خلال النهار على بعد تقريباً من سبعمائة لألف متر وتارة يقربوا إلينا مختفين فى الحشيش زاحفين على بطونهم على مسافة خمسمائة متر تقريباً ومن كثرة هذا الضرب فقد قتل منا خمسة منهم ثلاثة على شاطئ الخور واثنين داخل القلعة خلاف ثلاثة عشر أيضاً جرحوا داخل القلعة وأصابوا أيضاً منا بالقلعة حمار وجمل وكان الرصاص يمر لبعد مرماه من فوق خيامنا وتارة من الأرض ولله الحمد فلم يصاب منا إلا هذا العدد القليل وفى أثناء ضربهم قد رأى سعادة الجنرال هكس باشا إطلاق كم جلة[1] ومدفع كروب والساروخ على مسمع رصاصهم لكى يبعدوا أو يمتنعوا عن هذه المناوشات الخطرة بالقلعة وأما منهم فلم يعلم ما قتل لعدم علمنا بجهة وجودهم وعدم إحكامنا التوجه لاستكشاف ذلك لكونهم كامنين بالأشجار ولما علم سعادته بأن [لهما أن] يقصدوا معاكستنا فى أثناء الليل واقترابهم لدايرة زريبة القلعة قد أمر بإرسال أورطة من العساكر البيادة للبر الشرقى من الخور هناك لعمل زريبة محكمة لهم ويبيتون بها لخفر الخور على قطعة أرض تكون مكشوفة وقد كان وتعينت الأورطة ولما أن أدركت العربان الأشقياء ذلك تباعدوا عنا وامتنع ضرب النار علينا وصرنا آمنين منهم ليلا — وفى الساعة ٣ عربى ليلا حضر سعادة الجنرال هكس باشا باشا بطرف سعادة الحكمدار بعد المكالمة فيما هو لازم قد أخبره سعادة الحكمدار بأن من كون أن كثر رصاص العدو يومنا تاريخه هو كان قريباً من الفرسين فلربما هذه تكون مقصودية منهم وأن المترائى لسعادته هو عدم رفع الفرسين وهما فرس سعادة الحكمدار وفرس سعادة الجنرال هكس باشا قومندان الفرقة فأجابه سعادته بالقبول وعزموا على عدم رفعهم باكر وقد كان زوبتنا آمنين من عدونا هذه الليلة لليلة الإثنين المبارك .

فى يوم الإثنين المبارك ٢٢ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ٢ عربى قد ابتدأ العدو علينا بضرب الرصاص بحالة الاختفاء بالأشجار من الجهة القريبة بعيد عن الأورطة الموجودة بالبر الشرقى واستمر الضرب علينا لغاية الساعة ٥ وقد قتل

---

(١) طلقة .

منا خمسة على شاطئ الخور من الجهة القريبة ولما نلاحظ ذلك قد أمر سعادة الجنرال هكس باشا بضرب أكم مدفع كروب وأكم مدفع ساروخ على مسمع رصاص العدو وعند أول مدفع من الكروب حالاً امتنع ضرب النار علينا ولما توجّهت السوارى للاستكشاف خارج القلعة على بعد ألفين لثلاثة آلاف متر قد وجدوا أحد مشايخ العربان مقتولاً هو وحصانه بإصابة مدفع من مدافع أمس تاريخه ملقياً على الأرض لابساً قميص من الزرد وطاقية من النحاس وحصانه أيضاً مغطى بكسوة مخصوصة ولكون حصل به انتفاخ من شدة الحرارة فلم أمكن اقتلاع الكسوة الزرد لضيقها عليه ولا بد وأن يكون هذا من عمداء الأشقياء وكنا مشتاقين لمعرفة اسمه وتبليغه ولكن لعدم وجود أحداً معنا من أهالى كردفان فتعسر علينا الوقوف على حقيقة هذا الرجل — ثم وفى الساعة ٧ ونصف قد ابتدوا الأشقياء بضرب النار علينا ولغاية الساعة ٩ عربى قد أمر سعادة الجنرال هكس باشا بضرب أكم مدفع كروب عليهم اتجاه مسمع رصاصهم وقد كان وتشتتوا وقد علم أن عدد القتلى والجرحى منا فى هذا اليوم هم ثلاثة قتلوا وثلاثة جرحوا وأما منهم فما علم خلاف ثمانية والخيال الذى أوضحنا ذكره ولا نشعر به أن ربما وأن يكون قتل منهم مقدار وآخر لأن فعل الكروب والساروخ وكذا الرمنتون[1] شيء فيما لا يخفى على العموم وإنما السبب الوحيد فى عدم المعلومية بمقدارهم هو بعدهم فى البر الشرقى واختفائهم بالأشجار وهو الأمر الذى يتعسر علينا تحقيقه خوفاً من الدخول فى الغابة واعطاء عدونا فرصة الافتراس بنا .

فى يوم الثلاث المبارك ٢٣ أكتوبر سنة ٨٢ الساعة ١٢ عربى صباحاً قمنا من نقطة البلياب حاملين مياه يومين للرهد وبعد مسيرنا بمسافة ساعة ونصف واقترابنا من محل عالى قد نظر العدو على بعد ألفين متر أتيا يلدر بنا [فصبر] سعادة الجنرال هكس باشا حتى صار الجيش والحملة جميعها فوق التل وأمر بتوجيه مدفع كروب إليهم وانتظر مسافة نصف ساعة حتى أن صاروا مستعدين وأعطى الأمر بضرب المدافع وقد كان وضرب واحد وعشرون مدفع كروب على أبعاد مختلفة فأصاب منهم أربعة مدافع فالأول منهم كان على بعد ثلاثة آلاف متر وقد صادف وقوعه

(١) مدفع الرمنجتون .

في وسط جمعية مؤلفة من تقريباً ثلاثون لأربعون شخصاً فمات منهم قليل كما نظر ذلك بالنظارات العظام فأخذوا يموجون مراراً لجهتى اليمين والشمال فأتتهم جلة من الجهة اليسرى ثم أخرى من الجهة اليمنى فرجعوا خلف طريقهم راححين بخيولهم ثم مكثنا قليل من عشرة دقائق بدون ضرب فأتوا لأخذ قتلاهم ونحن نراهم على بعد المسافة المذكورة بالنسبة لارتفاع التل ثم أطلق عليهم كم جلة أخرى فتشتتوا داخل الغابة والبوص ثم أمر سعادة الجنرال هكس باشا بالسير فسرنا مسافة نصف ساعة ونزلنا فى الواطى وإذا على بعد سمعنا ضرب نعارة[١] من الجهة اليمنى أمامنا فعلمنا القصد منها تجمعهم ولم يمضى زمن ساعة تقريباً إلا واشتغل الضرب علينا من ثلاثة أضلاع القلعة ونحن سايرين بهيئة قلعة كالمعتاد وكان قد تعين حسن أفندى شوقى البكباشى بأورطة من البيادة ليحفظ خلفنا من هجوم العدو البالغ أثرنا ولقد ظهر من حضرته ما يوجبنا لتقديم الشكر له حيث بذل كامل جهده فى حفظ جمال الحملة والضلع الرابع من القلعة مستمراً بالضرب على الأشقياء حيث كانوا يقتربون إليه لمسافة مائة وخمسون متر تقريباً وصرنا فى مناوشة جسيمة طول سيرنا وكنا نسير نصف ساعة ونقف بعض دقائق من شدة هذه المناوشة لحين وصولنا لنقطة أودية وكان جميع المناظرين بالنظارات يوكدوا لنا وقوع كثير من العربان مقتولين من على كامل ثلاثة أضلاع القلعة وفى بعض الأوقات حين ما ترى شدة ضربهم علينا كان سعادة الجنرال هكس باشا يأمر بضرب مدافع الجبلى عليهم وعند وصولنا للنقطة المذكورة تعسكرنا بها بعد إعمال الزريبة اللازمة كالمعتاد حيث كانت الساعة ٨ ونصف عربى وصرنا جميعاً فرحين فى هذا اليوم ممتعين بأخذ ثأر من قتل منا فى عهد قيامنا من الدويم لحد هنا ولابد أن منذ ذلك يحصل لعموم عسكرنا مزيد من النشاط وصرف ما عندهم من الوهم لملاقاة العربان المدعين المهدوية وفيما يلزمهم دوام الاستيقاظ غير مبالين بما يكون عددهم عالمين بحركاتهم المريبة وأنه مع كثرة رصاصهم علينا فلم يقتل منا سوى واحد وجرح ثلاثة

---

(١) طبلة الحرب .

وحصان وحمار ولله الحمد على ذلك وأما من قتل منهم فقتل من حقق بالنظر العين من مايه ثمانية وخمسون وقد اتسع الضرب علينا الساعة ١٠ ونصف عربى نهاراً وعلمنا أن القيام سيكون باكر تاريخه لحور الرهدة وهناك يصير عمل الاستحكام القوى وجعاه نقطة عسكرية لوجود كثرة المياه به كما قيل من الخبرا ومن الشيخ أده الذى هو من مشايخ عربان الهيائين الموجود معنا

فى يوم الأربع المبارك ٢٤ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١ عربى نهاراً قمنا من نقطة أودية قاصدين الرهد وقبل قيامنا بنصف ساعة وجدت إعلانات كثيرة بدائرة الزريبة وكان صار وضعهم ليلا من العربان الأشقياء المقتفين أثرنا على بعد مايه ومائتين متر يريدون بذلك تخويفنا وأن نؤمن بينهم الشقى محمد أحمد والرجوع عما نقصد فعله معهم ولقد صار جمع هذه الإعلانات المذكورة من خارج الزريبة وهم ينوفوا على المائة وكسور إعلان وأحضروهم لطرف سعادة الجنرال هكس باشا وسعادة الحكمدار وبعد مطالعتهم قد أقروا بحرقهم وبالنسبة لعجيب الألفاظ المكتوبة بهم قد صار أخذ صورة أحدهم حرفياً لمدرجه بهذا الكتاب وها هو الإعلان المذكور بحروفه

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن الفقير المعتصم بمولاه محمد المهدى ابن السيد عبد الله إلى من يسمع من أهل الجردة[1] ممن له عقل فإنه لا يخفى على ذى عقل أن الأمر بيد الله لا يشاركه فى ذلك بنادق ولا مدافع ولا صواريخ ولا عصمة لأحد إلا عصمة الله فإذا فهمتم ذلك فاعلموا أن الله واحد ولا تغتروا بأسلحتكم ولا بجموعكم التى تريدون أن تقاتلون بها جنود الله فإنه لا قوة لشىء دون الله وإن قلتم أن مهديتنا مكذوبة فاعلموا أن التكذيب إنما يصدر ممن يحب الدنيا ويخاف من المخلوق ويستعجز قدرة الله فإذا فهمتم ذلك فلا تغرنكم أقوال علمائكم فإن الترك الذين تقلدتهم شكوا للحق عز وجل وقالوا إلهنا ومولانا أن المهدى قتلنا من غير إنذار فأقول أنذرتهم يا رب فلم يستمعوا وحضر على ذلك شاهد بعد

---

(١) يقصد التجريدة .

قول علمائكم فذنبكم عليكم فاقبلوا على بعضهم بعضا يتلاومون فقال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين فإن كان لكم نور تؤمنون بالله ورسوله وتصدقون بمهديتنا وتخرجوا إلينا مسلمين ومن سلم يسلم وإن أبيتم إلا الجحود والاغترار بالمدافع والبارود فأنتم مقتولون كما أخبر سيد الوجود وأسوتكم بمن سبقكم من الجنود والسلام . ١٩ الحجة سنة ٣٠٠

وقد يتلاحظ من ذلك تهديدهم لنا علماً بما قاسوه من رصاصنا يوم أمس تاريخه ومدافعنا الكروب ومن المحقق أننا لا نخشى بأسهم ولا نؤمن بنبيهم الكذاب وما حملهم على كتابة هذه الإعلانات إلا لعلمهم تركيب القوة الموجودة معنا وقصرهم عن تقديم حجتهم للخلوص من رزايانا وليس نحن من يدخلهم الخوف من تهديداتهم هذه وأما إذا كان مقصدهم أعمال الحيل لدخولهم تحت طاعتنا خوفاً مما يلاقونه من أشد العذاب فلا لزوم لتكليف خاطرهم بكتابة أباطيل كهذه وما عليهم سوى تقديم أنفسهم وعفا الله عما سلف والأغرب من ذلك أنه مع إصابة كثيراً منهم يومين تاريخه فلا يمحق من أذهانهم ما كتبه هذا الملعون على قلوبهم حتى يأتونا طائعين ثم وبأثناء سيرنا مررنا على حلال كبير إذ كان فى مواجهة الجيش دخله كثير من عساكر السوارى والباشبوزق ووجدوا جواب أصله وارد من الشقى الكذاب فى شهر ربيع آخر سنة ٣٠٠ بعد أخذ بندر ومديرية كردفان لبعض من المشايخ يطلب منهم جميع ما نهبوه من كردفان وحضوره إليه وبما أن هذا الجواب مما يلزمنا حفظه بهذا الكتاب نظراً لما فيه من الملحوظات الكاذبة فالتزمنا بأخذ صورته هنا حرفياً وها هى

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم — وبعد فمن عبد ربه محمد المهدى بن السيد عبد الله إلى أحبابه فى الله خصوصاً أولاد أم سريرة والنوايبة والحاميد وأولاد محمد والمعالية والهبانية وسائر المجاهدين مع الشيخ ماديو — أما بعد أيها الأحباب إن أكرمكم عند الله أتقاكم وقال تعالى ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ونحن يوم أكرمنا الله وأعزنا بالإسلام فلا نطلب

العزة فى غيره وها أنا أراكم قد توانيتم عن الجهاد فى سبيل الله وهربتم بالغنايم التى هى نار الله الموقدة وإنما هربتم بالجمر والفقر والعقارب والحيات وأبدلتم الحسنات بالسيئات فاحذروا أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فإنه يخسف الله بكم الأرض أو يرسل عليكم الصواعق أو تذيق بعضكم بأس أو يمزقكم كل ممزق ومع ذلك أنتم تعلمون ما جرى على الترك بتسليمهم ثوب الملك والهيبة وكل ذلك لتعديهم حدود الله فانظروا الآن كيف صاروا عندكم ومكنكم من نواصيهم وأورثكم أرضهم وديارهم ومتعكم فى النظر إلى ما كان محجوباً عنكم فاشكروا نعمة الله عليكم فإن النعم حسنة قيدوها بالشكر فإنها لا زوال لها مع الشكر لا بقاء لها مع المنكر ومع ظلم الترك وطلبهم الجزية التى لم يأمرهم الله بها ولا رسوله كنتم سامعين طايعين منقادين لأمرهم حيث ما أمر فكيف الآن أظهرنا الله إليكم من جود فضله إلا توافقوا على إقامة الدين وهلاك القوم المشركين وإنما بسطت لكم هذا كله لأجل ما بلغنى عنكم أنكم . . . . أتيهم الحياة الدنيا على الآخرة وأحببتم جمع الغنائم طمعاً فى الدنيا التى لا تساوى عند الله جناح بعوضة كما قال صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقى الكافر منها جرعة (شربة) ماء وحيث فهمتم ذلك فمن كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر وصدق بأنى المهدى المنتظر فليسلم كل ما عنده وتحت يده من الغنايم المضرة من نقود ورقيق وخيول وأسلحة وغيرهم وحاصله إذا انتبهتم ورجعتم وسلمتم ما عندكم من الغنايم فقد سامحناكم وعسى الله أن يعفو عنكم وتكونوا من جملة أنصار دين الله وإلا فقد بؤتم بغضب من الله ورسوله ثم غضبنا وسيحل ما حل بغيركم فضلا عن دخولكم فى وعيد قوله تعالى ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة سيما قد أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم أن من أخذ شيئاً من الغنيمة فإنه يقتل وإنه حيث ما كان يراه صلى الله عليه وسلم فيقتله وحيث علمتم أحبابى فأذكر فما بعد هذا الإنذار إلا الفوات فإن لم تستمعوا ما أمرتكم به فأذنوا بحرب من الله ورسوله أو سيحوا فى الأرض فسلاسل القدرة فى أعناقكم حيث ما توجهتم ونواصيكم فى القبضة بإذن الله تعالى فإنكم تعلمون أن معى من جنود الله من لا قبل لكم بها فسيفعلون فيكم ما فعلوه فى غيركم

من المخالفين والسلام .

١١ ربيع آخر سنة ١٣٠٠ محل الختم حاشية وكذلك لعرض هذا لمحمد الأعسير ويلزم له الكبير أجرى العمل به يعنى يتسلم كل ما عنده من الغنيمة للشيخ [ماديو] من الأنصار وبعد تسليمكم للشيخ ماديو المذكور فكل من سلمه شيء مما ذكر فيوضحه فى ورقة ويرسل للنظر فيهم وإجراء العمل بموجبهم والسلام . تاريخه

[الصلح] الأول بسم الله الرحمن الرحيم الثانى لا إله إلا الله الثالث محمد رسول الله الرابع التاريخ ١٢٩٩ وفى الحضرة محمد المهدى ابن عبد الله .

وكانت المناوشة فى هذا اليوم كمناوشة أمس تاريخه وقتل منهم كثير وأما منا فلم يجرح سوى اثنين ومات واحد واستمرت هذه المناوشة إلى أن وصلنا لخور الرهد وهناك تعسكرنا وعملت الزريبة اللازمة كالمعتاد وأما الخور فلم توجد به المياه بالصفة التى تبالغت لنا من قبل بل وجدت الحشايش بكثرة واتساعه تقريباً من ألف متر عرض وطول فلا يعلم والمياه الموجودة به هى ببعض حفر وتستحيل الاكتفاء منها ما لم يصير أعمال محل كحفرة متسعة بعد نظافة الحشايش منها وطرق صغيرة من جميع جهاتها كى بها توصل المياه للحفرة المذكورة ومنها تؤخذ المياه وقد قيل إن هذا الخور يملأ سنوياً وعدم ملوه فى هذه السنة هو بالنسبة لعدم كثرة الأمطار ومع ذلك فلله الحمد على وجود ما وجد به بالنسبة لما لنا من احتياج إليها ولحد الآن الساعة ١٢ غروباً فلم نعلم ما هو التصميم على جعل هذه نقطة عسكر ولعل وعسى أن يختلف الرأى نظراً لبعد المسافة للأبيض وعدم وجود مياه هنا كافية فيما لو تركناها بالعساكر وما لا يلزم من [عدسات] وجمال وغيره إذا لأوفق هو تقدمنا بهيئتنا الحالية لجهة المليس وهناك يستحسن عمل الاستحكام القوى بنقطة عسكرية كافية لأنها لا تبعد عن الأبيض زيادة عن مسافة يوم وأما هنا فلا يكفى ستة أيام وإذا حصل التصميم على هنا وهو الرهد فما كيفية المواصلة معه بعد تقدمنا مع علمنا بوجود الأشقياء بكل الطرق وهل نؤمن الطريق بوجودها ونحن آمنين عليها من غدرات عدونا ولا نخشى استهزائه بها وفضلا عن إعدامهم ووجودهم بلا فائدة فى الوقت الراهن فإن ذلك

تضعيف فى قوتنا المزعزع بها هذه الجهات ومع ذلك فسنرى ما يتفق عليه الحال باكر تاريخه الذى هو يوم الخميس ٢٥ أكتوبر سنة ٨٣ ووصولنا فى الساعة ٨ ونصف عربى

فى يوم الخميس المبارك ٢٥ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ٣ ونصف عربى صباحاً حضر بطرفى حضرة الكواونيل فركهار وحصلت المذاكرة بيننا بشأن نقطة الرهد فأوضح أفكاره بأن لا يصح إجعال هذه نقطة عسكرية لأن المسافة بعيدة للأبيض وإن جعلها هنا لا ينتج منه سوى تضعيف قوتنا وأنه إذا كان ولابد يلزم أن تكون بالملبس الذى هى قريبة جداً وموجود بها مياه بكثرة كما قيل فأخبرته بأنه لحد الآن لم يحصل اتفاق وفقط هذا كان حصل التكلم فيه ونحن داخل الغابة ولعل أن ترجع أفكارهم لرفض هذا المحل وبعد المذاكرة قام لخيمته وفى الساعة ٤ ونصف عربى قد تحقق على بعد ثلاثة آلاف متر جمعية العرب فى البر الغربى مؤلفة من خمسة عشر نفر تقريباً تاركين للخور واحد بعد واحد واثنين بعد اثنين فتشابه كثيراً من ضباطنا أن لا يخلو من أن يكونوا هؤلاء فحضروا إلينا طائعين ومعهم من يقول إنهم يحضرون لأخذ مياه حيث لم يكن بهذه الجهة خور خلاف هذا فللترجيح قد تنبه من سعادة الحكمدار على أحد الخبرا برفع العلم الأبيض تطميناً لهم متعشمين حضورهم ولمناسبة وجود عساكرنا من داخل الخور لجلب مياههم وتقدم هؤلاء العربان قدم بعد آخر ظننا أنه الباعث فى عدم إمكانهم الحضور بسرعة لربما يكونوا رأوا العساكر الموجودة بالخور وخاشيين بأس الحضور لئلا يصيبهم نارهم فأرسل سعادة الجنرال هكس باشا أحد ضباط أركان حرب المدعو يوسف أفندى الجزايرلى راكباً جواده بتعليمات لهم وهو رافع الإشارة البيضة فى طريقه إليهم ونبه عليهم بعدم ضرب نار عليهم وقد كان وتوجه وبعد نزوله بالخور وتقدمه إليهم حتى صار بينه وبينهم تقريباً منماية وخمسون متر رافعاً لهم الإشارة البيضة وإذ على حين غفلة أطلقوا عليه عيارين نار فروا أحدهم من الجهة اليمنى والآخر من الجهة اليسرى ولله الحمد لم يصبه شيء ورجعوا سالمين خلف ظهورهم وأما هو فلم يطلق عليهم نار بناء على ما أعطى إليه من التعليمات ومن ذلك يرى أنهم

حقيقة حضروا لأخذ مياه بالنسبة لعلو الحشيش كانوا يظنون عدم رؤيتهم ولما استشعروا بقرب هذا الضابط فخوفاً منه أطلقوا عليه الرصاص وفروا هاربين وصرنا من وقتها لغاية الساعة ١١ عربى ونحن فى مناوشات خفيفة معهم وخلافهم من جهات المعسكر وأما فى الساعة ٥ من هذا اليوم رأينا بعض تشغيل حامل بمركز القلعة فى أعمال طابية وبالاستفهام علم أن تكون العزم هو على الإقامة هنا أكم يوم ترأى لسعادة الجنرال هكس باشا أعمال طابية مرتفعة ليوضع فيها مدفعين كروب ومدفعين جبلى حتى لو نظر على بعد جمعية من الأشقياء فعوضاً عن مرور المدافع هنا وهناك وسط المعسكر حالا يضرب من على سطح المعسكر لحصول السهولة وأما المعلوم لنا من كون أنه بعد وصولنا لهذه النقطة أمس تاريخه فعلى حسب سابقة التنبيهات على حضرة وهبى بلك قائمقام أركان حرب يوضع خيمة سعادة الجنرال هكس باشا فى مركز المعسكر مهما كان موقعه مرتفعاً كان أو منخفضاً ـ صار وضع خيمة سعادته بمركز المعسكر حسب السوابق وأعلم سعادته بما سبق من العربان بينما كنا بخور البلياب حين الضرب على القلعة من الغابة قد دعى حضرة البك المومأ له وأخبره بأن وضعك خيمتى بهذه الجهة المرتفعة لا تقصد به إلا إصابتى من العدو ولذلك فإنى أرى الأحسن يصير نقل خيمتى حالا لجهة أخرى وذلك كان فى الساعة ١ عربى ليلا من ليلة الوصول ولمناسبة عدم إمكان نصب الخيام فى الليل حسب أمر سعادته فصار إبقاء هذه المناورة لباكر تاريخه وبقت هذه المسألة موجودة فى ذهن سعادته لحين ما أصبح الصباح [وعوضاً] عن أن ينقل خيمته للمناسبة التى ذكرت حتى بان سوء الظن فى سعادته من الضابطان والعساكر حتى لا يتصوروا أن نقل خيمة سعادته بعد أن بقيت لابد وأن يكون حصل له نوع خوف من إصابته برصاص العدو بالنسبة لارتفاع خيمته داخل المعسكر فأمر بأن من حيث سيصير إقامتنا هنا أكم يوم وهذه النقطة هى مرتفعة فلأجل حفظ المعسكر وعدم حصول اللخبطة فيما لو أتانا العدو على بعد فيقضى أعمال هذا المحل طابية عمومية فى وسط المعسكر لضرورة لزومها وأن لا يرى أدنى مانع من نقل خيمته لجهة أخرى ما دام ترأى لزوم ضرورة هذا المحل وبناء عليه صار

نقل خيمته لمحل واطى خلف الزريبة وعملت الطابية التى داخل مركز المعسكر فى يوم الجمعة المبارك ٢٦ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ٣ ونصف عربى بعد ضرب النفير لخروج الجمال للمرعى فقبل التمكن من خارج الزريبة ما نرى إلا والعربان أطلقوا علينا الرصاص بشدة وكانوا إذ ذاك مختفين بالحشيش على بطونهم فجاوبتهم العساكر الموجودة خارج الزريبة ولم يصاب من عساكر سوى اثنين بجروحات خفيفة وفى الأثنا أيضاً صار ضرب النار علينا من الجهة الغربية من داخل الخور فجاوبتهم العساكر ولم يصاب منا أحد ولمناسبة رؤيتهم على بعد ألفين وثلاثة آلاف متر متجمعين للحضور إلينا قد تنبه بضرب مدفعين كروب عليهم للمسافة المذكورة وقد كان وأصاب منهم مدفع واحد وبالنظارات علم بعد سقوط الجلة فى وسطهم قتل منهم أكم واحد وولوا بعدها هاربين وامتنع ضرب الرصاص من الجهتين حيث كانت الساعة ٣ وربع نهاراً وقد حضر سعادة الجنرال هكس باشا لطرف سعادة الحكمدار وحصلت المذاكرة فقال سعادة الجنرال لسعادة الحكمدار إنه من كون صار وصولنا لهنا فالمتراءى هو إرسال الخبيرى أحمد صبيح بجواب إلى الملك آدم ملك جبال تقلى ونطلب منه حضوره لهنا مع جانب خيالة لمساعدتنا كما أخبرنا بذلك قبل قيامنا من الخرطوم وننتظر وصوله هنا بما أن ذلك ضرورى فأجابه سعادة الحكمدار بأن من خصوص إرسال الخبيرى لملك تقلى فهذا لا يصح مطلقاً لأنه لا يمكن الاستغناء عنه بطرفنا فى الحال وخوفاً من أن العربان يقتلوه وأما الملك آدم فالأحسن أن لا يعتمدوا عليه مطلقاً حيث لا يخفاكم أن الملك المذكور من عهد افتتاح السودان فى وقت المرحوم جنته مكان محمد على باشا إلى الآن وهو خارج عن طاعة الحكومة وكثيراً [ما تلفت] عساكر وضابطان بخصوصه لغاية ما رأت الحكومة تركه على حاله وفقط ربط عليه جلبة مخصوصة يرسلها من طرفه للحكومة سنوياً وفى نظير ذلك جارى إرسال جملة هدايا إليه تساوى زيادة عما هو متحصل منه وما دام أن هذه خصايص الملك من قديم الزمن فبأى كيفية نرتكن عليه فى هذا الوقت الصعب المهم ولربما يتصور فى عقله ضعفنا ويكون من أكبر العصاة فى الوقت الحاضر والمتراءى لنا هو تركه على

ما هو عليه بدون السؤال منه عن أى شىء أما كوننا نفتكر أنه من العاصيين لمحمد أحمد فهذا لا يطمعنا فيه وإذ صدقنا قول الشيخ أده فيما أبداه بخصوصه بأن يريد مقابلتنا حين ما يعلم اقترابنا إليه فلم تكن نقطة أقرب إليه من هذه النقطة وإذا كان له مرام حقيقى وميل لجهتنا فكان حين ما بلغه قيامنا يعرفنا عن الجهة التى يرغب فيها مقابلتنا وإن قلنا أنه لا يعلم أين مستقرنا الآن فهذا غير ممكن لأن الأخبار وعلى الخصوص فى السودان قريبة الوصول وإذا اعتمدنا على صداقة الشيخ أده كون هاجر من أوطانه وحضر إلينا فعلى حسب المسموع لنا هو أن الشيخ أدة المذكور ما هاجر إلا لكون صار رفعه من شياخة الهبانيين وتنصيب شيخ بدله ولو لم تكن القبيلة مبسوطة منه فكان لا أقله حضر أحد أقربائه أو أحد إخوانه ليسألون عنه ما دام فى علمهم الأكيد أنه حضر مع الجيش وإنما يا سعادة الجنرال أن الشيخ أده هذا ما حضر إلا طامعاً فى أن ترجعه لمنصبه الأصلى وهى الشياخة وأن فائدة الخطاب السابق إرساله ونحن بالدويم لملك تقلى حجة رفيق الشيخ أده المذكور فهذه أفكارى بخصوصه أما إذا كان ما زال متراءى إرسال من يلزم للملك المذكور فلا مانع من أن يبحث على من يمكنه الوصول المخابرة إليه لا عن الشيخ أحمد صبيح الخبير لشدة احتياجنا إليه وقد طالت المباحثة بشأن ذلك وانتهت على العرف وحصلت المذاكرة بعدها عن الطريق الأسهل التى سيمر الجيش فيها لجهة الأبيض فاستقر الرأى على قيام الجيش من هنا بعد باكر تاريخه الذى هو يوم الأحد لجهة علوبة بمياه يومين ومنها لجهة كازقيل مياه يومين أيضاً ثم منها لجهة المليس وهناك يومين القول الأخير عن أعمال النقطة اللازمة لحفظ النقطة [وتقوم الأبيض عنه تعالى] وفى الساعة ٩ وثلث عربى نهاراً دعانى سعادة الحكمدار وأخبرنى بالتوجه لطرف سعادة الجنرال هكس باشا وأخذ أفكاره عن أنه من حيث تراءى لسعادته أننا وصلنا لهذه الجهة التى كان يبلغنا عنها قولا بأن الرهد هو مستقرب للأبيض فلا يخلو الحال من وجود من يعطينا خبر الشقى وأعوانه بكردفان وفضلا عن ذلك فلا يصادفنا سوى وجود جمعية من الأشقياء تابعين أثرنا ليلا ونهاراً أو من هذا يتضح أن هؤلاء أعوانه الحقيقيين وما أرسلهم لمعاكساتنا إلا تصوراً منه لمنع من

يأتنا طائعين من عربان وخلافه وبهذا الواسطة فقد فاز لهذا الغرض وانحرمنا من وقوعنا على الأخبار الحقيقية فمع جسامة هذا الجيش العظيم بعد وصوله لجهة كهذه بدون أن تجعل الوسايط الموجبة لضبط أكم شقى من التابعين أثرنا ما داموا قاطعين طريق العربان إلينا للاستفسار منهم عن من هم هؤلاء العربان وما كيفية أحوال الأبيض وما هى إجراءات الشقى لنقف على حقيقته دون أن نقوم على غير بصيرة خصوصاً وأننا صرنا قريبين منه وآخر ما فى وسعنا من الاحتراسات اللازمة تعيين أورطة أو أكثر للقيام من هنا ليلا والتوجه لأحد الحلالات المجاورة لنا هنا والهجوم عليهم ليلا ولعل وعسى أن يأتوا إلينا بأكم شقى للوقوف منهم عما ذكر بعد أن يرى بالنضارات جهة اقترابهم وبيمنه تعالى يحصل المقصود فطبقاً لأمر سعادته قمت مسروراً من هذه الأفكار قاصداً سعادة الجنرال هكس باشا وبإيضاح هذه المسألة ما دار فى أن كان يتكلم بهذا الموضوع مع حضرة الكولونيل فركهار وأن هذا رأى سديد فأجبته بأن هذا دليل على حسن العاقبة إذ الغاية الوحيدة هى الرسيان على أحوال الشقى فأجبنى بأن اجتمعا عليه ذلك كونه متحد الفكر من هذا الأمر وفقط يعسر عليه هذا الأمر لعدم علمه عما إذا كان فى إمكانه هذا لأى العساكر أجرى ذلك لأن هذه هى أول مرة قد تشرفت بأن أكون قائداً عمومياً للجيش المصرى خادما له بصداقة ومنذ ذلك فلا أكون مخفياً عن أطوارهم وأخلاقهم لإجراءات حربية ليلا كهذه وإنى أقول لك إنه إذا كان هؤلاء عساكرى (يقصد بذلك الإنكليز) فكنت أعين منهم فرقة مخصوصة سراً ولا أعلمها عما هو الغرض إلا عند خروجها خارجاً بمائتين متر تقريباً وإنى وإن كنت متفكراً فى ذلك قبل حضورك بربع ساعة فسأرسل لسعادة حسين باشا مظهر وأتذكر معه فى هذا الخصوص لأنه هو أدرى بحالة الجيش والعساكر زيادة عنى ومن الآن أقول إن سعادة حسين باشا مظهر موافق على ذلك إنما يكون بهيئة قلعة وهذا لا يصح ليلا ولا ينتج منه فائدة خوفاً من فرارهم بدون تمكن أحد منهم وإنه وإن كان ولابد فلا طريقة سوى تعيين أورطتين ويكونوا بهيئة طابور بدون أن يهيصوا ببعضهم ويهيجوا على أحد

---

(١) القرى .

الحلالات سراً ولابد من أكم واحد لضبطهم وحضورهم إلينا فتشكرت لسعادته وعدت مخبرا سعادة الحكمدار بما حصل واتمد وعد سعادته بأن بعد المذاكرة مع سعادة حسين باشا مظهر يرسله لطرف سعادة الحكمدار لتفهمه ما يتراءى لسعادته زيادة عن ذلك

فى يوم السبت المبارك ٢٧ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١١ عربى صباحاً علمنا قيام آلاى ومعه جانب خيالة تحت قيادة سعادة حسين باشا مظهر بجهة الحلالات لضبط ما يمكن ضبطه فعاد فى الساعة ٣ ونصف وأوضح على أنه لم يرى أحداً مطلقاً بطريقه ولا استشعر بوجود عربان قط فاستغرب غاية الاستغراب من أن هذا هو يظهر مقصود سعادة الحكمدار لأن مستحيل التمكن من ضبط أحد بهذا الطريق إذ لو كان يمكن لكنا ضبطنا آلاف من جهة قيامنا من الدويم لحد هنا ما علمنا كيف كان هذا الفكر وإنما بلغنا أن حين ما عملت المذاكرة مع حسين باشا مظهر تورى من سعادته إمكانه الخروج ليلا بهذه الصفة خوفاً من أن تكون لربما موجود عدد وافر من العربان بجهة واحدة ولشدة الظلام يخشى من حصول تلفيات زيادة عما يتصور ولا يصح القيام بهيئة خلاف قلعة وإنه إذا كان ولابد فلا مانع من قيامه باكر صباحاً ولعل أن تحصل المقصود وبناء عليه انصرفت المسألة على ذلك وقام وعاد بلا شيء وفى الساعة ١ عربى ليلا حضر سعادة الجنرال هكس باشا بطرف سعادة الحكمدار وحصلت المذاكرة بشأن ما هو لازم فتفضل سعادة الحكمدار فخاطب سعادة هكس باشا بأن وأنه كان لنا اعتماد كلى على حضرات الضابطان

لكن المترائى لى هو أن من كون هيئتنا الحاضرة تقضى بزيادة الاحتراس فعلى سعادتكم تعيين اثنين من ضباط أركان حرب الإنكليز ليطوفوا ليلا بدائرة الزريبة من الداخل لتفقد أحوال العساكر هل هم على هيئة الاستعداد كما نعلم أم ما هى أحوالهم وأحوال ضباطهم خصوصاً كوننا قربنا لمحل الوصول وإن ذلك لا يكون سبباً فى عدم راحة الضباط الإنكليز فقط من باب [التخويف] لعساكرنا وضباطهم حيث لو علموا أن سعادتكم عينتم عليهم مراقبين فى أثناء الليل فلا شك فى بذل غاية جهدهم زيادة عما هم عليه وأكدوا على الضباط

الإنكليز أنهم لا يظنوا أن هذه المأمورية متعبة لهم ما دام لم يبقى علينا سوى ستة أيام لوصولنا ومن ذلك يحصل لنا مزيد الراحة ، ثانياً إنى أرى عدم اللزوم فى اتساع الزريبة وكلما ضاقت نتجت فايدتها زيادة أى يحوجنا عن جعل العساكر صفين يكونوا على ثلاثة وهكذا ترى الفائدة ، ثالثاً أنى أرى فى الوقت الحاضر غير ممكن جعل اللازم من صنف البقسماط فهل مع وجودنا ومرورنا فى وسط المزروعات[لماذا عدم استلامهم] على البقسماط ويكتفوا بأكل الذرة والدخن وغيره كما يفعلوا الآن إذ لا يصح مع وجود كامل هذه الأصناف ولله الحمد استعمال البقسماط أيضاً ويلزم من ضباطهم حسن الإدارة فبذلك ويتعقلوا ماذا يكون العمل لو ينتهى البقسماط ومصادفه لعدم وجود مزروعات كهذه فأرجو شدة التأكيد عليهم بأعمال الوفر اللازم فى هذا الوقت وإنى فى غاية الممنونية فيما بلغنى يوم تاريخه من حسين باشا مظهر أن أحد الضابطان المدعو أحمد أفندى خنجى قد أظهر زيادة اعتنائه فى حسن إدارة بلوكه حتى ألزمهم بأكل الذرة والدخن والفول والفاصولية والاستغناء عن البقسماط لحفظه عند ضرورته فى المستقبل ولذلك فقد وفر بحسب اعتراف اليوزباشى . . . . . تعيين ستة وعشرون يوم مثل ذلك يستحق مكافئته بزيادة الشرف وترقيته لرتبة البكباشى أنموذج لباقى الضابطان ، فأجاب سعادته بالقبول وأوعد بترقيته للدرجة التى رغبها سعادته وبعد المذاكرة قام لمحله ولقد دعى سعادة الحكمدار هذا اليوزباشى للتأكيد منه عما فعله ليرسله لسعادة هكس باشا لينال هذا الشرف العظيم وبحضوره استفهم منه قال بأنه لم يأذن بصرف البقسماط لما رأى كافة العساكر يأكلون الذرة والدخن وخلافهم من مزروعات الأهالى التى هى بطريقهم ولعلمه بعدم انتظام الحال ولربما يأخذ زمن لحضور البقسماط من الخرطوم أجرى هذه الطريقة حتى لوقت الضرورة وشدة الاحتياج الأمر الذى تستصعب حصوله يكون فايز عن أمثاله ويكون أيضاً ممن لا ثانى له فى هذه المأمورية فانسر سعادته من ذلك وبشره بالترقية لرتبة البكباشى وأرسله لسعادة هكس باشا وبعد الاستفهام منه عما ذكر وعلمته بأنه بترقيته البكباشى من هذه الليلة وهى ليلة الأحد المبارك وتوجه لمحله داعياً لسعادتهما على ذلك وصرنا نؤمل حصول

الاهتمام من الآخرين لينالوا حسن هذا الالتفات وبمشيئته تعالى ونقوم باكر تاريخه للبر الغربى من الخور ونقيم به ليلة واحدة لأخذ المياه الكفاية والتوجه بسلامة الله لجهة علوبة الطريق الذى حصل التصميم عليها ولقد انقطع ضرب النار علينا من الأشقياء يوم تاريخه ويوم أمس تاريخه ولم يتظاهر حولنا أدنى أحداً منهم وفضلا عن عدم معاكستنا فى هذين اليومين قد انشغلت أفكارنا لمعرفة السبب الموجب لذلك لعدم خلو هذا الأمر من سبب حقيقى .

فى يوم الأحد المبارك ٢٨ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١ صباحاً قمنا من نقطة الرهد قاصدين البر الغربى منه كما حصل الاتفاق وبعد مسيرنا بنصف ساعة والخروج من الزريبة قد أطلقوا علينا رصاص واحدة بعد الأخرى وعددهم تقريباً لا يزيد عن العشرة عربان ولم يحصل لأحد من الجيش أدنى إصابة وعادوا يعاكسونا أثناء سيرنا مسافة ساعة ونصف بدون أن نلتفت إليهم وما برحنا من داخل الخور إلا وأقبل علينا الحبيرى أحمد صبيح وثلاثة أربعة خيالة أخر من جماعتنا مخبرين بغاية الفرح والسرور أنهم رأوا على بعد مائتين متر أحد مشايخ العربان راكباً جواده ولما رآهم وحقق أنهم من الجيش المصرى أخبرهم بأنه يطلب الأمان وطايع للحكومة هو وعربانه وأنه حضر المرار منذ ثلاثة أيام لتقديم طاعته ولاستمرار ضرب النار منا لم أمكنه الوصول إلينا فأخبروه بالحضور معهم ليوصلوه لسعادة الحكمدار وأعطوا له أمان الله ورسوله وأمان الحكومة وسعادة الحكمدار ، فلما سمع ذلك أوعدهم بأنه سيتوجه لتفهيم عربانه المقيمين بهذا الحلال وأشار إليه بعيداً بألفين متر عنه ويحضر معهم ، فدخلت هذه الحيلة عليهم وتركوه راجعاً إلى عربانه وأتوهم مبشرين بذلك ، فانسر سعادة الحكمدار وسعادة الجنرال هكس باشا وجميع الحاضرين وأمرسعادته بوقوف القلعة مقداراً من الدقايق لحين حضور هذا الشيخ وعربانه ولما لم يحضروا بعد هذه المدة قد أمر سعادته بالسير وتوجه جماعة من الشايقية والباشبوزق لجهة الحلال التى أشار عنها هذا الملعون فحصروه ولما اقتربوا على بعد خمسمائة متر وجدوهم عبارة عن أربعين خيال ومن ستين لسبعين قرابة فنادوا عليهم أنهم محضرين مخصوص من قبل الحكمدار ليوصلوهم فى أمان فجالوا بخيولهم تارة يبعدوا وتارة يتأخروا حتى اقتربوا

إلى العساكر جماعتنا بمائتين متر تقريباً وعلى حين غفلة أطلقوا عليهم النيران فأسرعوا عساكرنا بالرجوع خلف بخيولهم وأتوا إلينا راجعين ظانين بأنهم مقتفين أثرهم ولله الحمد لم يصاب منهم أحد وعلمنا أن هذه الحيلة من أعظم الحيل وأن السبب والفطنة الأكيدة منذ ذلك هو أن هذا الشيخ المذكور وعربانه تابعين لمحمد أحمد الشقى وما حضر إلا لعلمه بأن الشقى الملعون أرسل فرقة من من الأبيض لانضمامها مع الموجودين خلفنا بناء على طلبهم حين ما أفهموه بأن الحكومة المصرية هى كثيرة الغدر وبذلك لا يمكنهم المقاومة فرغبوا منه إرسال فرقة جديدة من هناك ليستمروا فى معاكستنا وكان هذا الشيخ عالماً بها ، وبناء على تعريف من الشقى محمد أحمد قد استعد بعربانه لانضمامه معهم ولما استشعروا بمرور جيشنا ظن أنه هؤلاء هم المحضرين من الأبيض فحضر مسرعاً بجواده إليهم ومن سوء ظنه رآهم عساكرنا الكشافة بخيولهم قريبين منه فحرصاً لحياته قد اخترع حيلة كونه قادماً مخصوص لتقديم طاعته للحكومة مع عربانه ومن كثافة عقل عساكرنا الكشافة صدقوه فيما أبداه لهم هذا الخاين وعشمهم برجوعه وجلب عربانه معهم فدخلهم غفلة تدبيره ومكنوه من فرصة الخلاص من الهلاك وأقدموا علينا مبشرين بما حصل فهل لم يعلموا أنه إذا كان مقصده الحقيقى الطاعة للحكومة فلا شيء يحوجه للرجوع وتفهيم عربانه مع العلم بأنه شيخهم غير عاصيين أمره وأن حضوره بمفرده بقصد الطاعة وتفهيمهم بأن عربانه هنا قريبين فيما يدل على أن عمومهم طايع وما حضر إلا علماً برضاهم فكيف دخلت عليهم غفلة كونه راجعاً لحضورهم وما المانع لحضوره أولا لطرف سعادة الحكمدار وبعد قبول طاعته يؤذن بإرسال من يلزم لجلب عربانه أو تأمينهم بمحلاتهم وإنى أقول أن تمكن هذه الحيلة مع كثافة عقول من ألقيت عليهم هذه الصورة ما هو إلا بإرادة من البارى بطول أجل هذا الملعون وبعد استمرار الجيش فى السير مسافة نصف ساعة وطلوعنا فوق قطعة أرض مرتفعة بجانب الخور بالبر الغربى (المحل الذى نقصد التعسكر به) رأينا كثيراً من العربان خيالة بالبر الشرقى داخل زريبتنا الأصلية واستمرت المعاكسة بضرب النار علينا من كل مكان بالخور وبتحقيقهم بالنظارات وجدناهم

كثيرين منتشرين بالبر الشرقى داخل وخارج زريبتنا وتحت الأشجار يجولون بخيولهم طالعين ونازلين بالخور لأخذ المياه فأصر سعادة الجنرال هكس باشا بضرب أكم مدفع كروب على بعد ألفين وألفين وخمسماية متر وضرب عليهم ستة مدافع كروب وكنا نراهم بالنظارات بالبر الشرقى يموجون بخيولهم ولم يزالوا يطلعوا علينا من بعد ولما أن أعطيت الأوامر بإعمال الزريبة للمعسكر قد رأيناهم زادوا عن الأول بكثير وليس هم الذين دواماً تابعين أثرنا بل هذه فرقة مستجدة كانت محضرة للهجوم علينا وتصادف فى ذاك الحين خروجنا من الزريبة ونزولنا بالخور للتعدية للبر الغربى الأمر الذى ياليته جري حتى كنا نذيقهم نارنا فى هذا الصباح والذين يثبت كونهم مستجدين هو أولا سرعة نزولهم للخور لشرب خيولهم عند وصولهم للمياه ــ الثانى أن هؤلاء كانت ملابسهم بيضة نظيفة وأغلبهم متظللين بالشماس وعلى رؤوسهم طرابيش حمرة متقلدين بالسيوف الفضة والحراب وخيولهم بغاية الصحة وعلى ظهورهم الفرو النضاف وغيرنا من رأى بعضهم لابسين ستر وبنطلونات وهذا هو الأمر الذى يعجبنا غاية العجب من أن التابعين للشقى هم الدراويش فقط كما كان يبلغنا وبعد وجدناهم بخلاف نعم إننا لا نخشى بأسهم فقط مما يؤكد لنا أن موجود من يعين هذا الملعون خلاف الدراويش ممن هم من قديم الزمن مغمورين بخيرات الحكومة ومتشرفين بالشرف العالى من الحضرة الخديوية ولما أن تحقق جموعهم بهذه الكيفية لسعادة الجنرال هكس باشا أمر بإطلاق المدافع لمسافة البر الشرقى. وقد كان واستمر ضرب المدافع الكروب الجبلى مسافة نصف ساعة وشاهدناهم على بعد متفرتكين وكنا نرى بعضاً من الخيول بدون راكب من عزم قوة المدافع وحققنا أن ضرورة لابد وأن يكون قد فقد منهم كثير . وأما رصاصهم المضروب علينا فلبعد المسافة كما قلنا لم يصب منا سوى ثلاثة ــ واحد قتل واثنين جرحا فحمداً لله على ذلك . وامتنع الضرب منا ومنهم حيث كانت الساعة ٧ عربى نهاراً . وكان قبل ذلك فى الساعة خمسة وصار ضبط اثنين من الأشقياء

وقتل اثنين آخرين من العرابة وبحضورهم والاستفهام منهم عما لزم أوروا بأنهم من قبيلة أحمد ولد كنونة وأن شيخهم وهو الذى فعل حيلة الصباح علينا

بأنه طايع ورجع لجلب عربانه ولم يعد للآن كما أوضحت قبل هذا هو أنه نبه عليهم بالانضمام للاشتباك لضرب الترك وأن هؤلاء الأربعة كانوا منفردين بعيداً وما يشعروا إلا وهجمت عليهم العساكر الباشبوزق وحضرة الكولونيل فركهار ولما فروا لحقهم الباشبوزق وقتلوا منهم اثنين وأسروا واحد وأما الرابع فكان بحربة يحاول قتل الكولونيل المومى إليه فضربه بفردة طبنجة أصابته فى فخذه وفى الحال سقط وكان كل واحد منهم بيده ثلاث حربات اثنين صغار طول ثلاثة أمتار والثالثة طول خمسة أمتار ولم يمت فأحضره حضرة الكولونيل وصار هو الثانى وبالاستفهامات أورى بأنه منذ ثلاثة أيام يعنى بذلك يوم الجمعة حضر واحد فلكى من الأبيض وعرفهم أن الإمام (وهو الشقى) سيحضر بجيوشه لمقاتلة الجردة المصرية[١] بالرهد هذا ثم حضر آخر يوم من تاريخه وعرف أن الإمام (الشقى) عصا عن أن يحضر الآن ويترك الأبيض وقد عين فرقة خيالة لانضمامها مع الفرقة الموجودة لمعاكستنا يومياً وسيحضروا هنا يوم تاريخه وهى الفرقة التى حضرت يوم تاريخه بالبر الشرقى لقصد معاكسة الجيش لحين وصولنا [بلازم] وهناك بنفسه وجيوشه سيتقابل الجيشين للحرب ولقد دعا كافة العربان للحضور بالأبيض وأغلبهم موجود هناك الآن منتظرين وصول هذه الجردة ولكثرة كلامهم وتلونهم فى الأقوال كونهم من الدراويش المعتقدين بالشقى فلا كان يوجد منهم معلوميات خلاف هذا ولقد طمس على قلوبهم هذا الملعون حتى صاروا يعبدونه من دون الله والعياذ بالله ، وفى الساعة ١ ليلا حضر سعادة الجنرال هكس باشا بطرف سعادة أفندى الحكمدار للمذاكرة فيما هو لازم فلعلم سعادته بما رآه من استجداد وتجمع هؤلاء الأشقياء يوم تاريخه قد أخذ سعادة هكس باشا بأن المترأى هو إقامة الجيش هنا باكر تاريخه ننتظر ما هى مقاصد هذه الفرقة الأشقيا المستجدة فى هذا اليوم حتى إذا كان لهم قصد الهجوم علينا فالأوفق أن ننتظرهم هنا باكر كما بلغنا ولربما أن يقع منهم أحد فى يدنا وبحقه تعالى سنقوم بعد باكر تاريخه فقبل سعادته ذلك وأمر براحة الجيش هنا باكر تاريخه وبعد المناقشة قام وعاد لخيمته وفى الساعة ٢ عربى جاء على أخبارية

---

(١) التجريدة .

سعادة الجنرال هكس باشا لنا بخصوص حضرة عبد الرحمن بك بأن التعاتب وملحوظات سعادته التى أبداها لنا لعرضها لسعادة أفندى الحكمدار قد عرضها لسعادته حسب الأمر ، وأيضاً لما شرف حضرة الكولونيل فركهار رئيس أركان حرب بطرف سعادته فى الساعة ١١ ونصف قد تفضل بتفهيم حضرته عن ما رآه من عدم ممنونيته حضرات ضابطان الطوبجية منهم فى هذا اليوم حال الضرب على الأشقيا إذ ذاك يعد تعدياً للقوانين العسكرية لأن كل إنسان مسئول عن عمله وأن مع وجود النشانجى والضابطان فلا يصح من حضرة سعادة هكس باشا أخذ النيشان بالمدفع والتدخل فيما هو مختصاً بخلافها لأن ذلك يعد كسر خاطر للضابطان حيث فى الواقع أن حال الضرب فكان كل نيشان كبير كان أو صغير محتاط بالمدافع وفضلا عن ازدحام العمل فكانوا يأخذوا النيشان بأنفسهم دون معلومية الطوبجى ومنهم من يقول اضرب على ألفين ومنهم على ألفين وخمسماية وذاك على ثلاثة آلاف ومع اختلاف التعريف فكثيراً من الجلل لم يصب أحداً من الأشقيا ولا فائدة ترى ضياعها فى الفارغ البطال وبعد تفهم حضرة الكولونيل بذلك قام لخيمته ممنوناً من ذلك موعداً بعدم حصوله دفعة ثانية .

فى يوم الإثنين المبارك ٢٩ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ٣ ونصف عربى صباحاً حضر سعادة الجنرال هكس باشا بطرف سعادة أفندى الحكمدار وحصلت المذاكرة فيما هو لازم بخصوص القيام باكر وفتحت المذاكرة بشأن عبد الرحمن بك بأن التعاتب على أخبارية سعادته لنا [المرار] واتفق الرأى على تفويض أمره لسعادة أفندى الحكمدار بعد أن أبدى ملحوظاته بخصوصه وقد تصادف فى الساعة ٤ عربى حضر عبد الرحمن بك لخيمة سعادة أفندى الحكمدار فأخذ سعادته يستفهم منه عن بعض ملحوظات خاصة بأحوال الأبيض وما هى أفكاره وكنت إذ ذاك ليس موجود فأبدى غاية أسفه الوحيد هو على وجوده خشية من علم الشقى محمد أحمد بوجوده مع الجيش لينتهز فرصة إعدامه قبل وصولنا وكرر ذلك المرار ولم يظهر منه [حاشيات حسنة] بشأن نجاحنا من عدمه ووجه كامل [فكره لواحده] بدون استحسان عاقبة أفعالنا فحضرت إذ ذاك أثناء تعبيره وتعجبت غاية العجب من ذلك ولكونى كنت مع سعادة أفندى الحكمدار

بعرض له حالته على غير ما حصل ونكون قد وقعنا فى بئر لا آخر له ، وفى الليلة المذكورة حصلت لنا المؤانسة التامة مع سعادة الجنرال هكس باشا وحضرة الكولونيل فركهار لغاية الساعة ٥ عربى ليلا وقمت أنا وسعادة أفندى الحكمدار عائدين لخيمتنا وسنقوم بفضل الله يوم باكر تاريخه ، وأما فى هذا اليوم لم يحصل لنا أدنى معاكسة من الأشقيا ولقد سررنا جداً حين افتتاح هذا اليوم بترقية حضرة وهبى بك قائمقام أركان حرب لرتبة الميرالاى مكافأة لحضرته من سعادة الجنرال هكس باشا فى تأدية ما أحيل عليه بغاية الاجتهاد والنشاط وهى حفظ وتوضيب القلعة أثناء سيرنا وقدمنا مزيد تشكراتنا لسعادته على هذا الالتفات الحسن وبناء على ما أوعده به سعادته بالمكاتبة الرسمية التى أرسلت لحضرته سيطلب الفرمان اللازم من لدى مكارم الحضرة وقد اعتبر هذا البيك المومى إليه بالرتبة الجديدة من هذا اليوم بالجيش السفرى

فى يوم الثلاث المبارك ٣٠ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١ عربى صباحاً قمنا من نقطة الرهد بالبر الغربى قاصدين علوبة[1] وبعد خروجنا من الزريبة بساعة تقريباً ابتدئت الاشقيا بالمناوشة معنا طول سيرنا لغاية وصولنا جهة البديرية الساعة ٧ ونصف عربى ولم يصب منا سوى اثنين وأما هم فلم يعلم ما أصيب منهم لاختفاهم بالغابات وبأثناء سيرنا صار ضبط ثلاثة حريمات عربان واحدة بعد الأخرى وبالاستفهام منهم عن الأحوال والحوادث أجابوا بما سبق فى علمنا من أن العربان متجمعين بالأبيض لأنهم حين ما بلغهم مرورنا من هذه الطريق فى صباح هذا اليوم قاموا بأنفارهم وأموالهم لجهة جبل الداير الواقع على يسارنا ولعدم إمكان خيالتنا السوارى والباشبوزق اقتفينا أثرهم لضبطهم وعدم اقتدار خيولنا على الهجوم للتعب الحاصل لهم طول هذه السفرية وحصل التفات لهذا الغرض وبوصولنا لجهة البديرية المذكورة قد عملت الزريبة اللازمة للمعسكر حسب المعتاد وأما بخصوص عبد الرحمن بك [بأن التقا] فقد علمنا حين خروجنا من الزريبة فى صباح هذا اليوم بناء على البوصلة الواردة لنا من ٣ جى بكباشة إقرار أحد توابع البيك المومى إليه عما يعلمه بخصوص سيده المشار عنه هذا

(١) توجد فى هذه الجهة علوبة وإلى الشمال الغربى منها علوبة النقية .

أثناء طلب عبد الرحمن بك بالخرطوم للقيام معنا وسمعت تكرار أسفه بشأن وجوده عازماً على عدم الحضور معنا للأبيض ، صدر أمر لأمر سعادة أفندى الحكمدار الذى لم يقصد به سوى كون حين ما يبلغ الشقى وجوده معنا وعلم وجوده أيضاً بذلك يتدارك فى أمر فساد جموع هذا الشقى يسامح وجوده بعفو تام من الحكومة الخديوية وفى أمل زيادة تقدمه وصرف النظر عما سمعناه بخصوصه هو ووالده ونحن بالخرطوم واحتج بكونه عازماً على تأدية فريضة الحج وأنه أرسل حرمه مقدماً لسواكن تخلصاً من عارضات الزمن فحمد الله قد تمكن سعادته من تنفيذ مقصده طوعاً كان أو كرهاً إذ لاحاجة لإيضاح ما حصل هناك فأخبرته أنه لا ينبغى لك أن تكرر هذه الأقوال التى أوضحتها لسعادته مذ كنت بالخرطوم فأخبره سعادته بأنه مع وجود سيدك الذى أنت تشرفت بشرفه وترقيت لهذه الدرجة لا يصرفك أن تتكلم شىء بخصوص والدك وتظهر أسفك الوحيد بخصوصه بدون أن تستحسن عاقبة أمالنا مع كونك عالماً علم اليقين بأن وجودك لا يعد إلا خائناً لحكومتنا السنية أفهل تدرى أن هو أول من خرج من استحكام الأبيض مع الياس باشا لمقابلة وتعضيد الشقى ومكنتوه من إعدام من عدم واستولاه على مدينة كردفان الأمر الذى تعلمه الحكومة جيداً أفهل نسيتم ما أنعمت به الحكومة والحضرة الخديوية عليكم وفهل لك شرف تبادر به بعد بخس شرف الحكومة فأجاب عبد الرحمن بك مستقبحاً شرفه الحالى قائلا إنى مذ كنت متقمصاً بالعرى (الجلابية القماش) وأنادي باسم عبد الرحمن بأن كنت حايزاً للشرف الزايد عما أرى نفسى متشرفاً بشرفى الآن فامتزج سعادته بالغضب من قباحة هذه الألفاظ فخرجت فى الحين لخيمتى وتركت سعادته معه وحضر بسطى بك وجورجى بك . وبعد برهة قليلة علمت أن سعادته أمر بسجنه وتوزيع أتباعه على آلايات السفرية وحفظه وحفظ كافة تعلقاته تحت توكيل حضرة على أفندى عبد الله بكباشي مأمور حملة سعادته ، وفى الساعة ١ عربى ليلا قد أخبرت سعادة الجنرال هكس باشا بينما نحن متشرفين بمائدة سعادته الذى دعينا إليها مع سعادة أفندى الحكمدار فتأسف سعادته غاية الأسف من هذه الألفاظ وأمر لمعاقبته بما حصل وقد أخبرناه [إلا بأمل عدم توسطه له]

ما يكون باعثاً لنا فى حصر الشبهة الأكيدة فيه ولأجل الاختصار رأينا من أخذ صورة هذا الإقرار ليرصد هنا حرفياً اعتماداً على بوصلة البكباشى المومى إليه وهى هذه (إدريس تابع عبد الرحمن بك مسجون فى ٣ جى أورطة ٣ جى بيادة سفرية إلى ٣ جى بيادة سفرية ميرالاى عزتلو أفندى — بالاستفهام من المذكور عن بعض حوادث أورى على أنه فى بعض الأحيان يبرر خروج سيده المسمى عبد الرحمن بك من القلعة ويتقابل مع عربان أمين الياس باشا سراً وبالجملة تقابل معه فى النهر (يعنى بذلك نهر البلياب) الذى أقمنا به يومين فضلا عن كونه مرتب اثنين عبيد من عبيده وهما قسيم وعلى وهؤلاء مراسلة ما بينه وبين الأشقيا وخشية ذلك فما يجب الأخبارية عنه اقتضى تحريره لعزتكم لأخذ اللازم نحو مخابرة جهة الاقتضى بذلك أفندى ٣٠ أكتوبر سنة ٨٣ ختم من ٣ جى بكباشية ٣ جى بيادة سفرية) وبناء على ذلك حضرة الميرالاى أرسلها لسعادة أفندي الحكمدار للمعلومية وبوقته قد أخبرنا سعادة الجنرال هكس باشا بذلك ليكون على علم بما هو جارى داخل الجيش وسنقوم بفضل الله تعالى باكر تاريخه .

فى يوم الأربع المبارك ٣١ أكتوبر سنة ٨٣ الساعة ١ عربى صباحاً قمنا من نقطة البديرية قاصدين علوبة وبعد مسيرنا بنصف ساعة ابتدأت الأشقيا بالمناوشة معنا داخل الغابات لغاية الساعة ٦ ونصف ولم يصاب منا سوى واحد وقتل واحد وأما بخصوص عبد الرحمن بك [بأن التقا] فقد علمنا بعد خروجنا من الزريبة فى صباح هذا اليوم من ٢ جى بكباشية ٢ جى بيادة سفرية إقرار أحد توابع البيك المومى إليه وهذا يكون باعثاً أيضاً لزيادة تأكيد الشبهة فيه ولأجل الاختصار رأينا لزوم أخذ صورة الإقرار ليرصد هنا حرفياً اعتماداً على البوصلة بوصلة البكباشى المومى إليه وهى هذه (استعداد الشخص الموضح اسمه أدناه التابع إلى عبد الرحمن بك — إن اسمى سناد زول مولد بطرف سيدى المذكور والذى أعلمه جيداً بأن شخص يدعى حسين من تجار كردفان حضر بطرف سيدي ونحن بالخرطوم قبل قيامنا إلى السفرية هذه وحضر له جواب من عند والده بكردفان بنوع السر وحضوره كان من جهة أم درمان مضمونه بأنه لم

يحضر مع العساكر ولا يخرج من الخرطوم وأما معلوميتى فى سفريته هذه هو أن سيدى أخذه وعطاه مكالمة مع توابعه وهما قسيم ومكى لكونهما دواماً كانوا يتأخروا فى الطريق ويحضروا بعد الناس بعد نصب الخيمة ووضع العفش [وقد عثر] الشخصين المذكورين لا أعلم إن كان يتكلم مع أحد خلافهم أم لا هذا حقيقة ما أعلم – وكيل لوا ٣ جى و ٤ جى بيادة سفرية –

أنه بناء على ما تنبه به علينا من عزتكم شفاهى بخصوص استجواب الثلاثة أشخاص التابعين إلى عبد الرحمن بك واختبار حقيقة أمرهم المسجونين الآن بالآلاى فلو كانوا يقروا بشىء ما عن الشخص الموضح أعلاه [تورد منه] ما هو مدون من الاطلاع عليه تعلم الكيفية إقتضى تحريره للمعلومية أفندم ٩ أكتوبر سنة ٨٣ ختم من ٢ جى بكباشية ٢ جى بيادة محمد حمدى – وبناء على ذلك حضرة الميرالاى المومى إليه أرسلها لسعادة أفندى الحكمدار للمعلومية وقد أخبرنا سعادة الجنرال هكس باشا ليكون على علم بهذه الحوادث المهمة الجارية بالجيش وبحقه تعالى سنقوم باكر تاريخه من هذه النقطة وهى نقطة الأغبش لنقطة علوبة ، وفى الساعة ١٠ ونصف عربى نهاراً قد وردت بوصلة من ٢ جى من آلاى بيادة سفرية لسعادة أفندى الحكمدار بخصوص ما أقر به على عبد الرحمن بشأن سيده عبد الرحمن بك وللاختصار التزمنا بأخذ صورتها لترصد هنا أيضاً وها هى هذه (إقرار على عبد الرحمن – إن الذى صار هو كما كنا فى محطة [العبلاقون] من بعد عملى سيدى عبد الرحمن بك أعطانى جواب من طرفه على قبول توصيله لأبيه فأخذته وتوجهت إلى حلة [العبلاقون] وسلمته لشخص عربى يسمى يوسف ولد نصر الله وكان معى قسيم أحد توابع البيك وطلوعنا كان صباحاً مع طلوع الحملة من الزريبة وكذا دواماً كان البيك يأخذ خيمته قسيم عبد الرحمن ومكى ولد الحاج على نسيبه يأخذهم ويطلع ولم نعلم أين يتوجهو وأن الذى كان جارى تحرير الجوابات بخطه هو مكى نسيبه ولما نقلنا إلى الجهة القريبة لخور الرهد طلع عبد الرحمن بك وصحبته مكى المذكور وقسيم وهذا الذى أعلمه وكذا كان بيخرج معهم عبدا عبد الرحمن. ما أقر به المذكور هو عندنا وبحضورنا بدون إجبار ولا إكراه عليه . ختم ميرالاى ٢ جى بيادة سفرية ختم قائمقام الآلاى ختم ٢ جى

بكباشية ختم ٢ جى صاغ – وبناء على ذلك قد أخبرنا سعادة الجنرال هكس باشا ليكون على علم بما هو جارى بالجيش

فى يوم الخميس أول نوفمبر سنة ٨٣ الساعة ١ عربى صباحاً قمنا من نقطة (الوغيش) قاصدين علوبة وفى الساعة ٤ ونصف وصلنا ببركة الله مياه بحلال علوبة وهناك تعسكرنا وعمل الخندق اللازم عند ذلك ومررنا كان من وسط غابة كثيرة الأشجار وأما معاكسة الأشقيا لنا فهى كما هو جارى يومياً وأما عند وصولنا للبركة المذكورة قد أطلق علينا الرصاص من الأشقيا الذين كانوا مختفين وكانوا لا يبعدوا على ضلع القلعة الأيسر بما لا يزيد عن العشرة أمتار ولما استشعر بهم عساكر الباشبوزق الخيالة حالا أطلقوا عليهم الرصاص وأخذت القلعة فى استعداد خوفاً من أن يكون موجود خلافهم أكثر عدد منهم للهجوم بحيلة كهذه علينا وبعد مسافة خمسة دقائق لم نرى منهم أحد وقد صدرت الأوامر بإعمال الزريبة اللازمة والخندق زيادة للاحتراس كوننا تعسكرنا داخل الغابة وفى الساعة ٢ عربى ليلا قد أطلق علينا مقدار أكم رصاصة من الأشقيا قريبين من الزريبة وفى الحال جاوبتهم عساكر الحفر ومدفعين ساروخ أيضاً لابتعادهم عن قرب الخندق وبعدها لم يحصل أدنى معاكسة لحد الصباح وأما حوادث هذا اليوم المهمة وهى أن عبد يسمى فضل من توابع أحد أهالى نقطة الدويم كان حضر برفقتنا من هناك بأمل كونه يكون خبيراً لنا عن محلات المياه مثل الخبراء الموجودين معنا ولما حضرنا لنقطة الخنفرية قد أرسله سعادة أفندى الحكمدار ليكتشف بركة (الصراحنة) الذى عرف عنها الخبر فتوجه وعاد مع شخص آخر [وقبله] وعرفنا بوجود المياه والماشية [صداقته] قد أنعم عليه سعادة أفندى الحكمدار من الخزينة بمبلغ مائة ريال مجيدى ثم فى ثالث يوم قد احتاج الحال له أيضاً وأرسلته ليكتشف بركة النورابى وأرسل أيضاً رجل آخر ليستكشف لنا خور النيل وأوعدهما سعادته بمكافئتهما فتوجهوا لوقت تاريخه لم يعودو وصرنا من ذلك فى غاية الأسف ظانين بأنهم فقدوا بالطريق أو تمكنوا العربان منهم وقتلوهم وصرنا ننتظر من يوم لآخر إلى أن انقطع عشمنا فى رجوعهم إذ لا حاجة لعدم رجوعهم وأخذ ما أنعم به عليهم من خزينة الحكومة كوعد

سعادة أفندي الحكمدار وما نشعر إلا وفى يوم تاريخه الساعة ٦ عربى عند إعمال خندق للزريبة قد حضر داخل القلعة الشقى فضل الله المذكور وعلمنا أنه كان حضر وسلموه بالأبيض للشقى محمد أحمد والرجل الآخر الذى أرسل معه فى اليوم المذكور لاستكشاف خور النيل وأن الرجل المذكور قد أعدمه محمد أحمد وأما هو مسجون مدة طويلة ولمناسبة تحليفه على المصحف أن لا يخون قد أرسلوه مع الفرقة التى حضرت بخور الرهد من الأبيض لمحاربتنا وبعد قيامه معهم مدة ثلاثة عشر يوم حضر لنا يوم تاريخه وبالاستفهام عن حالة وصوله وما فعلوه معه الأشقيا وما هى إجراءات الشقى محمد أحمد بكردفان فأورى بتفصيلات ما وقع له بعد قيامه من طرفنا فوأن كان تراءى لسعادة أفندى الحكمدار سجنه بالحديد بالنظر للإيضاحات التى أوضحها لكن . . . . ما وقع له لدرجها بهذا الكتاب وهو أنه بعد قيامه مع زميله من معسكرنا . . . .

* * *

هنا تقف يوميات عباس بك سكرتير حاكم عام السودان وتنتهى فى اليوم الأول من شهر نوفمبر عقب وصول الجيش إلى علوبة .

يخيم الغموض التام على أحداث الأيام الأربعة التالية التى تنتهى باليوم الخامس من نوفمبر الذى نشبت فيه مجزرة شيكان . ولم يعش ضابط من الحملة ليكتب لنا تلك الأحداث الرهيبة . كذلك قل ما نقرأه عن المعركة .

نجد القليل من أخبار تلك الأيام فى مرجعين أحدهما كتبه ونجت باشا سردار الجيش المصرى عقب استعادة السودان فى كتابه المعروف « المهدية والسودان المصرى »(١) . وثانيهما « النار والسيد فى السودان » لسلاتين باشا(٢) وكلا المرجعين خالياً من التحقيقات الطبوغرافية الدقيقة لمعركة شيكان(٣) .

---

(١) Wingate - Mahdism and the Egyptian Sudan P. 85-89.

(٢) Slatin - Fire and Sword in the Sudan. p. 239-243.

(٣) تقع شيكان على بعد ٢٨ ميلا شمال غربى علوبة .

يقول ونجت :

عسكرت قوات المهدى بقيادة عبد الحليم أحد أمرائه فى شيكان وكان عددها حوالى أربعين ألفاً — فى انتظار تقدم الجيش المصرى . أما أتباع هؤلاء من نساء وأطفال فقد اتجهوا نحو البركة[١]

وكان من رأى هيكس باشا السير إلى الأبيض عن طريق البركة لكنه لما اتصل به خبر وجود المهديين فى البركة ، « تشاور » هيكس مع علاء الدين عن أي الطرق يسلكها الجيش — وهل الأصوب العودة ثانية إلى الرهد ثم السير إلى الأبيض عن طريق كاشجيل وملبس .

ثم دعى الخبراء . فأورى « كونا » أمام الجميع أنه يعرف الطريق جيداً — وأنه يشير بالسير إلى كاشجيل مباشرة عوضاً عن العودة إلى الرهد . ومن كاشجيل يتجهون إلى الأبيض على أن يحملوا مياه يومين من علوبة . ورأى بقية الخبراء أن تقسم الحملة إلى قسمين — قسم يتبع الطريق الذى أشار به كونا . والقسم الآخر يعود إلى الرهد ويتقدم عن طريق ملبس إلى الأبيض .

قاوم هيكس بشدة الرأى القائل بتجزئة الحملة . وأخيراً وبعد مناقشات حامية تقرر العمل برأى كونا .

وبناء على ذلك وفى صباح يوم السبت الثالث من نوفمبر تقدم الجيش من علوبة متجهاً نحو كاشجيل . وبعد مسير عشرة أميال فى الغابات وقف الجيش وأقام زريبة . ولما ابتدأ الليل بدأ العدو يطلق رصاصه . فصدرت الأوامر فى الحال بطفى الأنوار .

وفى صباح اليوم التالى (الأحد ٤ نوفمبر) استؤنف السير فى اتجاه غابة شيكان . وقبل ساعة من الزمن هاجم العربان مؤخرة مربع القوة .

وقفت الحملة . وكانت شيكان على بعد ميلين فقط (كما صرح الخبراء) . وأنشئت زريبة بسرعة واتضح أن الأعداء يحيطون بالحملة فى جموع كثيفة . وفى الوقت نفسه استمر العدو فى إطلاق نيرانه بشدة فى اتجاه الزريبة ومن خلف الأشجار

---

(١) تقع البركة فى الطريق الموصل بين الأبيض والدلنج و إلى جنوب غرب علوبة .

قرر هيكس أن تتقدم الحملة وكان ذلك فى الساعة العاشرة من صباح يوم الإثنين الموافق ٥ نوفمبر .

«خرج الجند من الزريبة واتخذوا تشكيل ثلاث مربعات تؤلف مثلثاً وتقدم الجنود . وبعد نصف ساعة وصلوا إلى واد مكشوف تتبعثر فيه هنا وهناك الأعشاب . وعلى كلا الجانبين غابات كثيفة اختبأ فيها رجال المهدى . . . »

« أما المهدى فلما علم من عيونه أن هيكس قرر التقدم نحو كاشجيل فقد أوفد فى الحال أميره أبو عنجه على رأس القسم الأكبر من جيشه إلى شيكان (على بعد ستة أميال شمال البركة) ــ أما محمد أحمد فقد خرج على رأس القسم الآخر من الجيش واتجه إلى الوادى الذى سيمر به هيكس ثم اختفى برجاله فى الغابات التى على جانبى الوادى . بينما استترت بعض القوات فى منخفض كثيف الأشجار يقع فى وسط السهل . فى طريق الحملة .

والآن كل شىء قد أصبح معداً للمأساة الأليمة . محمد أحمد ورجاله يتربصون ويتلهفون وصول المصريين . وها هم يبصرونهم تحت أنظارهم يقتربون منهم رويداً رويداً وقد أضناهم التعب يجرون أقدامهم جرا . فجمع أمراءه ليصدر إليهم أوامره الختامية ثم انتهى من صلاته وسحب سيفه وصاح ثلاثاً : الله أكبر لا تخشوا شيئاً . النصر لنا . . .

يقول سلاتين إن الأمير أبو عنجه أفاد تحت ستار الظلام وتعلق رجاله بالأشجار مستعدين للمعركة عند أول إشارة . وظلوا طوال الليل يمطرون المصريين بوابل رصاصهم . فلم يتذوقوا الراحة لحظة واحدة .

وفى صباح يوم ٤ نوفمبر استأنف هيكس التقدم وقبل أن يسير ميلا واحداً هاجمته الحشود المؤلفة من مائة ألف محارب نزلوا من الأشجار كالسيل الجارف . وفى لحظة انكسر المربع (تشكيل القتال) وبدأت المذبحة فى أشنع صورة . وعم الارتباك والفوضى والذعر ــ وقاومت جماعات من الضباط والجند ــ ولكن انتهى الموقف بالاندحار التام .

ونلاحظ أن هناك اختلافاً فى المرجعين عن تاريخ يوم المعركة . ولكن يبدو أن المذبحة النهائية وقعت فى يوم الإثنين ٥ نوفمبر سنة ٨٣

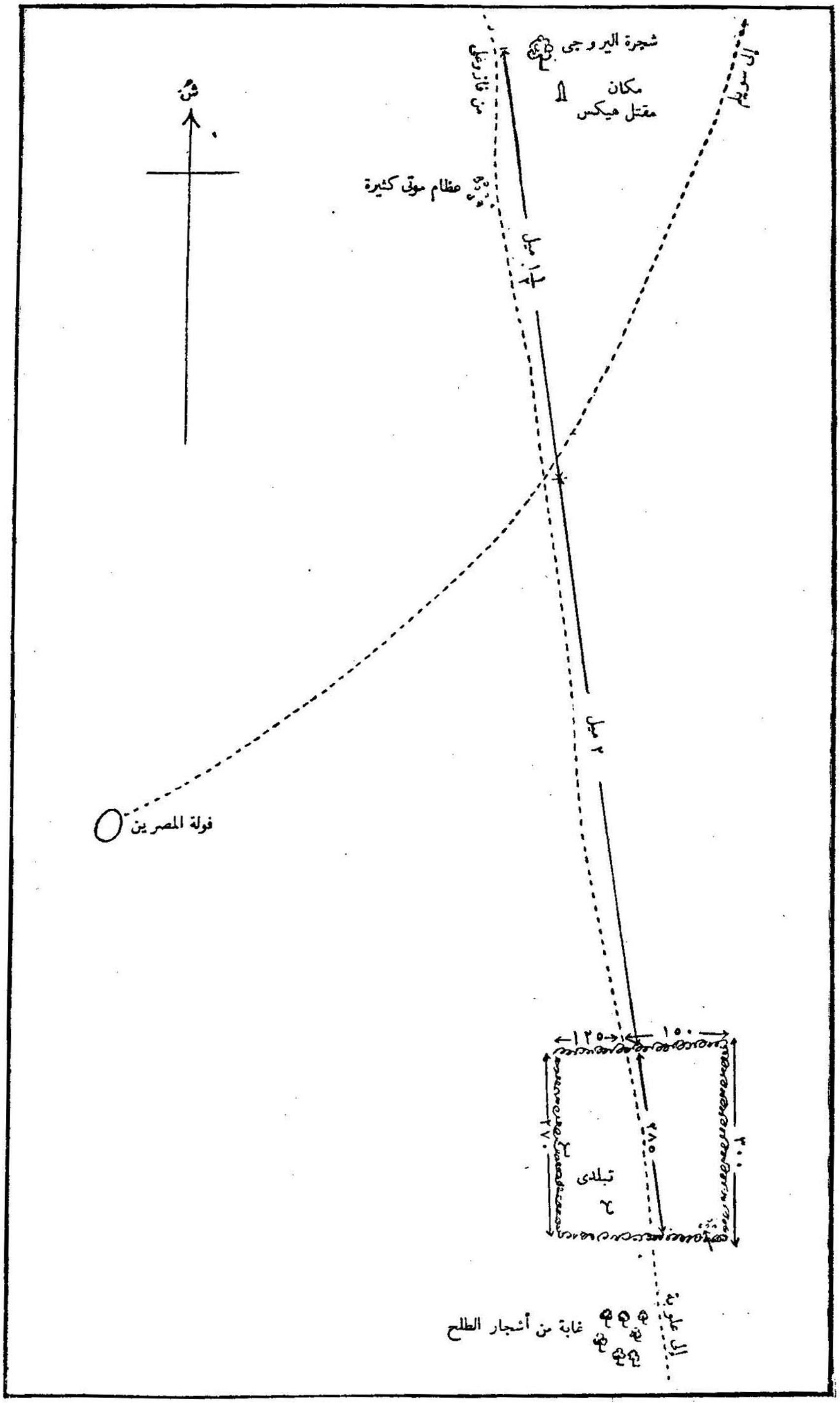

كروكى لميدان معركة شيكان

(٢١)

واليوم وقد مضت سبعون سنة على معركة شيكان ضاعت فى خلالها معظم المعالم الطبوغرافية من دروب وغابات وأشجار ووديان ومجارى المياه . ولكن موقع أرض المعركة ما زال يعرف أنه يقع على بعد أربعة أميال جنوبى « شيهين » وميلان ونصف شمال شرق بركة فولة المصارين

وإلى اليوم تقف شجرة تبلدى قديمة فى مكان تغزر فيه الشجيرات تعرف هذه أنها الشجرة التى أمر هيكس أن يقف عليها « البروجى » لعزف « النوبة » عند مشاهدة العدو — فلما أبلغه ما رآه رأى هيكس أن يعدمه فى الحال لكى لا تنحط معنويات الجند بعد أن حاصرتهم الأعداء من كل جانب .

وما زالت إلى اليوم آثار معسكر الجيش المصرى باقية بين كاشجيل وعلوبة . وما زالت بعض الأشجار التى شاهدت المذبحة تقف هناك . . . وحدها

O loved ones, lying far away
What word of love can dead lips send ?
O wasted dust and senseless clay.
Is this the end ? is this the end ?

عبد الرحمن زكى

الحسبة والمحتسبون فى مصر

يحسن تحديد المقصود بلفظى الحسبة والاحتساب فقد وردا فى كتب الفقه واللغة . فمن حيث اللغة يطلق لفظ الحسبة لمعنيين : الأول بمعنى الحساب والثانى بمعنى التدبير . إذ يقال حسن الحسبة فى الأمر حسن التدبير له .

أما لفظ الاحتساب فله معنيان أيضاً أحدهما بمعنى العدد والحساب ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم . من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه . أى من صام وهو يؤمن بالله ورسوله ويعتد صومه عند الله . . .

والمعنى الثانى الإنكار على الشىء .

وفى الشرع يقصد بالحسبة والاحتساب الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه . والنهى عن المنكر إذا ظهر فعله . أى محاولة جعل الحياة السائرة موافقة لأحكام الشريعة .

وفى مصطلح التاريخ يقصد بالحسبة الوظيفة التى تراقب تنفيذ أحكام الشريعة فيما هو حادث فعلا فى المجتمع الإسلامى على اختلاف طبقاته من حيث المعاملات الجارية بين أفراده وواجباتهم نحو الدولة وأحوالهم الشخصية . وما قد يترتب على مخالفتهم من إلحاق الضرر بالمصلحة العامة .

ومصادرنا عن الحسبة تشمل كتب الفقه والحسبة والتاريخ .

ويرجع الفقهاء ظهور وظيفة الحسبة إلى بدء قيام الدولة الإسلامية وتحوّل المجتمع العربى إلى مجتمع إسلامى خاضع لحكومة مركزية تستمد قانونها من الشريعة وقد جعل الفقهاء أساس وظيفة الحسبة وسائر الوظائف الإسلامية . الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وقسم الماوردى . وهو من أقدم الفقهاء الذين كتبوا عن الحسبة . الأمر بالمعروف ثلاثة أقسام : أولها ما يتعلق بحقوق الله وهو خاص بالعبادات مثل تأدية صلاة الجمعة وشروط انعقادها . والطهارة وشروطها المختلفة . والثانى ما يتعلق بحقوق الآدميين مثل ترميم المساجد والأسوار ومعونة أبناء السبيل وتنظيم المعاملات التجارية . والثالث ما هو مشترك بين حقوق الله

وحقوق الآدميين كالأحوال الشخصية ومراقبة معاملة الإماء والرفق بالحيوان والنظر فى أمر اللقطاء .

أما من حيث المنكرات التى ينهى عنها المحتسب فإنها تشمل :

مخالفة أصول العبادة كالجهر فى الصلاة حيث يجب الإسرار . والزيادة فى الصلاة والآذان . والإخلال بالطهارة . والجهر بعدم الصوم فى رمضان . والامتناع عن دفع الزكاة مع الميسرة . والتصدى لعلم الشرع بدون مؤهل . والوقوف فى مواقف الريب ومظان التهمة . وشرب الخمر والزنا . والمجاهرة بإظهار الملاهى المحرمة . والبيوع الفاسدة . وغش المبيعات وتدليس الأثمان . والربا . والتطفيف والبخس فى الكيل والوزن . والتبايع بما لم يألفه أهل البلد من المكاييل والموازين التى لا تعرف فيه وإن كانت معروفة فى غيره . والتعدى على حد الجار وحق الأجير . وغش وتدليس أرباب الحرف والصنائع . والإشراف على منازل الناس . وارتفاع مبانى أهل الذمة على مبانى المسلمين . ومخالفة الذميين لما شرط عليهم من شروط خاصة . واستهانة القضاة بالمتقاضين . وتعذيب الحيوان . وزيادة حمولة السفن . والتضييق على المارة فى الطرقات . وسلوك النساء فى الأسواق

وقد وضع الفقهاء شروطاً خاصة يجب أن تتوافر فيمن يتولى وظيفة الحسبة . فاشترطوا أن يكون مكلفاً قادراً مؤمناً عادلا . عفيفاً عن أموال الناس . متورعاً عن قبول الهدية من أرباب الحرف والصنائع . عالماً بالشرع وأحكامه . مواظباً على سنن رسول الله . متصفاً بالرفق ولين القول وطلاقة الوجه والصبر . واشترطوا فى أعوان المحتسب هذه الصفات أيضاً .

ولما كان الغرض من الحسبة هو المنع من فعل المنكر ومجازاة من يرتكبه فقد خول المحتسب حق توقيع العقوبة وتنفيذها فى الدعاوى التى تتعلق بالمنكرات الظاهرة إذا أقر المخالف بارتكابها أو ضبط متلبساً بفعل هذا المنكر . ويطلق على العقوبة التى يفرضها المحتسب التعزيز . وهو يختلف بحسب كبر الذنوب وصغرها وحال المذنب ومقدار الذنب . ويشمل التعزيز التوبيخ والزجر بالكلام والحبس والضرب والنفى عن الوطن . وليس للمحتسب الحق فى تنفيذ الحدود الشرعية إلا فى الأحوال المأذون بها من الإمام .

هذه هى الحسبة من الناحية النظرية . أما مقدار انطباقها على الحياة العملية فهذا تكشف عنه كتب التاريخ عند تعرّضها لوصف أحوال المجتمع فى العصور المختلفة . ليس من شك فى أن مظاهر وظيفة الحسبة قد وجدت منذ قيام الدولة الإسلامية إذ يصور لنا القرآن الكريم وأحاديث النبى وأعماله حياة المجتمع العربى قبل الإسلام وفى أثناء حياة النبى من حيث التطفيف والبخس فى الكيل والوزن . والربا بأنواعه المختلفة . وعقود البيع الفاسدة . وتلقى السلع قبل نزولها إلى السوق . والاحتكار وشرب الخمر والزنا . والغش فى المبيعات والجلوس فى الطرقات وإظهار المنكرات وكثرة الفسوق والمظالم .

واستطاع النبى وأصحابه أن ينشروا تعاليم الإسلام ويرشدوا العرب إلى الحياة الإسلامية الصحيحة . فعين النبى عمر بن الخطاب على سوق المدينة . وعين سعيد بن العاص على سوق مكة .

واستمر الخلفاء الراشدون يسيرون على نهج النبى ومنواله . فلما اتسعت الدولة الإسلامية واستقر كثير من العرب فى البلاد المفتوحة واقتضى الأمر تنظيم أعمال الحكومة وتعيين موظفين فى هذه الجهات يستمدون سلطتهم من الخليفة ، توزعت أعمال الحسبة فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين وأوائل عصر العباسيين بين القاضى وصاحب الخراج وصاحب الشرطة إلى أن اجتمعت لشخص موظف واحد يطلق عليه المحتسب فى عهد الخليفة المهدى لأسباب متعددة منها اهتمام الخلفاء العباسيين بجعل الشريعة الإسلامية أساساً لحكمهم ومحاولة فقهاء الدولة التوفيق بين الشريعة وبين ما هو سائد فى البلاد من عادات وتقاليد بشرط عدم مخالفتهم لأحكام الشريعة والسوابق القضائية . ومنها اندماج المسلمين فى سكان البلاد المفتوحة فنقلوا عنهم كثيراً من العادات والتقاليد وألفوا أسلوب حياتهم بما فيها من خير وشر . وعرف المسلمون كثيراً من نظم الرومان والفرس التى تتعلق بأمور الحسبة فأقروا منها ما يتفق مع الشريعة . والدليل على ذلك ما قام به الخليفة المنصور من نقل الأسواق إلى خارج مدينة بغداد وترتيبها وفق أصنافها كما أشار بذلك رسول ملك الروم الذى زار بغداد عقب الفراغ من بنائها . وذلك خوفاً من تسرّب أخبار الدولة إلى الخارج بسبب اختلاف التجار من

جميع الأجناس إلى الأسواق فى داخل المدينة . وما قام به الخليفة المهدى من فرض الخراج على الحوانيت وتعيين وال من قبله لمراقبة الأسواق . وقد كان لكثرة عدد السكان فى بغداد ونشاط المعاملات التجارية وتعدد دور العزب وتسرب الأموال الأجنبية للعاصمة أثر كبير فى أعمال المصارف مما دعا إلى الحرص فى مراقبة النقود والتشديد فى عيارها .

وإذا أضفنا إلى العوامل السابقة ما امتاز به عصر المهدى من ظهور فرق ومذاهب مناوئة لسلطة الحكومة مثل الزنادقة والذين يقولون بالرجعة ومحاولتها استغلال طبقات العمال والصناع مما قد يؤدى إلى قلب نظام الحكم مما دعا إلى تعيين عبد الجبار المحتسب وتكليفه بالقبض على كل الزنادقة الموجودين بالبلاد والتنكيل بهم تبين لنا أن اختصاص المحتسب أخذ يتسع منذ هذا العصر فاجتمع له ما كان بين القاضى وعامل الخراج وصاحب الشرطة من أمور الحسبة . ويؤيد ذلك وجود صنجة مصرية مؤرخة فى سنة ١٦٩ هـ ومحفوظة الآن بالمتحف البريطانى ومرسوم باسم إسماعيل ابن صالح المحتسب فى ولاية الفضل بن صالح على مصر . . .

الحسبة فى مصر

كانت أعمال الحسبة بمصر فى عهد الولاية — منذ الفتح الإسلامى حتى قيام الدولة الطولونية — كانت موزعة بين القضاة وعمال الخراج وأصحاب الشرطة فقد تولى بعض القضاة النظر فى أموال اليتامى . والإشراف على دار الضرب وتنفيذ القيود الشرعية الخاصة بأهل الذمة . ومنع بعضهم شيوخ المصريين من لبس القلانس الطوال التى كان يتميز بها القضاة العباسيون . وعمل بعض أصحاب الشرطة على إبطال النداء على الجنائز . والنهى عن قراءة القرآن بالألحان . ومنع النساء من التردد إلى الحمامات والقبور وسجن المخنثين والنوائح . وأخذ المصلين بتمام الصفوف . والنهى عن شق الثوب على ميت . وتسويد الوجه أو حلق الشعر أو صياح النساء . أما عمال الخراج ، وقد تبين من دراسة المأسوف عليه المسيو كازانوفا لمجموعة Innes من الصنجات المصرية التى ترجع للعصر العباسى

الأول أن أسماء بعض عمال الخراج قد نقشت على هذه الصنجات ، وتولى بعضهم الإشراف على دار العيار وجعل فريق منهم خراجاً على الأسواق ، وكسر آخرون أوانى الخمور وعطلوا الحمامات .

وعلى الرغم من استقلال مصر فى عهد الطولونيين واستقلال وظيفة الحسبة . فإن بعض القضاة قد جمعوا فى أيديهم المظالم والأحباس والحسبة .

وأهمل أمر الحسبة فى عهد الأخشيديين مع ما عرف عن المصريين من إظهار الملاهى والمنكرات فى أعيادهم القومية مثل عيد الغطاس . فاكتفى بعضهم بالحصول على البراطيل من الباعة . وهذا يفسر لنا اضطراب الأسعار واختفاء الخبز وثورات الجند فى أواخر الدولة الأخشيدية مما حدا بفريق منهم إلى مكاتبة المعز لدين الله الفاطمى للقدوم إلى مصر .

فلما جاء جوهر الصقلى إلى مصر فاتحاً كان أول عمل قام به محتسب الدولة الفاطمية . سليمان بن عزة — معالجة الأزمة الاقتصادية . فضرب جماعة من الطحانين وطيف بهم . وجمع سماسرة الغلات بمكان واحد . فلا تباع الغلات إلا بهذا المكان وبحضور المحتسب . وقد كان لانتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر وإنشاء القاهرة ونشر المذهب الشيعى أثر كبير فى أعمال الحسبة من حيث الاعتراف بالأصناف (النقابات) واستمالة العامة للدخول فى المذهب الجديد وكبت كل ما فيه إشهار لمذهب السنة . ويضاف إلى ذلك الانقلاب الذى جاء به الخليفة الحاكم بأمر الله . والأزمات الاقتصادية المتخلفة عن انخفاض النيل والتنازع بين عناصر الجيش والتنافس بين الوزراء وضعف الخلفاء . فاشتهر المحتسبون فى مراقبة الصيارف والحمامات ومنع عجين الخبز بالأرجل . وتحريم ذبح البقر إلا فى أيام عيد النحر . وتهديد النخاسين بالعقاب إذا ما باعوا عبداً أو أمة لذمى . ومنع النساء من التبرج والخروج خلف الجنازات . وإعداد كثير من محصول العنب وتقييد بيع العسل حتى لا يتخذ منه النبيذ . ومراعاة كنس الأسواق ورشها وتعليق القناديل على الحوانيت . وإلزام أهل الذمة بالقيود الشرعية .

وعندما يحدث غلاء نتيجة لأزمة اقتصادية . كان الخبز يختفى من الأسواق ويكثر التلاعب بالنقود ويختزن التجار الحبوب وتتعطل أعمال الزراعة . فتعمد

الحكومة الفاطمية إلى إبطال المعاملة بالنقود المتداولة وتصك غيرها . وتحدد أسعار المواد الغذائية . وتعاقب السوقة وتهددهم بالقتل وتشهرهم فى الأسواق . وتصادر ما فى مخازن التجار من حبوب . وتنشط لمراقبة أرباب الحرف والصنائع وتعاقب عرفاءهم الذين يستغلون هذه الظروف ويبيعون بالأسعار المرتفعة اعتماداً على سلطانهم الحكومى كما حدث فى عهد المستنصر حينما أمر الوزير اليازورى بصرف عريف الخبازين عن وظيفته ومعاقبته وإغلاق دكانه . وكانت الحكومة تقدر ما يحتاج إليه الجمهور فى كل يوم من الغلة . وتقدر الغلال التى قبل التجار أن يبيعوها بالسعر المحدد . وما تدعو إليه الحاجة بعد ذلك يؤخذ من غلات الحكومة ويوزع على الطحانين بالسعر المحدد فتنفرج الأزمة .

وبسقوط الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧ هـ دخلت مصر فى عهد جديد . إذ عادت إلى المذهب السنى وتزعمت العالم الإسلامى فى نضال الصليبيين . وترك الفاطميون من خلفهم طائفة من الفرق الشيعة مشتتة فى أنحاء العالم الإسلامى تحاول الانتقاض من حين إلى آخر على الحكومات الإسلامية القائمة . ولقد نشط الفقهاء – بتشجيع الدولة الأيوبية – لإحياء معالم السنة فوضعوا كثيراً من الكتب التى تناولت دراسة المجتمع الإسلامى من جميع النواحى . ومن بين هذه الكتب كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة(١) الذى وضعه عبد الرحمن ابن نصر الشيزرى . ويعتبر هذا الكتاب أساساً لما كتبه من جاء بعد الشيزرى من المؤلفين فى موضوع الحسبة من الناحية العملية . وبذلك تعتبر هذه الكتب من أهم المصادر عن الحسبة . وتدل كثرة النسخ الخطية الموجودة من كتاب الشيزرى فى جهات مختلفة وبتواريخ مختلفة وحرص كثير من المحتسبين على اقتنائه على أثره فى توجيه المحتسبين عند مباشرتهم لوظيفة الحسبة .

يرشد الكتاب المحتسب إلى ضرورة ترتيب الأسواق حسب تجانسها فى الصنائع ومراعاة نظافتها وعدم إخراج مصاطب الدكاكين عن الحدود الموضوعة لها . وإلى الاهتمام باختيار العرفاء والأعوان فيستطيع معرفة الغشوش وما يجلب إلى الأسواق من السلع وما تستقر عليه من الأسعار . ولما كان الخبز هو الطلب

(١) طبع بالقاهرة سنة ١٩٤٦ .

الرئيسى للمستهلك ولا بد من توافره فى الأسواق . فينبغى للمحتسب أن يفرض على الطحانين مقادر معينة يرفعونها كل يوم إلى حوانيت الخبازين . ويكتب فى دفتره أسماء الخبازين ومواضع حوانيتهم ومقدار ما يوزعه كل حانوت فى اليوم الواحد وضرورة تخصيص أفران للسمك غير أفران الخبز .

ومن الصنائع ما يستطيع المحتسب والعرفاء اكتشاف الغشوش الحادثة بها من الطعم والرائحة والمكسر ومجرد النظر والخبرة بحيل أربابها . ومنها ما لا يمكن معرفة غشوشها مثل العقاقير والعطارة والأشربة وبعض الأطعمة . فيعمل المحتسب على مراقبة أربابها وتحليفهم وتخويفهم .

ويشير الكتاب إلى كثرة الباطنية والروافض فيدعو المحتسب إلى العمل لما فيه إظهار معالم السنة وحث المعلمين على تلقين الصبيان أصول السنة ونهيهم عن حفظ أشعار الروافض . ومنع الجلوس فى المساجد لحديث الدنيا .

ويعطينا الكتاب صورة لما يحتويه حانوت من حوانيت المدن الإسلامية فى العصور الوسطى . إذ أن حانوت السمان ــ مثلا ــ كان يحوى كثيراً من حاجات البيوت مثل التمر والزبيب والزيت والعسل والشيرج والخل واللبن والمخلل والجبن المحفوظ فى الخوابى والعسل النحل والكراويا والحناء والقار . ويراعى المحتسب أن تكون هذه البضائع مصونة فى أوعية خاصة لئلا يصل إليها الذباب وهوام الأرض أو يقع عليها شىء من التراب . كما يأمرهم بنظافة أثوابهم وغسل مغارفهم وآنيتهم وأيديهم ومسح موازينهم ومكاييلهم .

وعلى الجملة فقد بسط المؤلف الوسائل التى يستطيع بها المحتسب مباشرة وظيفته فى المدينة الإسلامية . وأورد جميع الحرف والصنائع التى يحتاج إليها الناس فى معائشهم اليومية .

وقد تأثرت الأمارات الصليبية فى الشام بما عند المسلمين من وظائف . فنقلت إليها فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) وظيفة الحسبة لفظاً ومعنى . إذ كان المحتسب يتولى مراقبة الغشوش فى الصناعات المختلفة . ويراعى وجود الخبز فى الأسواق ويراقب السلع المعروضة للبيع بحيث لا تزيد الأثمان عما يقرره مجلس الحكم والدلالون والمنادون . وكان المحتسب يطوف بالمدينة

كل يوم ليقف بنفسه على أحوال أهل الأسواق ويتأكد من عدم وقوع أية مخالفة . وقد كان له فئة من العيون والأعوان تحيطه بجميع المخالفات التى لا يستطيع أن يكتشفها أو يمنعها بمفرده .

وكانت العقوبات التى يقررها المحتسب متنوعة كالمصادرة أو الإعدام أو قطع عضو من أعضاء جسم المخالف .

أما فى عصر المماليك (٦٤٨ — ٩٢٣ هـ) فقد انفرد المقريزى بتقسيم هذا العصر قسمين : يمتد أولهما إلى نهاية حكم برقوق سنة ٧٩١ ويمتاز بحسن الأخلاق وتعظيم الإسلام فأصبحت وظيفة الحسبة فى الطبقة الأولى من الوظائف الدينية وعم نفعها جميع أنحاء القطر المصرى . إذ كان المحتسب فى القاهرة يتصرف فى أمور الحسبة بها وله نواب بالوجه البحرى . وكان محتسب مصر يعين نواباً عنه فى الصعيد . واختصت الإسكندرية بمحتسب مستقل . وقد كان محتسب القاهرة يعين من قبله نواباً عنه فى بعض أحياء القاهرة . وفى بعض الأحيان يختص بعض هؤلاء النواب بالنظر فى بعض فروع الحسبة مثل مراقبة الخبازين أو الحلوانيين أو الطباخين أو الشوائين . وعلى الرغم من حدوث كثير من الأوبئة والمجاعات فى هذا العصر . فقد استطاع المحتسبون توفير المواد الغذائية للشعب وساهم السلاطين بفتح شونهم وتوزيع الغلات على الطحانين والخبازين .

أما فى العصر المملوكى الثانى فقد كان المماليك يجلبون فى أثنائه رجالا من أرباب الحرف والصنائع وتركوهم من غير تربية فصاروا أرذل الناس وأجهلهم بأمور الدنيا وأكثرهم إعراضاً عن الدين . واستطاع كثير منهم الوصول إلى وظيفة الحسبة بالرشوة والتقرب للسلطان . ففسدت أمور الوظيفة . وساءت الأحوال الاقتصادية تبعاً لذلك وتبعاً لظروف أخرى مثل احتكار السلطان لبعض المواد كالصابون والأخشاب والزيت وبيعها بأثمان مرتفعة . وكثرة الضرائب التى فرضها المحتسبون على أهل الأسواق وتواطؤهم معهم فأسرفوا فى الغش والتدليس وعدم الاكتراث بمصالح الجمهور . واضطراب الفلوس حتى أصبح التعامل بها بالوزن . فإذا أضيف إلى هذه العوامل فساد الأداة الحكومية وارتفاع إيجارات الأراضى وأثمان التقاوى والمواشى وضيافات عمال الحكومة فى القرى . وما يطلب

من الفلاحين من كرى المصارف والأعمال العامة . وهجرة السكان وعدم الأمن وكثرة الأوبئة والمجاعات . تبين لنا إحساس الناس على اختلاف طبقاتهم بوطأة الغلاء . وأمكن تعليل المظاهرات المتعددة التى كان يقودها العامة ضد المحتسبين وبعض السلاطين . واكتفى المحتسبون فى هذا العصر بتعليل هذا الفساد بانتشار الفجور والمنكرات وخروج الذميين عن القيود الشرعية فحرموا على النساء الخروج إلى الأسواق والسير وراء الجنازات والتردد إلى الحمامات وإلزام أهل الذمة بالقيود الشرعية . وهذا الفساد يفسر لنا السبب فى فشل المقريزى فى تأدية أعمال الحسبة فى هذا العصر وذلك لأنه ليس لديه من الوسائل ما يستطيع بها أن يرضى السلطان . ويمنعه دينه وتقواه أن تمتد يده إلى أكل أموال الناس بالباطل . ولعل هذا الفشل هو الذى دعاه إلى أن يؤلف بعض الكتب المتصلة بأعمال الحسبة فى مصر مثل إغاثة الأمة بكشف الغمة وشذرات العقود فى ذكر النقود والأوزان والأكيال الشرعية .

ولما أصبحت مصر ولاية عثمانية منذ سنة **٩٢٣** هـ تغيرت عملتها وموازينها ومكاييلها . فنشط المحتسبون فى أوائل هذا العصر فى تأدية وظيفتهم . إذ كان المحتسب يطوف بالقاهرة كل يوم ثلاث مرات لمراقبة السوقة ومعاقبة الطحانين والخبازين ويسعر المواد الغذائية كاللحم والجبن والدقيق . وقد شاهد السائح ليو الأفريقى الذى زار مصر فى ذلك الحين (سنة ١٥١٧ م) المحتسب يضرب الباعة ويخرم أنوفهم ويعلق الخبز عليها . وكان يتبعه كثير من الفقراء يجمعون الخبز المصادر بسبب نقص الوزن . كما رأى السائح الفونس Lucas عند زيارته للقاهرة فى القرن الثامن عشر الميلادى — المحتسب ممتطياً جواداً يتبعه عشرون من الانكشارية مزودين بالعصى . وكان بركابه جلاد يحمل الميزان والصنجات . فإذا وجد الخبز ناقصاً عن الوزن المقرر أمر بضرب المخالف بالعصى على قدميه . ويخرم أنفه وتعليق الرغيف بخيط غليظ فيه .

وقد تأثرت هذه الوظيفة بما كان يحدث بين طوائف الجند من فتن وحروب وبما حاق بسلطة الوالى من الضعف . فاحتمى بعض أرباب الحرف بزعيم عزبان . واحتمى أكثرهم بزعيم الانكشارية وهو والى الشرطة . ووضع كل تاجر

شارة على حانوته تدل على الوجاق الذى ينتمى إليه . وكذلك رفعت مراكب التجار أعلام الوجاقات المختلفة التى تحتمى بها فضعفت سلطة المحتسب واشتط التجار فى رفع الأسعار حتى يتسنى لهم دفع ما قرر عليهم لأرباب الوجاقات وصار من أعمال المحتسب المحافظة على النظام أثناء الدروس التى كانت تلقى بالأزهر . والفصل فى المنازعات التى تحدث بين المجاورين . أو بين هؤلاء وبين الأهالى بعد أن يعجز مشايخ الأروقة وشيخ الأزهر عن الفصل فيها . وكان المحتسب يتعهد أحياناً بجراية الأزهر إذا توقف القائم بهذا العمل عن أداء مهمته .

ولما كانت وظيفة الحسبة قد أصبحت فى هذا العصر التزاماً صريحاً فقد صار لمتوليها الحق فى جمع العوائد والرسوم من السوقة ليدفع المطلوب منه وكان يتعهد أحياناً بشراء المواد الغذائية للدولة فيشترى الجبن والبصل لغذاء الجنود المعينيين للقلاع وفقراء سيدى أحمد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقى ووالى بحر النيل والبحارة . ويشترى أيضاً الحماض اللازم لصناعة أشربة وأدوية السلطان . والدقيق المطلوب لعمل البقسماط الميرى . والزيت المطلوب لسراى الوالى . وقد جرت العادة بخصم أثمان هذه الأشياء من أصول التزاماته .

واحتفظ الفرنسيون — عقب دخولهم إلى القاهرة — بمنصب الحسبة لأحد الأتراك وذلك بإشارة أعضاء الديوان الوطنى « لأن سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم » . واشتركوا مع المحتسب فى الاحتفال برؤية هلال رمضان ومولد النبى . واستخدموه فى جمع الغرامة من أرباب الحرف والصنائع ولجأوا إليه فى إدخال الطمأنينة فى قلوب المصريين عند فساد أحوالهم فى أواخر عهدهم بمصر .

ولما غادر الفرنسيون مصر سنة ١٢١٦ (١٨٠١) رجعت الفوضى إلى ما كانت عليه . وكثر تعدى الجند العثمانى على العامة وأرباب الحرف وانتشروا فى القرى واشتغلوا فى بيع أصناف المأكولات . وتولى بعضهم رياسة بعض الحرف. فضعفت سلطة المحتسب وارتفعت الأسعار واشتد الغلاء وتواطأ المحتسبون مع المتسببين . واضطر خسرو باشا والى مصر إلى إعدام والى الشرطة والمحتسب .

وشنق كثير من الباعة على حوانيتهم . وخرم غيرهم من أنوفهم . فارتاع الناس واشتد خوف أرباب الحرف واضطروا إلى إظهار ما أخفوه وتخفيض الأسعار. وكثرت البضائع والمأكولات .

وسرعان ما زالت هذه الشدة فى السنة التالية ١٢١٧ هـ (١٨٠٢) . فتواطأ المحتسب مع المتسببين فى مقابل زيادة العوائد عليهم . وجعل جزءاً منها لخزينة الباشا والكتخدا . وزادت الأحوال سوءاً فى أثناء فتن الجند ضد خسرو باشا وبعد مقتل طاهر باشا وتغلب الأرناؤط على الحكم فتوالى عزل ولاة الحسبة . ولجأ الناس إلى السيد عمر مكرم نقيب الأشراف يطلبون حمايته إلا أنه لم يستطع معالجة الأحوال إذ استعان بالمحتسب فى تأمينهم .

ولما ولى محمد على إمارة مصر سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥) أدرك هذه الفوضى بشتى مظاهرها . إذ راعه أن الإجراءات التى اتخذها المحتسب ضد الباعة وأهل الأسواق عديمة الجدوى . وتكرر على مسامع الباشا أفعال السوقة وعدم مبالاتهم بالضرب والإيذاء وخرم الأنوف والتشهير . فوقع اختياره على مصطفى كاشف كرد فولى الحسبة سنة ١٢٣٢ هـ (١٨١٧ م) وأخذ فى الطواف بالباعة والأسواق ليلا ونهاراً . ويفتش عن السمن والجبن ونحوهما . مما هو مخزون . ويدفع الأثمان لأربابه بالسعر المقرر ثم يوزعه على أرباب الحوانيت . فيبيعونه للجمهور بزيادة طفيفة . وكان يذهب إلى بولاق فى آخر الليل ليتلقى ما يرد من هذه المواد ويعرف أسعارها مضافاً إليها المكوس المفروضة عليها . فيصاحبها إلى أماكن البيع ويباشر بيعها بنفسه أو بواسطة نوابه . وقد تعرض أيضاً لما كان يرد للناس وأكابر الدولة فى السمن والبطيخ والدجاج فيشترى جانباً منها لتوزيعه على أرباب الحوانيت ويسمح بالجانب الآخر لأربابها . وتعددت أحكامه إلى بضائع تجار الأقمشة الهندية فطلب قوائم مشترياتهم . وأمر بكنس الأسواق ورشها بالماء وإيقاد القناديل على أبواب الدور والحوانيت . وأمر نصارى الأرمن والأروام والشوام بالتزام القيود الشرعية . وكان إذا سار تقدمه فريق من الخدم ثم حامل الميزان ثم فريق يحمل السياط لضرب الذي ينقص فى الميزان ويتبعه فريق من الخيالة . إلا أن هذا المحتسب أسرف فى معاقبة المخالفين بعقوبات

شاذة فأقعد بعض صناع الكنافة على صوانيهم لأنهم رفعوا الأسعار . وحطم أوانى الفخار (القلل) على رأس بائع لأنه نادى عليها بأنها من صناعة قنا بينما كانت من عمل سمنود . ولقد تقدم الباعة وأكابر البلد وكبير التجار وأهل الذمة بالشكوى إلى محمد على من تصرفات هذا المحتسب . فأمره ألا يتعدى حكمه الباعة وأن يؤدب بالكرباج ولا يستخدم الدبوس . وأشيع بين السوقة عزله فأظهروا الفرح وأخفوا ما كان ظاهراً بين أيديهم من السمن والجبن وعادوا إلى حالتهم الأولى من الغش وغلاء الأسعار .

وقد وضعت لائحة الاحتساب فى سنة ١٢٤٥ (١٨٣٠) وتتضمن الشروط التى ينبغى أن تتوفر فى المحتسب من حيث الإخلاص والصدق والسمعة الحسنة والشدة . ثم اختيار طائفة من ذوى الفطنة يتجسسون على أصحاب الدكاكين لمعرفة الغشوش فى الأثمان والأوزان . وتعيين طائفة من الشرطة للقبض على المخالفين . وتحديد العقوبات التى توقع على المخالفين كالضرب بالسوط والنفى والتشغيل بعد الضرب وإغلاق الدكان وطرد صاحبه إلى بلاده وإخراجه من طائفة الباعة .

وقد بقيت وظيفة المحتسب التزاماً حتى سنة ١٢٣٤ (١٨١٩) فألغى التزامها وأصبح المحتسب موظفاً تابعاً لديوان الخديوى منذ سنة ١٢٥٣ ﻫ وقد عين له مرتب خاص . وأصدر محمد على فى سنة ١٢٥٠ ﻫ أمراً بمنع المحتسب ومشايخ الصناع والحرف وجميع الطوائف من مطالبة الأهالى بأداء العوائد التى كانوا يأخذونها منهم ظلماً وهى عوائد الرؤية والتسعيرة . ورد ما استولى عليه المحتسب من الأهالى وإنفاقها فى الأعمال الخيرية لصعوبة معرفة من دفعها . وأمر بإعلان الأهالى بإلغاء هذه العوائد بكتابة هذا القرار على لوحات تعلق على جدران الشوارع ومفترق الطرق .

وظلت هذه الوظيفة موجودة فى أضيق حدودها بمصر بعد محمد على إلى أن نظمت الإدارة الحكومية فى عهد سعيد . فتوزعت اختصاصات المحتسب بين مصالح متعددة .

ونستطيع أن نجد مظاهر الحسبة فى الوقت الحاضر موزعة فى مصالح

مختلفة إذ اختصت المحكمة الشرعية بما يتعلق بالأحوال الشخصية وتنظيم الاحتفالات الخاصة – بالاشتراك مع محافظة القاهرة – برؤية هلال رمضان وعيد وفاء النيل أما الأسواق وتنظيمها ومراعاة الشروط الصحية بها ومراقبة المأكولات والأسعار فإن ذلك من اختصاص وزارة الصحة ووزارة التجارة والصناعة . ويتولى رجال الشرطة منع الزحام فى الطرقات ومراقبة الآداب العامة والمحافظة على سير الجنازات ومراقبة المذاهب الاجتماعية المخالفة لما هو مألوف لأهل البلد . وتشرف المحافظة على تنظيم الاحتفالات والمذابح . . . وتشرف وزارة الشئون الاجتماعية على الموالد وتنظر فى أمور العمال والملاجىء . وترك لوزارة المعارف أمر الإشراف على التعليم . ويشرف على مجالس الوعاظ إدارة المعاهد الدينية والأزهر ووزارة الأوقاف ووزارة الشئون الاجتماعية . ويكشف الموازين والمكاييل المغشوشة مصلحة الموازين والمكاييل . وتقوم مصلحة الدمغة بمعرفة النقود الصحيحة من الزائفة . وتنظر المحاكم الحسبية فى شئون أموال اليتامى والمحجور عليهم . وتراقب وزارة الصحة الصيادلة ومخازن الأدوية ومدعى الطب[١] .

السيد الباز العرينى

---

(١) محاضرة ألقيت بدار الجمعية فى ٨ أبريل ١٩٤٨ .

هرر تحت الحكم المصرى

تحتل بلاد العدال وهرر مكاناً بارزاً بين بلدان شرق أفريقيا — سواء بالنظر إلى موقعها الجغرافى أو ماضيها التاريخى . . وموضعها كمركز هام لأعمال البحث والاستكشاف . لكن رغم هذه الأهمية الكبيرة فإن هذه المناطق ظلت بعيدة عن أقلام المؤرخين ورجال البحث الجغرافى فترة طويلة استمرت حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حين زارها الرحالة بورتن لأول مرة وكتب فيها كتابه المعروف(١) .

وكان بداية ازدهار هذه المنطقة فى عام ١٨٧٥ ، حينما احتلتها القوات المصرية بقيادة اللواء محمد رؤف . . وقد عاد هذا الاستيلاء على العلم بمزايا كثيرة . فقد كان بين رجال الجيش المصرى ضباط اقتصرت مهمتهم على وصف البلدان التى يخترقونها أثناء زحفهم — ودراسة أحوال السكان وعلاقتها بالبلاد المجاورة . ورسم مدينة هرر على الخريطة . وباختصار جمع أعظم الفوائد الممكنة من النواحى الجغرافية والاثنوجرافية فى هذه الأماكن . وقد اكتسب فخراً خاصاً فى هذه الأعمال ضابط يدعى اللواء محمد مختار — إذ لم يقتصر على وصف منطقة صومال عيسى فحسب بل بحث أيضاً قبائل عيسى الكثيرة ووصفها واستكشف مدينة هرر وعلاقاتها فى أثناء إقامته القصيرة حسب الإمكان . وكذلك رسم بالاشتراك مع زميل له يدعى عبد الله فوزى — خريطة لمدينة هرر .

* * *

وبينما كان المصريون فى نشاطهم المتواصل لاستكشاف بلاد الصومال وهرر . . . وصل إلى هذه الجهات عالم نمسوى فاضل — هو الدكتور فيليب باولتشكه Philpp Paulitschkc ما أن عرف المصريون قصده — حتى تلاقت

---

(١) Burton : First Footsteps in East Africa. London 1856.

الرغبات — فأسرعوا لتقديم المساعدات والنصائح اللازمة له . . فهيأوا له بذلك الجو الصالح للدراسة والاطلاع والإنتاج المثمر . وقد أشاد بذلك فى مؤلفاته وأثنى على همة المصريين وتشجيعهم للعلم والعلماء .

ويعد پاولتشكه من الباحثين القلائل الذين عنوا بدراسة هذه الجهات دراسة مستفيضة وأخرج فيها عدة بحوث كان أهمها كتاب بالألمانية عن الكشف الجغرافى فى بلاد العدال وهرر (١) وقد تناول فيه الكلام عن بداية معرفة الناس بمنطقة شرق أفريقيا — وقدم لنا البيانات التى جمعت عن هذه البلاد منذ عهود الفراعنة والإغريق والرومان والعرب . . ثم بداية العصر الحديث أيام ماركو بولو وأصحاب الخرائط من الغرب . . وأشار بنوع خاص إلى الرحالة البرتغاليون والعلماء الجماعون لما بذلوه من جهود ممتازة فى سبيل الكشف عن خبايا هذه المناطق . ثم تناول بعد ذلك الكلام عن الرحالة المعاصرون الذين كانوا يقصدون الحبشة ويمرون بالساحل الشرقى لأفريقيا والنتائج التى وصلوا إليها والتى انتفع هو بها فى رحلته .

وكتابه الثانى (٢) عن هرر قسمه إلى قسمين . . الأول وصفى وصف فيه رحلته فى بلاد هرر وعيسى والصومال وتعرض فيه لتاريخ هرر إجمالا حتى نهاية العهد المصرى — وكان جل اهتمامه مركزاً حول جمع اكثر المعلومات التاريخية والاجتماعية عن هذه الجهات . أما القسم الثانى فعلمى أورد فيه ما قام به من أعمال فلكية ومغناطيسية وطبوغرافيه — ويومياته الجوية ثم سجل المجوعات النباتية والأحجار التى جمعها — كذلك عنى بنشر وثائق تاريخية عن هرر تبحث تاريخها منذ أيام البطل الفاتح أحمد جران الذى فتح الحبشة فى أوائل القرن السادس عشر .

أما بحثه الثالث (٣) . والذى نحن بصدد عرضه — فهو مقال نشره فى مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية باللغة الفرنسية عن « هرر تحت الحكم المصرى » .

---

(١) Paulitschke : Die Geographioche Erforschung der Ada -Lander und Harrar in Ost Afrika. Leipzig 1888

(٢) Le Harrar sous L'Administration Egyptienne (1875-1885). Bulletin de La Societe Khediviale de Geographie du Caire serie No. 10 Mars 1887.

(٣) Paulitschke; Harrar, Forschungsreise Nach den Somal und galla Landern Ost-Afrika- Leipzig 1888.

استهل المؤلف بحثه بالكلام عن حالة الفوضى التى كانت سائدة فى هرر قبل دخول المصريين . . وكيف كان أميرها محمد عبد الشكور يظلم رعيته — فى الوقت الذى أحنى فيه هامته لقبائل الجالا المجاورين له — خوفاً . . وذلك لما لمسه فيهم من قوة الشكيمة .

ثم انتقل إلى الكلام عن الفتح المصرى والظروف التى لابسته . فقال أن القوة المصرية التى ذهبت لفتح هرر بقيادة اللواء محمد رؤف للاستيلاء على هذه الجهات لم تكن كبيرة العدد إلا أنها لم تجد مقاومة بالمرة . . بل على العكس — تقابل فى كل مكان بوفود من أعيان الجهة التى تحل بها — يقدمون للقائد المصرى الطاعة والولاء .

والظاهر أن الجالا قد خشوا من وجود منافس قوى لهم فى هرر — وهذا هو السبب الذى دعاهم إلى التصدى للقوات المصرية فى منطقة إيغو . ولكن اللواء رؤف بذل جهداً استطاع فى نهايته أن يقضى على مقاومتهم ويهزمهم فى واقعتين استمرت أحدهما سبع ساعات . وكانت هاتين الواقعتين هما كل المقاومة التى صادفتها القوات المصرية فى زحفها . وفى يوم ١١ أكتوبر دخل رؤف باشا هرر فى قوة مؤلفة من ١٥ أورطة من المشاة — وبعض مدافع جبلية و٢٠٠ جندى باشبوزق . ونقل مركز قيادته إلى سراى أمير المدينة الذى قدم لزيارته وتبادل المجاملات معه . وقد قدم إليه القائد منحة تبلغ ٨٠٠ ريال له و٢٠٠ لابنه و٢٠٠ لعائلته .

ثم تناول باولتشكه بعد ذلك الحالة العامة فى هرر . . فتحدث عن التدهور الحالى والاقتصادى والسياسى الذى وجد عليه رؤف باشا هذه البلاد . . فقال إن هذه المقاطعة التى كانت مزدهرة من عهد أحمد جران فى القرن السادس عشر أصبحت فى حالة من الفساد يرثى لها . . وليس أدل على ذلك أنها لم تعد تستطيع السيطرة على شبر واحد من أراضى الجالا المجاورين لهم . كما أن الطبقة الوسطى لم يعد لها كيان — وأصبحت تحت رحمة الطبقة الحاكمة . . وذلك لأن أفرادها تهاونوا فى حقوقهم . أما الصناعة والتجارة فلم يعد لها نشاط يذكر .

وكان أول عمل جليل فكر فيه المصريون هو إنقاذ البلاد من غارات الجالا

ورأى رؤف باشا أنه فى حاجة إلى إمداد . . فكتب بذلك إلى المختصين . وفى الشهر الرابع من دخوله هرر — وصله مدد مؤلف من أورطتين مشاة وبطارية مدافع جبلية و ١٠٠ جندى باشبوزق — تحت قيادة عبد القادر باشا ونادى باشا . ثم ما لبث أن أرسلت له قوة ثانية بقيادة الضابط محمد مختار . وبفضل هذه الإمدادات تحسن مركز المصريين فى هرر — وصار فى إمكانهم مدافعة الجالا والانتصار عليهم — رغم الصعوبات التى صادفتهم — وكان النصر حليفهم فى النهاية .

* * *

وقد رأى رؤف باشا أن يقوم بأعمال يدعم بها الحكم المصرى — فوضع نظاماً لحفظ الملكية — وبنى فى هرر محلا مخصوصاً للحكمدارية وأربع قشلاقات للجنود — وجامعاً وعدداً كبيراً من المنازل .

ومن المعروف أن رؤف باشا كان الآمر الناهى فى هرر — لأن الأسرة الحاكمة التى كان مفروضاً أن يرجع إلى أميرها لاستشارته — توفى عميدها فى بداية العهد المصرى — ولم يكن هناك أحد جديراً بثقة الأهالى والحكومة المصرية ليحل محله فى منصب الإمارة . وقد تمكن رؤف باشا بفضل ما تحلى به من الخلق الكريم — أن يأسر قلوب الأهالى وينزل فى نفوسهم مكاناً رفيعاً حتى لقبوه « بالوالد » . وقد بلغ من شدة عطفه على الأهالى أنه لم يفكر يوماً فى استخدامهم للقيام بالأعمال العمرانية التى قام بها والتى استلزمت نوعاً من السخرة . . بل فضل أن يقوم العساكر المصريين بهذه الأعمال الشاقة . فكان ذلك مدعاة لحقد جنوده عليه — وشكوه فعلا للجنرال غوردون حكمدار السودان — حينما زار هرر فى رحلة تفتيشية سنة ١٨٧٨ . وما أن تأكد غوردون من أن رؤف يجامل الأهالى ويخطب ودهم — حتى ساورته الوساوس فى أنه يريد الاستقلال بهرر . ومن ثم عمل على إرجاعه لمصر فوراً . وتم تعيين رضوان باشا حاكم بربره محله — الذى ما كاد يشرع فى مواصلة أعمال سلفه العمرانية حتى انتشرت الشائعات عنه بأنه يساعد على تجارة الرقيق فاستبعد من منصبه — مع أن هذه التهمة لم يكن

لها نصيب من الصحة .

* * *

وفى يونيو عام ١٨٨٠ – تم تعيين محمد نادى باشا حاكماً على هرر – وكان نادى باشا مثالا للحاكم اليقظ الحازم – فاستطاع أن يوطد الأمن فى البلاد والقيام بأعمال نافعة لتنظيمها . . وأقر النظام بين العساكر المصرية مما أكسبه تقدير الجميع – وفى عهده أطلق حرية المذاهب وحرية الدين . فأباح للمرسلين الكاثوليك بمزاولة نشاطهم الدينى . . كما أنشأ الحصون ودعم الدفاع . ثم أنه كان حريصاً على توسيع نطاق التجارة فى بلاده لأنها أساس اقتصادياتها وبادل المتاجر مع الأوربيين . . كما أنه عمل على تشجيع الزراعة ودفعها إلى الأمام وقد زاد عدد العساكر المصرية فى هرر زيادة كبيرة فى عهده . . ولكن رغم كل هذه الجهود التى بذلها نادى باشا للنهوض بهرر – إلا أنه لم يسلم من الوشايات والدس . . فقد أتهم بعده أمور باطلة . . استدعى على أثرها إلى القطر المصرى وعين بدلا منه على رضا باشا . . وقد امتاز بالحلم ودماثة الخلق حتى اكتسب محبة الجميع – وعلى عهده تحسنت الأحوال فى هرر – وكان أبرز ما قام به – هو مقاومته لأدعياء الطب والضرب على أيديهم فأنقذ بذلك الأرواح من جهلهم .

* * *

بعد ذلك انتقل الكاتب إلى الكلام عن الفترة التى غادر فيها المصريون هذه الجهات – فقال أنه فى عام ١٨٨٤ – اقتضت الأحوال السياسية استدعاء العساكر المصريين من جميع بلاد هرر . وقد نزل هذا الخبر على الأهالى نزول الصاعقة – وخاصة بعد ما علموا بتعيين نجل الأمير – عبد الله عبد الشكور أميراً مستقلا عليهم .

وقد تمت الإجراءات التمهيدية فى شهر نوفمبر لترحيل المصريين الموجودين بهرر وعددهم ٨٥٧١ نفساً – وذلك حينما قدم إليها رضوان باشا – ومعه بعض الضباط الإنجليز بقصد اتخاذ التدابير اللازمة لإخلاء هرر من العساكر المصرية .

وكان لقرار الإخلاء هذا أثره السيء بالنسبة للحكومة المصرية — والمصريين الموجودين بهرر . . فقد أصيب الطرفان بخسارة جسيمة . فالحكومة تحملت وحدها نفقات الإخلاء وتصفية أملاكها بلا مقابل — أما المصريين (جنوداً وضباطاً وموظفين) . . فمن المعروف أنهم كانوا قد عملوا على الاستقرار التام فى هذه البلاد — فتزوجوا من بناتها واشتروا الأراضى الفسيحة . . ولكن فى لحظة وجيزة انقلبت الأمور على غير ما توقعوه . . واضطروا مكرهين إلى بيع هذه الأراضى بأبخس الأثمان .

ثم عرض بولتشكه بعد ذلك ما قام به الحكام المصريون إجمالا فى هرر — فقال أنهم ركزوا جهودهم ومزيد اهتمامهم بشئون الأراضى وزراعتها — وخاصة حينما عرفوا أن أراضى هرر من أخصب الترب فى أفريقيا . كذلك كان من بين الأمور الجليلة التى قامت بما الإدارة المصرية — هو قضائها على كل ما يهدد الأمن — فنشرت بذلك الطمأنينة والسكينة — وأصبحت القوافل القادمة من زيلع تسير آمنة لا يهددها خطر قطاع الطريق . كذلك أنشأت عدة مراكز حربية لوقاية البلاد وحفظ النظام فيها . . كما أنها أسست مدينة جالديسا وفتحت الطريق منها إلى هرر وبلادشوا . . وجلبت المياه إلى الطريق المذكور .

وقد عمت إصلاحات الحكام المصريين جميع مناحى الحياة فى هرر . فمن الأمور التى عنوا بها تنظيم عقود الزواج ؛ وتسجيل الممتلكات بكافة أنواعها كالمنازل والبساتين والاهتمام بشئون الصحة — فأقاموا مستشفا كبيراً أمام باب الترك[1] — كما أصدرت الإدارة المصرية أوامرها المشددة بضرورة إبلاغها عن كل حادثة وفاة تقع حتى ترخص لها بالدفن . . فتقوم بهذا الإجراء المتبع فى البلدان المتمدينة . كذلك نظمت تلقيح الأطفال فمنعت الطريقة التى كانت سائدة أيام الأمراء والتى كانت تؤدى بأرواح الكثيرين منهم . . كما عمل الحكام المصريين على القضاء على كل ما يهدد الصحة . . ومن ذلك الأمر الذى أصدره رضوان باشا بمنع شرب البوظة وتعاطى القات . . وبالإجمال كل

(١) وهو أحد الابواب الخمسة التى تخلل سور مدينة هرر

المشروبات والمكيفات المضرة بالصحة .

ثم أورد باولتشكه بعد ذلك إحصاء ليدلل به على مدى عمر ان هرر فى ظل الحكم المصرى . . فقال أن عدد سكانها عام ١٨٧٥ – أى عندما دخلها المصريون – كان ٣٠,٠٠٠ نسمة فى حين بلغ عددهم عام ١٨٨٥ حينما غادروها ٤٢,٠٠٠ نسمة . وكان فى هرر عام ١٨٧٥ ٦,٠٠٠ منزل و ٢,٠٠٠ كوخ – وفى عام ١٨٨٥ – بلغ عدد المنازل ٨,٠٠٠ وعدد الأكواخ ١,٥٠٠ .

وتكلم بعد ذلك عن إصلاحات أخرى قام بها المصريون . . فقال أن الأحوال التجارية كانت فى تقدم مستمر من سنة إلى أخرى . وازداد عدد التجار – وأصبحت العملة المصرية هى السائدة بعد أن انعدمت قيمة العملة التى كانت مستعملة أيام الأمراء . أما عن الرسوم الجمركية فإنها زادت على بعض أصناف البضائع فى الوقت الذى نقصت فيه بالنسبة لكثير من الواردات الضرورية التى يحتاج إليها الأهالى .

ومن الأعمال المشرفة التى قامت بها الإدارة المصرية – هو تضييقها الخناق على تجارة الرقيق . . وقضت على نشاط النخاسين . وكذلك عملوا على تشجيع تجارة الصمغ والعاج . وليس أدل على ازدهار التجارة أيام الحكم المصرى – أن عدد القوافل التى كانت تصل إلى هرر أيام الأمراء كان سبعون قافلة . . ووصل هذا الرقم إلى ٤٠٠ أثناء العهد المصرى . كما أن عدداً كبيراً من التجار الهنود والإيطاليين واليونانيين استوطنوا هرر – وكانوا كلهم يشتغلون بالحرف المختلفة التى عادت بالفائدة على البلاد .

وفى الوقت الذى نشطت فيه التجارة . . وجه المصريون جهودهم أيضاً نحو الزراعة فزرعوا العنب والرمان والخوخ والليمون وجميع أنواع الفواكه والخضروات التى كانت تزرع فى الدلتا والصعيد كالقمح والشعير وقصب السكر والبطاطس وغيرها .

وقد أدى هذا النشاط الكبير فى ميدانى التجارة والزراعة فى هرر – إلى نشاط مماثل فى كل مدن وقرى الجالا المجاورة . . وخاصة تلك التى أعجبت بالحكم المصرى فانضوت تحت لوائه .

وقد ختم المؤلف مقاله بقوله أنه يقرر بأن كل شخص يطوف بهذه البلاد يعلم ويرى مقدار تعلق الأهالى بالمصريين – وحبهم وحنينهم إلى عهدهم المذهر وتأسفهم البالغ على زوال الإدارة المصرية فى هذه الجهات .

محمد المعتصم سيد

الدين والفلسفة والتاريخ

تأليف

كلمانت — وب

ترجمة

توفيق الطويل

كان خطأ يميز مائة العام الماضية أن يظن فى غير تمحيص أننا نقوم بتفسير وجه من وجوه العالم حين نقدم فى الواقع وصفاً لأحداثه السالفة — وفترة مائة العام الماضية قد شاهدت فى أكثر مجالات التفكير والبحث تقدماً ملحوظاً فى معلوماتنا وفهمنا للأحداث السالفة لعالمنا الراهن مادياً وأدبياً فى ذلك العالم الذى قدر علينا أن نعيش فيه — ولكن الخوف من ارتكاب هذا الخطأ يجب ألا يفضى بنا إلى الوقوع فى خطأ يقابله ، هو عدم الرغبة فى الوقوف على ما يجب معرفته عن حقيقة حاضرة عن طريق دراسة أصلها ونشأتها ؛ ويبدو لنا عند النظر فى وجوه النشاط الثلاثة — التى نسميها بالدين والفلسفة والتاريخ — أن من الأنسب أن نبدأ دراستنا للعلاقات المتبادلة بينها بأن نلاحظ أنه يبدو أن علم التاريخ — بالمعنى الشائع الذى يراد به البحث فى ماضى الحياة الإنسانية — وأن الفلسفة — بمعنى البحث فى الطبيعة القصوى للعالم الذى وجدنا فيه أنفسنا والذى نحن جزء منه — يبدو أن التاريخ والفلسفة — بهذين المعنيين — قد نشئا فى أول أمرهما فرعين من فروع الدين .

بل إن فى هذا الدور من تطور الدين ، عندما أخذت تتميز نواة الفلسفة والتاريخ ، كان الدين نفسه لا يزال عملياً ، وهو لا يمكن فى الواقع أن يكون غير ذلك ، بمعنى أنه اعتبر على وجه الإجمال سبيلا لتحقيق الخير العام لأولئك الذين كانوا يزاولونه ، فإن هؤلاء كانوا يحاولون إيجاد علاقات مع القوى الخفية التى تحيط بهم عن طريق يؤدى بهم فى النهاية إلى تكوين عقيدة أو مذهب

(١) فى المقال تركيز فى المعنى ووعورة فى الأسلوب ، اضطررت معهما إلى الاستعانة فى بعض الفقرات بالصديقين الدكتور زكى نجيب والدكتور ياسين العيوطى (المترجم) .

دينى ، وذلك لأنهم كانوا يحاولون أن يكسبوا لأنفسهم مركزاً يمكنهم من أن يقولوا على مساعدة هذه القوى الخفية التى تكتنف حياتهم من الداخل والخارج والتى تعترض طريقهم وتحوم حول فراشهم وترقب كل أعمالهم » وأن يعتمدوا عليها فى إشباع شهواتهم ورغباتهم أو فى عدم الوقوف حائلا بينهم وبين إشباعها على أقل تقدير .

وعن هذا الطريق نشأت محاولة — اتخذت فى أول أمرها شكلا تصويرياً أو تخيلياً — وكانت تهدف إلى تكوين فكرة عن حياتهم وبيئتها ككل أى عن عالم الحقيقة ، فكان هذا بداية الفلسفة .

ولما كان الإنسان البدائى قد واجه العالم كفرد فى جماعة بشرية بعينها قد نشأ بينها ، ولما كان يأمل فى الانفاق مع أفراد هذه الجماعة عن طريق تعلمه للعادات التى اصطنعتها فى التعامل مع هذا العالم ، فقد نشأت عنده رغبة تهدف إلى معرفة العلاقات التى قامت فى الماضى بين هذا العالم وتلك الجماعة البشرية ، وكانت سبباً فى نشأة تلك العادات ، وقد كانت هذه الرغبة بداية علم التاريخ .

وعلى هذا فإن علينا أن نلاحظ فى هذا المقام — حتى نتفادى الوقوع فى الخطأ الذى ألمعنا إليه فى أول فقرة من فقرات هذا البحث — أن هذا الوصف الذى يتناول تجارب الإنسان البدائى فى الدين والفلسفة والتاريخ ، لا يفسر قدرته على التفكير الرحب فى مقدمات الأمور ونتائجها ، بل يفترض فيه مقدماً هذه القدرة التى تميزه من غيره من الحيوانات ككائن ناطق عليه أن يناضلها ليحتل مكانه تحت نور الشمس .

وقد مرت تجارب الرجل البدائى بمراحل طويلة الأمد حتى بلغت به ديانة القديس الذى ينشد رؤية الله التى وُعد بها الذين أوتوا صفاء القلب ، وأوْصلته إلى فلسفة المفكر الذى يود أن يكون كما قال أفلاطون « الذى يرقب الزمان والوجود جميعاً » ، وانتهت به إلى التاريخ عند المؤرخ الذى يجعل مثله الأعلى أن يستعرض ماضى البشرية كخطة فريدة موحدة ، من غير أن يتسرع فى إصدار حكم مبتسر لا يجد ما يبرره ، أو يتعصب لعقيدة أو يتحزب لوطن أو يتشيع

لجنس ؛ ومع ذلك فإن هذه الأشياء جميعاً (الدين والفلسفة والتاريخ) ما كان يمكن أن تصدر عن هذه المحاولات الفجة البدائية ما لم يكن هناك بالفعل ذلك الشيء الباطني الذى يسميه الفلاسفة « بالعقل » ويسميه رجال اللاهوت بصورة الله .

بيد أن المشكلة التى يعالجها هذا البحث هى العلاقات المتبادلة بين وجوه النشاط الثلاثة التى كنت أتحدث عنها ، ويرى أحد المفكرين الممتازين من المعاصرين أن الدين ليس إلا صورة فجة للفلسفة ، لابد أن تبدو لكل خارج عن « دائرة الفلسفة السحرية » كما لو كانت مجرد أساطير خرافية، ولا بد أن نتوقع إبطال هذه الأساطير تدريجياً عن طريق التفلسف الصحيح ، كنتيجة ضرورية لانتشار التنوير وإشاعة العلم والمعرفة ، وإن كان هذا التنوير لن يمنع من أن يوجد على الدوام قوم هم دون المتوسط الذى يحق لنا أن نتوقعه من حيث الثقافة والإنتاج العقلى .

وليس هذا بالرأى الذى يثير العجب عند فيلسوف يستطيع أن يرى مع « بنديتو كروتشى » أن الدين ليس إلا صورة من صور الإدراك المحض للنشاط الروحى ، فإنى أعتقد أن ليس فى وسعنا أن ننكر — كما أشرت من قبل عندما تحدثت عن البدء الدينى للفلسفة — أن الإنسان قد بدأ يتفلسف حين فكر فى الدين ، أى حين أخذ يكون فكرة عن العالم ككل ، وبما أنه لا شك فى أن هذه المهمة — تكوين فكرة عن العالم ككل — تقع بتقدم المدنية على عاتق الفلسفة شيئاً فشيئاً ، فإن النتيجة التى تترتب على هذا — فيما يبدو — أن الفلسفة — إن كانت هذه هى وظيفة الدين الوحيدة — لابد أن تغتصب فى نهاية الأمر مجال الدين كله ؛ ولكنى لا أعتقد أن هذه هى وظيفة الدين الوحيدة ، ففى الدين ينشد الإنسان الاتصال بما يظن أنه يقوم وراء كل تجاربه ، بل وراء نفسه التى تقوم فى نفس الوقت بهذه التجارب (أى بالله) ، إنه لا يقنع بأن يدركه باعتباره شاملا لمبدأ الحياة الأقصى ، ونعنى به سر الوجود ، بل يتوق إلى الائتلاف معه بحيث لا يصبح موضوعاً للمعرفة فحسب ، بل يصبح فى مثل هذا الائتلاف رفيقاً — كالحال مع أقرانه الذين يدرك فيهم ذلك النوع من

الوجود الذى يستشعره هو نفسه ، والذى لا مفر من أن يصبح — ضمنياً على الأقل — مستواه الذى يعيش به الحقيقة المحسوسة .

إن مدرسة معاصرة من متفلسفة رجال اللاهوت فى ألمانيا قد أحسنت صنعاً حين استرعت النظر إلى الخبرة النفسية التى نعبر عنها باستعمالنا لضمير المخاطب ، أشارت إلى أن نظريات المعرفة كثيراً ما تتجه إلى إهمال هذا وتقنع — بالتعبير عن إدراكنا لجارنا بضمير الغائب « هو » كأحسن وسيلة نستخدمها لفهم الطبيعة الروحية التى تصلنا به ، واعترافنا بأن هذا الاتصال الاجتماعى إنما يكون مستوى روحياً من مستويات الخبرة النفسية أعلى من ذلك المستوى الذى كنا ننظر فيه إلى الشخص الآخر كأنما نتأمل شخصاً غائباً ، هذا الاعتراف يقتضى اعترافاً آخر يسايره ، يتعلق بعلاقتنا بالله كما نعبر عنها فى الدعاء والعبادة والابتهال والخشوع ، لو اتخذنا هذا وسيلة تكشف لنا عن الطبيعة الإلهية لوجدناها وسيلة أوفى من أية وسيلة أخرى نلتمسها فى التأمل الذى يتم بمعزل عن الاتصال الدينى الذى يكون من هذا النوع .

ومن الحق الذى لا ريب فيه أن الدين يستخدم — ومن واجبه أن يستخدم لغة وصوراً خيالية للتعبير عن هذه التجربة ، وليس الدين وحده هو الذى يستخدم هذا الأسلوب من التعبير ، فإن العلم نفسه — وهو الذى تبدو الأساطير الخيالية أقل وجوه نشاطنا الروحى ملاءمة له — لا يحتقر فى بعض الأحيان الاستعانة بهذه الأساليب الخيالية كل الاحتقار ، بل علينا أن نعترف بأن هناك خطراً حقيقياً يستهدف له الدين ، ذلك أن من الممكن أن تؤخذ الأساطير الخرافية على غير وجهها الصحيح ، فهؤلاء الذين هم فى مستوى الأطفال فهماً — إن لم يكن عمراً — لابد أن يتكلموا وأن يفكروا وأن يشعروا كما يفعل الأطفال ، ولكن إذا استمر هؤلاء على أن يستهويهم الخيال كما استهوى الحواريين عندما طلب إليهم « أن يتحرروا من الأمور الصبيانية » فإنهم يستهدفون لخطر جسيم ، هو أن يجدوا إيمانهم قد شوهه قصور اللغة والصور الخيالية المألوفة والتى تعجز عن التعبير عن تجربتهم الروحية ، ومع هذا ألا نكون قد « أطرحنا جانباً الثمين مع الغث » إذا نحن استبعدنا كمجرد خرافات تلك المعتقدات

(كحقيقة نفوسنا ونفوس الغير) ، تلك التى لا نكف عن افتراض وجودها حتى حين ننظر إليها على أنها قد تلاشت تحت تأثير النقد الفلسفى ؟ ومع ذلك فإن من المهم جداً — إن لم يكن للدين مباشرة فلعلم اللاهوت على أقل تقدير ، ومن ثم يكون من المهم للدين عن طريق غير مباشر أن النقد الفلسفى يجب أن يباح بكل حرية ممكنة ، بل حتى مثل هذه المعتقدات التى أسلفت ذكرها يجب ألا ينظر إليها على أنها مقدسة أو فوق النقد والتمحيص ، بل يجب أن يسمح لها بالاعتماد على ما فيها من ثبات ذاتى حقيقى فى مقاومتها لقوة النقد الهدام مقاومة فعالة .

والفلسفة فى انفصالها عن أبيها « الدين » واستقلالها بكيانها إنما تعد نفسها لأداء مهمتها الخاصة ، وهى إشباع حاجة العقل إلى البحث النظرى ، ولاشك أن الفلسفة محقة تماماً فى محافظتها على استقلالها داخل مجالها الخاص ، وفى رفضها الانصراف تحت تأثير اعتبارات عملية أو خلقية أو دينية عن محاولتها الجادة فى البحث فى المشاكل التى تقدم إليها — لا عن طريق ما نسميه با تجربة العلمية وحدها ، بل عن طريق أى نوع من أنواع التجارب ، ويدخل فى هذا تلك التجارب التى نطلق عليها الألفاظ التى ذكرتها الآن ، وهى التجارب العملية والخلقية والدينية ، ولكن الفلسفة ليست محقة فى أن تتجاهل أنها هى ذاتها نشاط للنفس الواحدة التى نعتبر أيضاً مشاركة فى كل هذه التجارب والتى نستشعر وحدتها فى كل هذه الحالات ؛ ولسنا نتحدث الآن بلغة « كانت » Kant إلا أن علم الأخلاق عند « كانت » يقوم على اقتناعه العميق بأن النفس البشرية فى شعورها بالتبعة الخلقية — وهى على الأقل أصل من أصول الدين — تعرف أن فيها شيئاً أكثر جوهرية وضرورة من هذا النشاط النظرى الذى إن نظرنا إليه مجرداً عنها رأيناه عند موازنته بها فرعاً لها ؛ بل إن صفوة الرأى فى الدين نفسه عند « كانت » مهما كانت طرق التعبير عنده غريبة أو ملتوية ، يتلخص فى النهاية فى أننا فى نظرنا إلى الدين نضطر بحكم العقل إلى افتراض وحدة بين التأمل النظرى والسلوك العملى ، وهى وحدة لا يتطرق إليها شىء من الشك .

إنى لا أريد أن أصبح داعياً : فلنعد إلى « كانت » ، أو أن أستخف

بجهود خلفائه ، بل إن وجوه مذهبه التي تعتبر أكثر نواحي فلسفته تعرضاً للنقد ، كثيراً ما يمكن ردها إلى أن إحساسه ببعض نواحي المشكلة التي يعالجها ، يفوق إحساسه ببعض وجوهها الأخرى التي يبدو علاجه لها ناقصاً أمام نقاده .

وفي هذا البلد (إنجلترا) مفكر ممتاز (١) قد قدم لنا حديثاً رأياً دعمه بالحجج القوية ، وهو رأى يختلف كل الاختلاف مع وجهة النظر التي أشرت إليها في الفقرة الأخيرة ، فقد فصل فصلا تاماً بين الحياة أو العمل وبين الحق فوصف الأول بأنه « توقف للخبرة الشعورية » تلك الخبرة التي تواصل الفلسفة في بحثها عن الحق الأقصى مباشرتها ، بصرف النظر عما يكشفه النقد الفلسفي من عدم ترابط الأفكار التي تفرضها الحياة العملية ، ويعتبر المؤلف الدين قائماً في مجال هذه الحياة العملية ؛ وهكذا أصبح الحق — وهو هدف الفلسفة — يقابل الحياة ، وبالتالي يضاد الدين الذي يعتبر جزءاً منها ؛ ولكن حتى باعتراف هذا المؤلف الذي ينتصر لعالم الحق على عالم الحياة ، ويتحمس للفلسفة بمعناها الذي يبعد كل البعد عن المعنى الذي ذهب إليه « أفلاطون » : « التأمل في الموت » ، نرى من واجبنا في نهاية الأمر — ما دمنا لا نستطيع أن نتفلسف إلا إذا قدر لنا أن نحيا — أن نصيح : « فلتمت الحقيقة ولتبق الحياة » ، وأن نعود كما عاد حراس جمهورية أفلاطون المثالية من رؤية الحقيقة في أكمل صورها إلى كهف الحياة العملية ، ولو أننا سنعود — خلافاً لهم — من غير أن نحسن قدرتنا على معالجة المشاكل اليومية إطلاقاً عن طريق مشاهدتنا لهذا المنظر الذي تسكرنا نشوته ، بل قد يبدو على العكس أن رؤيتنا الإلهية للحقيقة في أكمل صورها قد انتزعت على الأرجح روح حياة الإنسان في هذه الدنيا ، بل انتزعت الروح من ذلك الدين الذي ربما كان — لولا هذا — قد بعث الروح في هذه الدنيا حين أبان لنا أن له نتائج في عالم أسمى يقوم وراء عالمنا أو داخله ؟ إن النظرية تدعو إلى القلق وليس من الميسور في هذا المقام أن نمحصها بنفس الجد والإخلاص الذي لا شك يستحقه الدفاع عنها ، وما من شك في أنها جديرة ببراعة التدليل التي بدت في تأييدها ، ولكني لا أرى مفراً من الاعتراف بأني غير

(١) M. Oakeshott, Experience & its Mode, Cambridge, 1933.

مقتنع بأننا لو جعلنا التناقض شرطاً لازماً للعناصر الضرورية للحياة ، فإننا بذلك نكون قد أيدنا دعوانا فى تحليل الخبرة إلى عناصرها الحقيقية ، حتى الحياة الدينية التى يجعلها أصحابها على شىء من التعارض مع صور الحياة الأخرى — أى الحياة بمعناها الحقيقى ، بل لا أظن أن فى إمكان الدين أن يحتذى حذو العلم والتاريخ اللذين يؤديان مهمتهما وهما أشد ما يكونان نفوراً من ادعاء الفلسفة حق التدخل فى قيامهما بمهمتهما بإثارة الشك فى المبدأ الأول الذى صدر عنه العالم الخارجى أو صدرت عنه الظواهر التى تتتابع تتابعاً زمنياً ، فإن مثل هذه الشكوك لابد أن تبدو فى نظر العلماء والمؤرخين خارجة عن نطاق بحثهم ، إذ لا يعنيهم إلا الآراء التى تخضع للقياس ، أو الحوادث التى يتبع بعضها بعضاً ، مهما كانت المصاعب التى قد تثيرها هذه المشاكل أمام الناقد الميتافيزيقى ، ولكن رجل الدين ينظر إلى هذه الأمور بمنظار آخر ، قد يكون مهيئاً لأن يقبل قصور الرمزية التى تشكل لغته وتحدد شكل عبادته ، ولكنه إذا لم يكن معنياً بالبحث فى الحقيقة القصوى — بمعنى أن أى طريقة (غير الطريقة الدينية) للكشف عن طبيعتها لا يمكن أن تهدم اقتناعه العميق بوجودها فى شعوره الدينى ، فإنه لابد أن يعترف بأنه قد ضُلل ، وأنه افتقد كل ما يبرر استمراره فى مزاولة دينه ، إنه — إن كان يهتم بالنقد الفلسفى أدنى اهتمام — لا يستطيع إخلاصا لدينه وتمسكاً به أن يسلم بصدق هذا النقد ، فى نفس الوقت الذى يرى فيه أن هذا النقد خارج نشاطه ، كما يستطيع هذا رجل العلم أو رجل التاريخ ، بل إن من واجب كل منهما فى الواقع أن يؤكد ولاء لمهنته أن هذا النقد مهما كان حقاً فإنه خارج عن ميدان بحثه ، إن موضوع البحث عند رجل الدين يجب أن يكون البحث عن « الحقيقة والحياة » .

والملاحظ أن ليست الفلسفة وحدها هى التى تنحدر نشأتها إلى الدين ، بل إن التاريخ يرجع أصله إلى الدين كذلك ، إن من المحتمل أن تثير العبادات التى تهدف إلى إقرار العلاقات الودية والمحافظة عليها قائمة بين جماعة من البدائيين وبين القوى الخفية التى تحدق بحياتهم — والتى يبدو أن استمرار حياة هذه الجماعة وسعادة أفرادها تقوم على نشاط هذه القوى ، نقول إن من المحتمل أن

تثير هذه العبادات فى عقول أمثال هؤلاء البدائيين رغبة فى معرفة نشأة هذه العبادات فى ماضى المجتمع البدائى الذى يشاركون فى حياته ، ولكنهم فى نفس الوقت يجدون من أحاديث شيوخهم أن هذه العبادات تنطوى على تجارب لا يذكرها ولا يستطيع أن يذكرها الفرد منهم .

وكما أن الفلسفة قد انصرفت عن الاهتمام بمطالب الفيلسوف الشخصية ، ووقفت دراساتها على البحث المجرد عن الهوى فى طبيعة الحقيقة الكلية ، فكذلك كان حال التاريخ ، تعلم أن يشغل نفسه بالبحث فى كل ماضى البشرية متى كان هذا البحث ميسوراً ، بصرف النظر عن فكرة الاستمرار فى الماضى الذى يتعلق بتاريخ جماعة معينة يعيش فيها المؤرخ ، ومع ذلك فإن هذه الفكرة لا تزال فى معظم الحالات المنبه الأصلى الذى يثير اهتمام هؤلاء الذين جعلوا مثلهم الأعلى — كعلماء — البحث الموضوعى الخالص الذى يتناولون به الحوادث التى تهدف إلى غرض وتكون فى متناول عامهم ولكنها سابقة على عصرهم

وفى كلتا الحالين يستطيع الإنسان أن يتكلم فى وضوح عن الفلسفة أو التاريخ على أن كليهما قد حرر نفسه من الدين ، وما كان لأحدهما أن يبلغ ما بلغه لو أنه بقى على اتصال وثيق بالجو الدينى الذى قضى فيه صدر حياته ، ومع هذا فإن الدين نفسه يهتم بتطور تلك العلوم التى تفرعت عنه ، إن نظرة إلى العالم (ككل) من ناحية ، وشعوراً بالحياة المشتركة التى يساهم فيها كل إنسان مع غيره من الناس ، وتنطوى على ماض لا تعيه ذاكرة الفرد ، هذه وجوه تتصل بكل دين — إلى حد ما — وهذا فى الواقع هو السبب فى أن الفلسفة والتاريخ قد تشكلا فى أول أمرهما فى أحشاء الدين ، ولكن الدين فى آخر أمره لا يمكن أن يقنع بنظرة زائفة إلى العالم ، ولا يمكن أن يرضى بفكرة الاتصال بماض لم يكن قط حاضراً ، ولا شك أن الفرد الواحد يستطيع أن يجمع بين الخطأ التاريخى أو الفلسفى وبين أعمق الإيمان الدينى وأخلصه ، ولكن الجمع بينهما لا يتأتى إلا متى تعذر اكتشاف هذا الخطأ ، وقد يحتج الدين بحق بأن تجربته الخاصة تدحض النظرية الفلسفية متى تنافت معه ، ويبطل النظرية التاريخية متى تناقضت مع تجربة الدين فى هذا الصدد ، ولكن الدين الحقيقى

لا يسلم بالتعريف الذى يقال إن الأطفال قد عرفوا به الإيمان ، وهو الذى يقول إن الإيمان هو « اعتقادك فيما تعلم أنه غير صحيح » ، وتأملات الفلسفة وأبحاث التاريخ تؤثر على الدوام فى أبحاث الدين النظرية التى نسميها بعلم اللاهوت ، ومن خلالها تؤثر على الدين نفسه تأثيراً يبدو فى تصفيته من الشوائب ، ولا شك أن الدين ينظر إلى هذا التأثير على أنه نوع من التهذيب النافع المفيد ، بل « على أنه طريق ملكى لعناء مقدس » لا بد أن يمر به الدين حتى يبلغ من الكمال حداً لا يستطيع أن يبلغه عن طريق آخر .

من الواضح أمام القارئ أن الكثير من الأسئلة الشاقة يمكن توجيهه بصدد موضوعات هذا البحث التى لم أتعرض لها إطلاقاً . فمن ذلك أنى لم أحاول أن أبين كيف يجب أن أطبق الآراء التى أثبتها فى هذا البحث على الحالات الجزئية التى يبدو فيها تضاد واضح بين مبادئ الإيمان الدينى ونتائج البحث الفلسفى أو التاريخى ، بل إنى لا أدعى أن ضيق المكان المخصص لهذا البحث اضطرنى إلى الإمساك عن أن أحاول مناقشة صعوبات يمكن أن يلتمس العذر لرجال يفوقوننى كفاءة لأنهم أشفقوا من معالجتها ؛ إن موضوع العلاقات القائمة بين الدين والتاريخ قد عرضت لبحثها أخيراً فى مكان آخر (١) أما عن العلاقات القائمة بين الدين والفلسفة فإنى أختم هذا البحث بذكر بضع آراء ألمعت إليها فيما أسلفت :

أولا : يعتقد بحق أن الفلسفة تتميز من سائر وجوه النشاط العقلى — ومن بينها التاريخ أو العلم — بأنها تفترض قضايا تخدم أغراض بحثها من غير أن تخضعها فيما بعد ، وبأنها تدعى فى حرية أنها تعرض للبحث فى القضايا التى تفترضها سائر وجوه النشاط الأخرى ، ولكننا لا نحتاج إلى المضى فى التسليم جدلا بأن الفلسفة لا تجد بين القضايا التى تقوم بتمحيصها بضع فروض يمكنها التسليم بصحتها — لا على أنها قضايا غير ممحصة بل باعتبارها عوامل ضرورية للتجربة .

ثانياً : أعتقد أن الشعور بالذات — ذلك الذى تكشف عنه عشرتنا

(١) The Historical Element in Religion (Bllen & Uniwin 1935).

لأقراننا الذين تدرك فيهم ذواتا أخرى ، ويبديه لنا أيضاً إحساسنا بأننا على اتصال وثيق بالحقيقة التى تحوى كل شيء وتتغلغل فى كل شيء ، وهي نفس الوقت تسمو على الحقيقة وتحل فيها ، تلك الحقيقة (الله) التى نتنبأ بوجودها فى كل ما يدخل فى تجاربنا وما يقوم وراءها ، أعتقد أن هذا الشعور بالذات إن لم نعترف صراحة بأنه مسألة أساسية ليست بعيدة عن متناول النقد ، بل على العكس من ذلك تخضع لمحك النقد ، إن لم نعترف بهذا صراحة فإنها ستبقى على الدوام أمام البحث الفلسفى لغزاً يستعصى حله ، أشبه ما يكون بذلك الذى يطلق عليه مفكر إنجليزى من مفكرى الجيل الماضى — هو هربرت براولى — « الإفك أو البهتان » أو ما كان يشير إليه عادة فى فلسفته على أنه « مركز التجربة المحدود »

ولى بالإضافة إلى هذين المعتقدين رأى آخر ، هو أن العقيدة المسيحية تكسب الفلسفة قيمة حين تجعل المعرفة التى يستمدها الإنسان من اتصال ذاته بذات مثلها ، من طبيعة تجانس طبيعة الحقيقة الإلهية ، ولو أن نظريات المعرفة تميل إما إلى الهبوط بهذه المعرفة إلى مستوى أقل أهمية من المستوى الذى تضع فيه علاقة الذات بشيء من الأشياء وهى فى حالة تأمل عقلى لذلك الشيء ، لأن الفلسفة لا تستطيع — دون أن تتعرض لإجداب نفسها إجداباً خطيراً — أن تتجاهل ما تدل عليه حالات الشعور الدينى ، ذلك الشعور الذى « إن قورنت به الفلسفة الميتافيزيقية كانت لا تزيد إلا قليلا عن أن تكون مجرد تفسيرات نظرية » فى قول يسترعى النظر من كلام « برنار بوزانكيت » .

محمود الخفيف : أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه

الطبعة الأولى — مطبعة الرسالة — يوليو سنة ١٩٤٧

يقدم الأستاذ الخفيف كتابه الغنى بالمعلومات والأدلة « إلى الأشبال النواهض من شباب هذا الجيل » ، ويهديهم « سيرة هذا الزعيم المصرى الفلاح » ، ذلك الزعيم « الذى جاهد ، كما يقول المؤلف ، فى سبيل الحق ومات على دين الحق ، والذي آن ينصفه التاريخ ، وأن يجد له مكانة بين قواد حركتنا الفكرية » .

وكما يتبين من مقدمة الكتاب ، الكتاب كما أراده المؤلف دفاع عن عرابى ، فالمؤلف يحس إحساساً قوياً بأن « عرابى مظلوم وأنه مفترى عليه » لأنه يزعم « أن المصريين كانوا إلى عهد قريب يذكرون اسم عرابى ، فلا يبعث هذا الاسم ، وآسفاه فى أذهانهم إلا صور العنف والنزق والحمق . . . ويقرنون اسم عرابى بمعانى الهزيمة والاحتلال والمذلة . »

ولا ريب أن الذين انطبع فى أذهانهم ذلك المعنى هم من قامت الثورة العرابية ضدهم ، أو من شايعوا المحتلين الذين استغلوا هذه الثورة لإرضاء مطامعهم الأمبريالية الاستعمارية ، أو من يرون أن مصلحتهم الشخصية تقتضى إغفال الدور المهم الذى قام به عرابى ، ولا أعتقد أن المؤرخين المصريين المخلصين أو عدداً كبيراً من المصريين المتعلمين المثقفين يربطون اسم عرابى بصفات العنف والنزق والحمق أو بمعانى الهزيمة والاحتلال والمذلة .

على أى حال هذا ما افترضه المؤلف ، وحبذا لو جعل غايته تحديد مكان عرابى بين زعماء الحركة القومية المصرية وأبان ما له وما عليه كما تقول الوثائق وتنطق الحوادث وتشهد الوقائع التاريخية الصحيحة دون تحيز له أو ضده ، فهذه هى مهمة المؤرخ قبل كل شىء ، هى إظهار الحقيقة التاريخية لا تبرير فروض معينة .

ومع هذا فللمؤلف عذر مقبول ومعقول ، فإذا استثنينا ما كتبه مؤلف

الحركة القومية الأستاذ عبد الرحمن الرافعى لا نجد كتاباً شافياً عن عرابى ولا تاريخاً صحيحاً ، ومعظم ما كتب عن هذا الرجل إنما يفسر وجهة نظر معينة ، نظرة الإنجليز أصحاب النفوذ والأمر فى مصر إلى عهد قريب ، أو نظرة من يمالىء الإنجليز ويطلب منهم الرضوان ويعتقد أن مصالحه مرتبطة بمصالحهم ، أو كتب معاصرة تعبر عن وجهة نظر الشخصية ولم تصل فى دراستها لشخصية عرابى إلى مستوى الدراسات التاريخية

ولذا فقد سد كتاب الأستاذ الخفيف فراغاً كبيراً ، كنا كلنا نحس به ، فهو أول كتاب مصري عن شخصية عرابى بالذات ، كتبه مصرى يتدفق بالعاطفة الوطنية ، وتدفعه الرغبة فى إنصاف زعيم من زعماء الحركة القومية المصرية .

وهذه الحماسة الوطنية والرغبة الصادقة فى إنصاف عرابى تظهر فى كل صفحة من صفحات الكتاب حتى فى الفهرس ، وبجانب هذه الحماسة الوطنية تظهر مواهب المؤلف الأدبية وبراعته فى التعبير وطريقته البينة الواضحة فى حسن عرض حقائقه وحججه وفلسفته فى التاريخ فى أنه درس فى الوطنية ، وتصوير للبطولة القومية ومدرسة للأخلاق الفاضلة .

والكتاب ممتلىء بالحقائق التاريخية التى لا تقبل الجدل والتى تنم على أن المؤلف وإن مالت به العاطفة فى بعض الأحيان ، إلا أنه حاول صادقاً مخلصاً فى مواقف كثيرة أن يستهدف الحق ، ولذا فكتابة التاريخ ترجو خيراً كثيراً على يديه .

وبجانب هذه الحقائق كثرت ألفاظ التعجب والأسف والحسرة مثل وآسفاه (ص ٣١ مثلا) . والجمل المرسلة ، وبعض الهنات والتعبير مثل :

« وليت شعري كيف كان ينتظر منهم أن يفعلوا غير ذلك فى موقف كهذا الموقف ، وإلا فليحترموا عقولهم ، أولئك الذين يردون سبب الاحتلال إلى عرابى إن كانوا يرجون لأنفسهم ولوطنهم وقاراً . » ، ومثل نعت المؤلف للدول الأوربية أو لممثليها « ببنات آوى وثعالب » ، وفى ص ٦٣ « وإنا إذ نحرك القلم لننقل ما كتبه ذلك الشيخ الجليل (محمد عبده) عن عرابى لنحس بكثير من الخجل والأسف ، فما كنا نحب إلا أن يتنزه الشيخ الإمام عما وقع فيه غيره » ،

وص ١٩٤ « وآمن فريسنيه بنزاهة السياسة الإنجليزية، ولو كان غير فريسنيه فى موضعه لآمن بها كما آمن بها هذا ، فلم يكن يدور بخلد أحد يومئذ أن إنجلترا كانت تترقب الفرصة لتنقض على الفريسة وحدها دون فرنسا ، ولا ظهر من عملها ما يبعث على الريبة »

فلا داعى للمؤرخ أن يخجل أبداً أو أن يأسف إذا وقع غيره فى أخطاء ، أو إذا اتخذ بعض الناس رأياً يخالف رأيه ، ولا داعى لنعت الدول وساستها ببعض أسماء الحيوانات كالثعالب وبنات آوى ، إذ يجب ألا ننسى كمؤرخين أن السياسة الدولية لا تقوم من الناحية العملية على مبادئ مثالية أخلاقية ، وإنما أولا وقبل كل شيء على عامل القوة ، ويظهر ذلك بصفة خاصة فى الربع الأخير للقرن التاسع عشر ، فلقد بدأت حركة الأمبريالزم الأوربية بقوة وعنف وأنانية لم يعرفها التاريخ قبل ذلك ، واستهانت بحقوق الشعوب ومصالح الدول الضعيفة ، ولم تلق بالا إلا لمصالحها الخاصة ، وامتزجت الأمبريالية بالروح القومى الضيق الفكر القصير النظر فزادت قوة وعنفاً واستهانة بحقوق الآخرين (انظر كتاب الاحتلال الإنجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه للدكتور محمد مصطفى صفوت) .

ولا داعى للتعليق على ما قام به ممثلو بعض الدول من أن هذا أخطأ أو أساء (١٠٨) فمفروض أن ممثل كل دولة يخدم مصالح دولته قبل كل شيء لا الحق ولا الفضيلة ولا مصالح أمة أخرى .

وليس من الحق أبداً أن ننسب لوزير دولة أو لشخص ما مسألة دون أن يكون لدينا من الحجج ما نؤيدها به مثل ما قاله المؤلف فى إيمان فريسنيه بنزاهة السياسة الإنجليزية، فهذا لا يمكن القول به ، ولا نجد سياسياً فرنسياً بل سياسياً عادياً اعتقد فى نزاهة سياسة الآخرين ! !

بجانب هذا كله نجد المؤلف قد أتقن فى كثير من المواضع حسن التصوير وحسن العرض التاريخى وتحرى الحقائق التاريخية ، بقدر ما وجد سبيلا إلى معرفتها ، وكان صريحاً وجريئاً فى كثير من مواقف الحق وصراحة محمودة تبعث على الإعجاب .

وتظهر هذه الناحية بوضوح فى القسم الأول من الكتاب الذى تكلم فيه عن حياة عرابى الأولى ، ويستمر فى هذا إلى أن يباشر مهمة الكتابة فى السياسة الأوربية نحو مصر . فيرتطم بموضوعات تحتاج إلى بحث كبير وبذل جهد علمى واستيعاب للحقائق . وهنا يحسن أن نشير إلى أنه لم يكتب عن هذا الموضوع بالذات إلى سنة ١٩٤٧ ، السنة التى فيها أخرج المؤلف كتابه ، لم يكتب كتاب واحد من الناحية العلمية الصحيحة ، فما كتب تفسير لسياسة دولة واحدة أو تبرير لاتخاذ خطة معينة ، وغالب ما كتب يمتاز بالإيجاز الشديد والغموض والميل ناحية خاصة . كما يجب ألا ننسى أنه إلى وقت قريب لم يكن البحث مسموحاً به فى دور الوثائق الحكومية أو الأرشيفات الدولية ، ولم يكن قد نشر قدر كاف من وثائق الحكومات الأوربية يوضح بعض الشىء سياسة الدول نحو مصر . ولكن الحال تغيرت بلا ريب عقب نهاية الحرب الكبرى الأولى ، فلقد أخذت حكومات بعض الدول الكبرى فى نشر وثائقها مثل الحكومات الألمانية والنمسوية والفرنسية والإنجليزية . وفى دار الوثائق الإنجليزية بصفة خاصة (وهى غنية من الناحية المصرية) سمح للباحثين بالدراسة إلى سنة ١٨٨٦ . ويظهر أن المؤلف لم ينتفع بهذا الرصيد الكبير من الوثائق ، واعتمد اعتماداً كبيراً على كتب بلنت وروتنشتين ومذكرات عرابى نفسه ، وللمؤلف عذره فى هذه الناحية أيضاً ، فلا يستطيع مؤلف أن يقرأ كل شىء فى موضوعه . وموضوع السياسة الأوربية نحو مصر من أشق الموضوعات وأكثرها تعقداً وتشعباً ويحتاج بلا شك إلى دراسة مستقلة خاصة مستفيضة .

* * *

كتب الأستاذ الخفيف عن منشأ أحمد عرابى ، من يوم ولد فى سنة ١٨٤١ فى هرية رزنة فى الشرقية فى سنة ١٨٤١ ، وكيف نشأ ، كما ينشأ الآلاف مثله فى القرى المصرية ، فى بيت أبيه شيخ من شيوخ القرية ، نشأ يحفظ القرآن ويتعلم مبادئ القراءة والكتابة .

ويموت أبوه ، وهو لم يبلغ بعد التاسعة ، فيذهب إلى الأزهر ويقضى فيه وقتاً ، (أربع سنوات) ، يدرس الفقه والتفسير والنحو — ثم يلتحق وهو فى

التاسعة عشرة بالجيش المصرى فى عهد سعيد باشا ، وسرعان ما تظهر مواهبه فيدأب على الدراسات العسكرية ، ويرتقى بسرعة فى مدارج الجيش ورتبه ، ويصبح « قائمقاماً » ، وهو لا يزال فى عنفوان الشباب . وامتلأت نفس عرابى بكره العنصر الشركسى الذى كان مسيطراً على الجيش المصرى واتجه بلا ريب اتجاهاً وطنياً مصرياً ، فالحركة التى قام بها حركة عسكرية سرعان ما امتزجت بها الناحية الوطنية فأصبحت حركة عسكرية قومية .

نشأ عرابى ، كما يقول المؤلف ، يحب عهد سعيد ولكنه لا يميل إلى عهد خلفه إسماعيل ، فلقد اضطهد عرابى فى عهد إسماعيل ، بل لقد رفت من الخدمة ، ثم أعيد مرة أخرى وخبر الحرب الحبشية وخرج منها ساخطاً .

ويدلل الكاتب على أن منشأ الحركة العسكرية والقومية فى مصر هو فى عصر الخديو إسماعيل لا فى عهد الخديو توفيق ، وحجته فى ذلك واضحة قوية .

ويتحدث المؤلف عن مناورات عثمان رفقى وزير الحربية وحركاته التى كانت السبب المباشر للثورة العرابية ، وكيف تحدى عرابى وزملاؤه هذا الرجل المتعصب القصير النظر ، وكيف مهدت الظروف لنجاح الحركة العسكرية فى أول الأمر من قصر الترقيات فى الجيش على طبقة واحدة وعنصر واحد هو العنصر الجركسى ، وكيف كانت الحكومة لا تلقى بالا كبيراً لتحسين أحوال الجند بل كانت تسخرهم فى حفر الترع ثم انتهى بها الأمر إلى التآمر على المتذمرين القائمين بالحركة .

ويرى المؤلف فى اجتماع الضباط الثائرين بمنزل عرابى أن المسألة فى حقيقتها كانت شعوراً قومياً تجاه تعصب هؤلاء الشراكسة ، ولم ير المؤلف أنه ربما كان الوصف الحقيقى لهذا الشعور فى أول الأمر هو شعور طبقى ، شعور طبقة الفلاحين الدنيا ضد العنصر الشركسى ، العنصر السيد الأرستقراطى .

وينطلق المؤلف يبين كيف طالب الضباط المصريون بعزل عثمان رفقى وزير الحربية من منصبه . ومن هذا الوقت بدأت تظهر زعامة عرابى ، لما امتاز به من صفات الجرأة والحماسة والإخلاص ، ولما عهد الضباط فيه من صدق

وحسن طوية ولما له من فصاحة لسان وقدرة على الخطابة ، ولأنه كان أشد الناس كرهاً للجراكسة وهم العنصر المسيطر فى الجيش . ورأت الحكومة فى مطالب عرابى وزملائه تمرداً وجرأة منقطعة النظير ، وغضبت أشد الغضب ، وحاولت محاكمتهم واعتقلت زعماء الحركة ، فثار الجند، وأخرجوا الزعماء من الأسر ، وتراجعت الحكومة فى تخاذل جديد ونجحت الحركة .

ودوى اسم عرابى فى القاهرة ، وأخذ أصحاب الرأى يعجبون به ، وهنا نجد المؤلف حريصاً فى تعبيره وفى حكمه على عرابى ، فيقول (فى ص ٥٠) « وما ندعى أن عرابياً قد اتفقت له صفات الزعامة كلها أو أكثرها ، ولكننا منه تلقاء صفة لن تقوم بدونها زعامة ، تلك هى الشجاعة التى يأبى معها الرجل أن يذل . . . » وذلك فى وقت عصيب تندر فيه هذه الصفة فى الرجال « والحق أن مجرد غضبة مصري فى ذلك الوقت لمصريته ودفاعه عن قوميته كان يعد من ضروب الشجاعة التى تبلغ لما أحاط بها من ملابسات حد البطولة » (ص ٥١) .

أصبح بيت عرابى ، كما يقول المؤلف ، مقصداً لكثير من الأحرار كما كان موئل رجال الجيش . فلقد كان الاستياء كبيراً ضد القائمين بالحكم ، وضد الأجانب الذين تغلغل نفوذهم فى البلاد بحيث أصبحت لا تستطيع التنفس إلا إذا أذنوا لها . ووصف المؤلف حكومة رياض وما قامت ، من « قمع وعنف وتقييد لحرية التعبير عن الرأى » ، ولذا قام بجانب حركة الجيش حركة قومية تنتقد حكومة رياض ، وسرعان ما انضمت إلى حركة الجيش ، فكما يقول المؤلف (ص ٦٠) « وكان مما يقضى به منطق الحوادث أن يلتقى الوطنيون والعسكريون » « ورأى الوطنيون ما أصاب رجال الجيش من ظفر . . . فتقربوا من عرابى وتوددوا له » ، وأصبحت بذلك « الثورة العرابية . ثورة قومية جمعت بين المدنيين والعسكريين من أبناء أمة واحدة أيقظتها المظالم »

ويدفع المؤلف فى حماسة وقوة ما رآه الشيخ محمد عبده فى عرابى ، ويعجب كيف يصدر الأستاذ الإمام عن هذا الرأى وكيف لا يمتدح عرابياً .

ويذكر المؤلف بعد ذلك أن الوطنيين والعسكريين اتفقوا على المطالبة بالدستور . ويستطرد المؤلف إلى أن يذكر كيف حاول البارودى (وزير

الجهادية الجديد) أن يجيب أكثر مطالب الجيش ، ولكن الثقة لم تكن متبادلة بين الخديو ورجال الجيش ، وسرعان ما خرج البارودى من الوزارة وحل محله صهر الخديو داود يكن ، ولم يكن يقل عن عثمان رفقى حمقاً وقصر نظر ، فكان لابد إذن فى نظر الوطنيين والعسكريين من إسقاط الحكومة كلها ورياض نفسه فكان يوم عابدين .

فيقول المؤلف « أخذ عرابى للأمر عدته . . . فكتب إلى . . . الخديو بأن آلايات الجيش جميعاً ستحضر إلى عابدين فى الساعة الرابعة بعد ظهر الجمعة ٩ سبتمبر لعرض طلبات عادلة تتعلق بإصلاح البلاد وضمان مستقبلها . . . وأعلن عرابى الأجانب بأن المظاهرة سلمية قبل كل شىء . . »

ويصف المؤلف فى بيان هذا اليوم ، ويرى فيه يوماً من أيام القومية المصرية « موقفاً من أروع مواقفها ومظهراً من أجل مظاهرها . . . » ، يرى فى هذا اليوم « أكبر حسنات عرابى » (ص ٨٤) .

فى هذا اليوم طالب عرابى بقوة لم تعهد مصر نظيرها من قبل ، بالدستور ، وتم له ما أراد . وجاءت وزارة شريف تنهض بالإصلاح وتضع الدستور وتنشىء مجلس النواب وتفتتحه ويصف المؤلف بالتطويل نشاط عرابى فى هذه الفترة وحفاوة الناس به ، وإسناد وكالة الحربية إليه ، وهنا يردد المؤلف آراء بلنت فى الإعجاب بشخصية عرابى وسداد تصرفاته وحسن آرائه وبعد نظره واهتمامه بعظائم الأمور دون توافهها .

وفى فصل « الثعالب وبنات آوى ينتقل المؤلف إلى وصف الصعاب التى لاقت شريفاً فى وزارته فيقول فى براعة « وسارت سفينة الحكم فى هذه التيارات المختلفة ، تنكر الخديو لقضية الدستور ونشاط المدافعين عن هذه القضية وتربص الدولتين بالحركة جميعاً » ، ويصبح عرابى وزيرا للجهادية فى وزارة البارودى ويتحدث المؤلف عن سياسته ، ويدفع الفكرة التى تقول بأن أحمد عرابى كان يعمل لمصلحته أو لحسابه الخاص ، بل ويقول فى (ص ١٣١ ، ١٣٢) « رفض عرابى أن يكون ولياً لذوى الغايات والأطماع » وأن المنصب كان عنده « وسيلة من وسائل الجهاد وباباً من أبوابه » ، ويحاول المؤلف أيضاً إزالة

التهم التى عزيت إلى عرابى فى بعض الأوساط المحلية أو الأجنبية .

وأما حديث المؤلف فى ص ١٤٨ عن أن « الدولتين إنجلترا وفرنسا تراوغ كلتاهما الأخرى وتغافلها بغية الظفر بالفريسة وحدها . . . » فلا يقوم دليل على ذلك ، ففرنسا من ناحيتها كانت على يقين تام بأنها لن تستطيع اقتناص مصر ، فما كانت الدول الأوربية وعلى رأسها إنجلترا وألمانيا تسمح لها بذلك ، وكل ما كانت تريده فرنسا وتستطيعه هو التعاون مع إنجلترا على قدم المساواة فى المسألة المصرية (انظر الدكتور محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الإنجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه) .

وأصاب المؤلف حين وضح أن البلاد فى ذلك الوقت كانت تشيع فيها روح الوطنية الصادقة ، وأن أحمد عرابى كان داعية إصلاح يرمى إلى حماية الفلاحين والإصلاح الزراعى والقضائى والتعليمى والقضاء على نظام الرق ، وأن أحمد عرابى كان يرمى كذلك إلى التفاهم مع الدول الأوربية ولكن ليس على حساب الأمانى القومية .

وفى فصل « مراوغة وتربص » يتناول المؤلف السياسة الأوربية ويرى أن إنجلترا كانت « تستتر وراء فرنسا » وهذا غير حقيقى وفى كتاب الاحتلال الإنجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه توضيح لذلك الموضوع .

وفى فصل « إعنات وإحراج » يتكلم المؤلف عن المؤامرة الشركسية وموقف عرابى منها ، ويدافع المؤلف عن موقف عرابى بأن أحمد عرابى لم يفعل أكثر من « تطبيق القوانين العسكرية الجديدة » ، ويرى المؤلف فيمن خالفه فى الرأى فى هذه المسألة « أفاكين خراصين » (ص ١٧٤) .

وينتقل المؤلف إلى التكلم عن العلاقة بين عرابى والسلطان . فلقد كانت هناك مكاتبات بين عرابى وبعض رجال القصر العثمانى ، ولا أظن أن الصلة كانت وثيقة بين عرابى والسلطان كما يرى المؤلف فى ص ٢٣١ ، فمجرد وجود رسالتين لا يدل على وثوق الصلة .

وفى ص ٣٣٣ لا يستطيع المؤلف صبراً مع من قد يخالفه فى الرأى فيقول « وإنه ليحلو لبعض الكتاب والمؤرخين أن يعيبوا على عرابى وأنصاره أنهم تركوا حصون

الإسكندرية ضعيفة . . . ولا ندرى كيف يلقون هذا القول ولا يتذكرون أنه طالما كان الخديو فى صف الإنجليز والفرنسيين منذ حضرت سفن الدولتين لم يكن فى وسع الوطنيين عمل شىء . . . » ! ! !

وفى الفصل « عرابى يعلن الجهاد » يصور المؤلف بطولة عرابى ، والبطولة لا تظهر حقيقة إلا فى أوقات الأزمات . فبعد أن دخل الإنجليز الإسكندرية رابط عرابى عند كفر الدوار ، « وكانت مصر كما يقول المؤلف (ص ٣٦٥) كلها يوم ذاك فى قبضة عرابى تدين له طوعاً لا كرهاً ، . . . واستجابت الأمة لا بالدعاء فحسب لهذا الفلاح من بنّيها الذي يقف موقف الشرف والكرامة وأمدته بسخاء بما طلب من مال وعتاد ورجال . وقل أن يجد فى تاريخ الحروب حرباً كهذه الحرب التى لم ينفق فيها قرش واحد من خزانة الدولة ، والتى قامت على ما بذل الشعب طائعاً من أقواته وأمواله ودمه . وإن المرء ليتملكه شعور الإعجاب والفخار تلقاء هذه الصفحة المشرقة التى هى بحق أنصع صفحة فى تاريخ هذه الحرب والتى نسوقها دليلا جدياً على قوة هذه الأمة وكرم عنصرها ، وعلى أن ثورتها القومية كانت منبعثة من أعماق القرى » . « وكانت وقائع كفر الدوار . . . سجلا مجيداً لحرب الثورة ، وحسب هؤلاء الفلاحين فخراً أن يخوضوا غمار المعارك لأول مرة فى تاريخهم الطويل مدافعين عن مبدأ . . . الحرية ، وحسب قائدهم أن يكون أول فلاح فى مصر نادى بالحرية فى قوة ثم وقف يذود عنها وفى ميدان من ميادين القتال » .

ويستمر المؤلف فى وصفه للحوادث التى توالت بسرعة إلى موقعة التل الكبير حيث « استشهدت الحركة القومية ووضعت الأغلال فى عنق الحرية » ، ولكن إلى حين .

ويرى المؤلف أن عرابى أهمل إهمالا كبيراً فى الميدان الشرقى أو المنفذ الشرقى إلى مصر وأنه اطمأن بلا مبرر إلى مبدأ حيدة القناة — ثم انتقل يصف الدور الذى قامت به الرشوة والخيانة . وربما بالغ المؤلف فى وصف أثر منشور السلطان بعصيان عرابى حين قال ص (٤٢٨) « والواقع أن هذا المنشور كان ضربة شديدة لعرابى بل إنا لا نسرف إذا قلنا إنه قد فعل وحده بجيش عرابى ما لم

تفعله الجنود الإنجليزية مجتمعة » . لذلك المنشور أثر بلا ريب كبير وإن كان معروفاً أن السلطان لم يصدر عن هذا المنشور إلا نتيجة لمساعى الإنجليز الإنجليز والخديو . وكذلك يجب ألا ننسى أن الشعب المصري والجند كانوا يعرفون تماماً أنهم يحاربون الجيش الإنجليزى لا جيش السلطان . اعتمد على ذلك المنشور بطبيعة الحال ضعفاء النفوس الذين كانوا سيخذلون عرابى على أى حال .

ويصف المؤلف موقعة التل الكبير وتسليم عرابى نفسه وسجنه ومحاكمته ومنفاه ثم عودته ونسيان الناس له ثم موته ، فلم يشيعه إلى مقره الأخير رجل رسمى واحد أو يحضر مأتمه . ويختتم المؤلف كلامه وكتابه « وستنطوى العصور ويبقى فى أذهان بنى الأجيال القادمة . إن أحمد عرابى كان زعيم القومية المصرية الأول ، وكان الفلاح المصرى الأول الذى دعا إلى حرية قومه وحارب فى سبيلها ونفى وذاق ألم الفاقة من أجل مصر ، وكان صاحب الصيحة الأولى وصاحب الخطوة الأولى فى سبيل الكرامة القومية والنهوض بمصر على أساس الدستور والحرية ... »

٣٠ سبتمبر ١٩٥٢

محمد مصطفى صفوت

تاريخ الطب[1]

تأليف

أرتورو كاستليونى

ترجمه إلى الإنكليزية ا . ب كرومبهار

هذا كتاب جامع ألم فيه مؤلفه إلمامة عاجلة بكل ما يتعلق بهذا الموضوع ونجح فيما أراده من عرض سريع بتطور الطب فى كثير من بلاد العالم من أول عصر ظهرت فيه أبسط مبادئ الحضارة إلى عصرنا هذا — وهذا النوع من التأليف الشامل لا غنى عنه للقارئ الذي يريد أن يلقى نظرة عامة على تاريخ الطب وعلاقته بتاريخ الحياة العقلية والاقتصادية والاجتماعية فى البيئات المختلفة والعصور المتعاقبة

وقد وفق المؤلف توفيقاً تاماً فى شرح ثلاثة أمور هامة أولها تاريخ نمو الآراء العلمية والفلسفية التى قام عليها التفكير الطبى فى كل عصر وثانيها تاريخ الكشوف التى بنيت عليها العلوم الطبية وثالثها تاريخ حياة كبار الأطباء .

عنى المؤلف فى الجزء الأول من كتابه بالطب عند البدائيين وضرب الأمثلة الكثيرة على أنه كان فى كل عصر وبيئة صورة صادقة للحضارة التى نشأ فيها فهو فى عصور السحر أكثره سحر صريح ثم تولى التطبيب الكهنة ورجال الدين البدائيين ولما عرف التنجيم أخذ الناس يعتقدون أن للنجوم أثراً فى إحداث الأمراض ونجاح العلاج ولما جاءت الديانات الكبرى أخذ عنها الطب الشيء الكثير وقام أغلبه على الحلال والحرام وطهارة الجسم والروح ولم يزل المؤلف يتتبع تطور الطب فى الحضارات المختلفة كالمصرية القديمة والأشورية والهندية والصينية ثم أطال فى شرح الطب عند اليونان والرومان وفى مدرسة الإسكندرية وكيف انتقل إلى السوريان ومنهم إلى العرب وأفاض فى تاريخ الطب عند العرب وذكر فضلهم

(١) A history of Medicine by Arthuro Castiglioni translated by E. B. Krumbharr New York Alfred A. Knopp. London Routeledge & Kagan Paul, Broadway House 68-74 Carter Lane E.C. 4.

فى إنشاء المستشفيات وكيف انتقل علمهم إلى سالرنو حتى جاء عهد النهضة فبدأ الطب الحديث ينمو نمواً مطرداً حتى عهدنا الحاضر .

وعنى المؤلف أيضاً باستقصاء تاريخ الكشوف الهامة الطبيعية والكيميائية والطبية والجراحية التى يقوم عليها الطب الحديث ويعتقد كثير من الأطباء أن العلم بهذه الكشوف لايحتاج إلى تتبع تاريخها وحجتهم فى ذلك أن الإنسان يستطيع أن يكون طبيباً ناجحاً دون حاجة إلى العلم بتاريخ وسائل العلاج التى يتبعها والواقع أن العلم بتاريخ هذه الوسائل ضرورى لمن يريد أن يقدرها حق قدرها ولا غنى عنه إذا أريد أن يستمر الطب فى نمو دائم .

وعنى كذلك عناية خاصة بتاريخ كبار الأطباء وهو جزء ممتع من تاريخ الطب وذلك أن الطب لا يزال فناً ولا يزال لشخصية الطبيب أثر فى طبه وحياة كبار الأطباء نماذج تحتذى فلكل منهم نظرة فى الحياة وفلسفة خاصة وأسلوب فى العلاج والطبيب يفيد كثيراً من دراسته حياة هؤلاء الأطباء فهو لابد واجد فى بعضها مبادئ تلائم مزاجه الخاص وآراء تتفق وطبيعة تفكيره ويحسن المدرسون صنعاً إذا وضعوا حياة هؤلاء العلماء أمام الأطباء الناشئين دون تحبيذ أو تعليق تاركين لكل منهم أن يختار لنفسه الأنموذج الذي يروق له .

العناية بهذه الأمور تجعل للكتاب قيمة خاصة فضلا عن ما فيه من مادة غزيرة والدقة التى توخاها المؤلف فى أكثر تحقيقاته تجعل الكتاب مرجعاً يعتمد عليه كل الاعتماد .

ومن خير ما فى الكتاب المراجع الكثيرة التى وردت فيه مرتبة ترتيباً حسناً حسب كل باب من أبوابه .

محمد كامل حسين

علم آثار ما بين النهرين = المراحل (١٩٤٦)

ANDRE PARROT : Archéologie Mésopotamienne, Les étapes, Editions Albin Michel, 1946, Paris. 542 p. XVI pls., 9 cartes, 150 figs.

أخرج الأستاذ پارو وهو أمين بمتحف اللوفر وأستاذ بمدرسة اللوفر ومدير حفائر ماري المعروفة الجزء الأول من كتابه عن علم الآثار فيما بين النهرين يصف فيه التقاء الرحالة بالآثار ثم ابتداء اهتمام أهل العلم بدراستها ثم تنظيم البعثات للحفر والبحث . ولم يقتصر المؤلف على سرد الحوادث الخاصة بالحفائر — وكانت متنوعة عديدة ترجع إلى صعوبات الطبيعة الصحراوية ومشاكسة البدو وعدوانهم — بل أتى بوصف مسهب لكل منطقة أدير فيها الحفر وقائمة بجميع الآثار التى وجدت فيها ذاكراً المتاحف التى آوت إليها . مما يساعد على الرجوع إليها فى النشرات العلمية الخاصة . فيكاد يكون الكتاب بحثاً شاملا لكل منطقة حفر فيما بين النهرين — أى فى الوادى والأجزاء على جانبى الدجلة والفرات واصلا إلى قارقميش شمالا وهى الحدود بين النفوذ الحيثى والبابلى وإلى الطريق الواصل إلى البحر الأبيض المتوسط غرباً . فتشمل الجزء الأوسط من العراق وأعالى الشام إلى الحدود التركية . مع ذكر شيء غير قليل عن سوس لغناها بالآثار البابلية .

أما من حيث التحديد التاريخى فقد شمل العهود السابقة للسلوقيين من العصور البدائية مع دراسة آثار دورا — أروپوس وسلوقيا وكتيسيفون ، أما وصف الحفائر فمن أقدمها إلى سنة ١٩٣٩ — ووعد المؤلف بإخراج جزء ثان عن الطرق الفنية والمسائل ثم جزء ثالث عن مختصر تاريخى وتطورى .

وهذا الجزء الأول يقع فى ٥٤٢ صفحة من القطع الصغير وهو مزود بمائة وخمسين شكلا و ١٦ لوحة و ٩ خريطة . وأشير إلى إعتناء المؤلف بجمع كل ما استحدث من الرسومات المعمارية الخاصة بالمناطق الأثرية من خرائط توقيعية ومساقط أفقية وسومات معادة وذلك فى أشكال صغيرة الحجم واضحة الخطوط

مبسطة يسهل بواسطتها معرفة الشيء الكثير عن المناطق العديدة . أما اللوح فهى عن أصول فوتوغرافية متقنة تمثل بحجم كبير قطعاً أثرية هامة من النحت المجسم أو البارز أو الصور كان يصعب الوصول إلى بعضها فى المؤلفات والأبحاث الخاصة (صور عن دورا — أوروپوس وتماثيل وصورة عن مارى) .

وقد ساعد الأستاذ بارو درايته الواسعة بكل ما اختص بحفائر وآثار ما بين النهرين . وقد قام شخصياً بالحفر فى تلو (١٩٣١ — ٢ و ١٩٣٢ — ٣) وفى المدينة الملكية لارسا (١٩٣٣) . ثم فى مارى بالشام (١٩٣٣ — ١٩٣٩) — على وصف المناطق الأثرية وسرد حوادث حفائرها بغاية الدقة . وهو مشروع جديد من نوعه فى دراسة الآثار سواء كان فيما بين النهرين أو غيرها من البلاد .

ودرس پارو فى الباب الأول والثانى والخامس ابتدأ الاهتمام بالآثار إلى القيام بالبعثات العظيمة فى القرن الماضى . أما الباب الثالث فخاص باكتشاف الخطوط المسمارية . والباب الرابع والسادس بسمير والعصور البدائية . ثم الباب السابع والثامن لحفائر الدّيالة وأواسط الدجلة وأعالى الدجلة . والباب التاسع لحفائر أواسط الفرات .

فى الباب الأول جمع المؤلف كل ما كتبه الأقدمون عن الرحالة والمسافرين مما استلفت نظرهم من الآثار . ولنذكر أقدم هؤلاء وهو بنيامين من طليطلة Benjamin de Tudèle وقد سافر من إسبانيا فى سنة ١١٦٦٠ ورجع إليها فى ١١٧٣ بعد أن جاب البلاد الشرقية وكتب عن مشاهداته بالعبرية . ثم بيترو ديلا ڤالى (Pietro della Valle) الذى جلب بعض القوالب المنقوشة بالكتابات وهو أول عهد الأوربيين بالنصوص المسمارية (١٦٢٥) . ولعل أهم هؤلاء الرواد الدانماركى كارستن نيبور (Niebuhr) الذى زار الأقطار الشرقية بين ١٧٦١ و ١٧٦٧ ونقل نصوصاً عن مبانى برسيپوليس والفرنسى ميشو (Michaux) وكان بحاثة فى علم النبات (١٧٨٦) وقد جلب معه شاهداً منقوشاً بنص وهو من طراز « الكودورو » الخاص بتحديد العقارات والمقام فى المعابد . ثم من الإنجليز ريتش (Rich) (١٧٨٧ — ١٨٢١) الذى وقع مدينة بابل وبدس نمرود وأربيل ونمرود ومدينة نينوة فى التلين قويونديو وبنى يونس .

وجمع مجموعة من اللوحات والأختام الإسطوانية وكتب مذكرات . ثم باكنجهام (Buckingham) (١٨١٦) . والفرنسيين فلاندان (Flandin) وكوست (Coste) اللذان يوقعان المناطق ويرسمان الآثار أثناء بعثة مرسلة من الحكومة الفرنسية .

يبحث الباب الثانى عن اكتشاف حضارة الأشوريين (١٨٤٢ — ١٨٧٧) بفضل كبار العلماء . وهذه هى المرحلة الأولى من مراحل تطور علوم آثار ما بين النهرين . فمنهم القنصل الفرنسى بوتا (Botta) الذي اهتدى إلى اكتشاف قصر الملك سارجو Sargon ٧٠٥ — ٧٢١ ق . م . (بخور سأباد (Khorsabad) ونشر عنه بمعونة الرسام فلاندان (Flandin) . وقام الإنجليزى ليارد(Layard) (١٧٤٥ — ١٧٤٧) بالحفر فى نمرود وفاز بمساعدة رولنسون (Rawlinson) وأكتشف لحساب المتحف البريطانى* قصور خمسة للملوك الأشوريين فى القرنين التاسع والسابع ق . م . وقصر سناقريب ومكتبة أشور بانيال (٦٦٨ — ٦٢٦ ق . م .) فى نينوة (تل قويونديق) . وخلفه رولنسون (Rawlinson) . بينما واصل الفرنسى پلاس (Place — ١٨٥٢) الكشف عن قصر سارجون بخور سأباد الذى يحتوى على مائتين بهو ووقع سور وبوابات المنطقة الملكية . والفرنسى فرنيلFresnel (— ١٨٥٣) فى بابل . وعمل لوفتوس (Loftus) فى ورقا وقويونديق وكشف تيلور (Taylor) عن زيقوراط أور (مقير) والبلدة المقدسة إيريدو (أبو شهرين) . وجمع سميث (Smith) آلاف اللوح المنقوشة بمعونة رسام (Rassam) لحساب المتحف البريطانى . ويلاحظ أنه لم يتبع بعد طريقة فنية للحفر بل بفتح خنادق فى طول المناطق وعرضها ولا يكشف عن المبانى إلا الأجزاء المزخرفة بالمناظر أو النصوص . بل ذهب بعضهم ومنهم المدعو رسام إلى جمع الآثار بواسطة بعض ملاحظى العمال دون الاعتناء بأي توقيع هندسى أو كتابة تقرير .

يصف الباب الثالث (ص ١٠٩ — ١٢٥) المراحل العديدة الصعوبات التى مربها اكتشاف لغات ما بين النهرين وقراءة كتاباتها (١٧٨٠ — ١٩٠٠) .

وجاء بعده عدد من العلماء روبينسون (Rawlinson) واهتدى إلى قراءة النص الفارسى المنقوش على صخر بيحستون واستكمل الأبجدية المكونة من ٣٦ رمزاً

(١٨٤٩) واكتشف شيل (Scheil – ١٩٠١) اللغة الثانية وتتكون كتابتها من ١١١ رمزاً وتسمى السوسية . أما الكتابة الثالثة وهى أشورية – بابلية وتعرف بالسميرية فيرجع الفضل فى اكتشاف رموزها المقطعية إلى روينسون (١٨٥١) وأوبرت (Oppert – ١٨٥٥) . وأصل رموزها تصويرى كالرموز الهيروغليفية . ودامت هذه الاكتشافات متواصلة لمدة قرن .

وفى الباب الرابع (ص ١٢٧ – ١٦٨) يصف المؤلف اهتداء سارزك (Sarzec) إلى اكتشاف آثار الحضارة السميرية فى تلو (Tello – ١٨٨١) ويرجع عهدها إلى ما حول ٣٠٠٠ ق . م . وقد ساهم الإنجليز بمعرفة بادج (Budge) وكنج (King) فى جمع اللوح والنشر عنها وإدارة الحفائر فى قويونديق (١٩٠٣ – ١٩٠٥) .

عنون المؤلف الباب الخامس (ص ١٦٩ – ٢٦٣) « بدء الاستكشافات العظيمة (١٨٩٧ – ١٩١٤) » وجمع فيه أخبار البعثات العلمية المزودة بكل الوسائل للبحث . واهتم الفرنسيون بحفائر سوس (شوش) واشتهرت بفخارها و بكثرة ثم دى مورجان (De Morgan) . وعمل الألمان فى بابل والقصر وعمران بن على (١٨٩٨ – ١٩١٧) بقصورها وأسوارها المحصنة وزيقوراط والحدائق المعلقة من إنشاء الملك نبودونوصور (Nabuchodonosor) وبعض المعابد واشتهر فى دراسة المنطقة كولدواى (Koldewey) وأندرى (Andrae) وجوردان (Jordan) ونولديكى (Noldeke) وعملوا أيضاً فى بورسيبا (بوس) حيث وجدوا أعلا بقايا لزيقوراط نبوخودونوصر ومعبد نابو . ثم انتقلوا إلى فارا وأبو حطب كيسورا قديماً (من عصر جمدت نصر وحكام لاجاش وأور . وفى ١٩٠٣ بدأوا فى قلعة شرجات (آشورقديماً) وفيها بقايا من عصر حكام لاجاش (حول ٣٠٠٠ ق . م) . وهناك نص من عهد سناقريب (قرن ٧ ق . م .) يصف المدينة وبواباتها الثلاثة عشر بينما وجدت بقايا سبعة بوابات . وذكر نفس النص أسماء ٣٤ معبداً و ٣ زيقوراط . وكشف عن عدة قصور أقدمها من عصر لارسا (٢٠٠٠ ق . م .) . ومن أشوق قصص الحفر حوادث استكشاف تل حلف على يد (Von Oppenheim) فون أوبنهايم الذى زار المنطقة فى ١٨٩٩ ولم

يبدأ الحفر فيها إلا فى ١٩١١ وضاعت آثارها أثناء الحرب (١٩١٤) ووصلت إلى المتحف البريطانى . وأعاد الحفر بعد الحرب (١٩٢٧ – ١٩٢٩) . وينضم المؤلف إلى أصحاب النظرية الخاصة بتأريخ آثار تل حلف وإرجاعها إلى عهد الحكم المحلى كابارا بين القرون ١٢ و ٩ ق . م . ويرى فيها انتاجاً للفن المحلى الذى قلد الفن الحيثى . بينما يرجع آثار جبله البيضا (على بعد ٧٠ كيلو) إلى العصور البدائية من تأثير سميرى . عمل الإنجليز هندرسون (Henderson) وهوجارت Hogarth (– ١٩٠٨) ثم ولى (Woolley – ١٩٢٠) فى قارقميش . ويرجع عهدها إلى العصر البدائى وكانت بلدة محصنة بين العالم الأشورى البابلى والمصريين .

وفى الباب السادس (ص ٢٦٥ – ٣٦٨) يصف المؤلف إعادة الحفر فى سمير ويبحث فى عصر ما قبل الأسرات . وقد زاد على طريقة الحفر فى طبقات أفقية دراسة القطاعات الرأسية (Stratigraphie) إلى مستوى الأرض السليمة . اهتم المتحف البريطانى بعد الحرب الأولى ببلدة إريدو (Eridu) وأرسل فيها كامبل تومسون (Camphell Thompson) ثم هول (Hall) . وهى من أقدم مدائن ما بين النهرين . وعمل أيضاً فى أور (Ur) لمدة ١٢ موسماً . وقد احتوت المدينة على عدة معابد وقصر للملك نابونيو (Habonide) وزيقوراط ترجع إلى الأسرة الأولى وحولها عدة مصلات وجبانة تحتوى على مقابر ملكية هامة . وعملت بعثة إنجليزية فى كيش (Kish) واكتشفت فيها حضارات من عصر بابل إلى أقدم عصور جمدت نصر والعصر الحجرى الحديث .

ومن أهم المناطق المكتشفة بلدة جمدت نصر يرجع عهدها إلى ما قبل الأسرات وتمتاز بحضارة خاصة ذات فخار مزخرف وأختام اسطوانية ويرجع بها بعض العلماء إلى ٣٢٠٠ – ٣١٠٠ ق . م . ويظن أن السكان من عنصر غير سامى أو سميرى . وأعاد الألمان الحفر فى وارقا (Warka) لمدة ١١ موسماً (١٩٢٨ – ١٩٣٩) . وكانت من أهم مدن العالم السميرى منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ أحاط بها سور طوله ٩٧٠٠ متراً . بينما أعاد الفرنسيون العمل فى تلو Tello (١٩٢٩ – ١٩٣٣) ثم فى سنقرة

(Larsa . وعمل المعهـد الشرقى (Oriental Institute) فى شيكاجو فى المنطقة شرق بغداد ودرس الآثار المكتشفة فى تل أسمر (أشنوناك Ashnunnak) فى ٦ مواسم (١٩٣٠ - ١٩٣٦) . ومنها قصر ومعبد يرجع إلى عهد جمدت نصر. وحفروا أيضاً فى خفاجى على الشاطىء الغربى لنهر الديالة (١٩٣١ - ١٩٣٧) . ويشير المؤلف إلى استمرار مظاهر الحضارة من أقدم العصور إلى العصر الساسانى كما يراه فى حفائر كتيسيفون (Ctesiphon) حيث وجدت مجموعة من الأوانى الخاصة بالسحر وزخارف هندسية ونباتية وحيوانية وإنسانية .

أما فى أعالى الدجلة (الباب السابع ص ٣٩١ - ٤٣٨) فقد اختصت البعثات الإنجليزية والأمريكية بالحفر فيها . ودرسوا بلدة نوزو (Nezu) وحضارة الهوريين فيها (١٥٠٠ق.م) وحضارة جازور (Gazur - ٢٥٠٠ق.م) . ثم حضارة ما قبل الأسرات (قبل ٣٠٠٠ ق . م (. وتمكن شبايدز (Speiser) من دراسة الحضارة البدائية فى أشور نتيجة حفره فى رقيبتى جاورا (Tépé-Gawra) وعمل الإنجليز بقيادة كامبل تومسون (Cambell Thompson) فى نينوة (١٩٢٧ - ١٩٣٢) واكتشفوا ٣ قصور (أسور بانيبال وأسور ناظريال وسناقريب) وعدة مبانى وتوصلوا إلى اكتشاف حضارات ما قبل التاريخ بحفر آبار اختبارية إلى مستوى مياه النشع (٢٧,٥٠ متراً) . وورث الأمريكان حفائر خورساباد عن الفرنسيين (١٩٢٨ و ١٩٣٢ - ١٩٣٥) ودرسوا قصر الملك سارجون ومعابده المختلفة وبوابات العاصمة الجديدة التى استبدلت نينوة المهجورة .

وأنهى المؤلف وصفه للحفائر بمنطقة أواسط الفرات (الباب السابع ص ٤٣٩-٥٢٢) . ومن أهم المناطق بلدة دورا أوروبوس (Dura-Europos) . عمل فيها الفرنسيون بالاشتراك مع الأمريكان (١٩٢٠ - ١٩٣٧) . وامتازت بفن محلى وريت الفنون القديمة (Mari) . وظهرت أهم قطعة فى معبد الآلهة البالميرية والمصلى المسيحى والمعبد الإسرائيلى (٢٠٠ - ٢٤٤ م) ومعبد ميترا (Mithra) فى هيئة مناظر مرسومة وملونة تزخرف الجدران . وتعتبر هذه الصور من أهم المستندات لدراسة تاريخ الفن فى آخر عصر الوثنية والقرون الوسطى .

ولم تدم هذه المدينة التجارية إلا من القرن الثالث ق . م . إلى القرن الرابع م . واكتشف الفرنسيون فى أرسلان طاش (Arslan-Tash) قصراً للملك تيجلاط بيلازار الثالث (Tiglalh-Pilaserm ـ ٧٤٥ ـ ٧٢٣ ق . م) (ويظن أنه من إنشاء سارجون لشبهه بقصره فى خورسأباد) . وبالتل الأحمر (١٩٢٩ ـ ١٩٣١) حيث درسوا بقايا عاصمة الدولة الآرامية التى استولى عليها سالماتازار الثالث (٨٥٩ ـ ٨٢٤ ق . م .) وبها قصر أشورى جدرانه مزخرفة بصور ملونة شيد على مساكن آرامية وجبانة قديمة (٢٥٠٠ ق .م .) . وظهرت حضارات شجربازار وتل براك وجوره لحضارات محلية من عصر جمدت نصر . أما مارى وقد حفر فيها رباو (١٩٣٣ ـ ١٩٣٩) ـ وكانت بلدة من عصر ما قبل سارجون حكمت بها أسرة من الحكام . ودمرها هامورانى (فى القرن العشرين ق . م .) ـ وكشف عن معابد وقصر إمتاز بعظمته واحتفاظه لكيانه . وظهر الفن بخواص مشابهة للفن الإيجى .

وقد زود المؤلف كتابه بجدول يشرح بعض الإصطلاحات المعروفة فى علم الآثار وآخر لإختصارات دالة على أسماء مجلات وعناوين الأشكال والأبواب .

هذا ولا يسعنا إلا أن نشيد بهذا المشروع الجديد فى بابه ونتمنى ظهور الأجزاء اللاحقة من الكتاب لعله يسد نقصاً طالما أحس به كل من رجع لمؤلف كونتينو (Contenau) لدراسة آثار ما بين النهرين .

إسكندر بدوى

ثيوكريتوس

Gow, A.S.F.: Theocritus. Edited with a translation and a commentary. 2 vols. Vol. I : Introduction, Text, and Translation. Pp. LXXIV + 257. Vol. II : Commentary, Appendix, Indexes, and Plates Pp. 634; 15 plates. Cambridge : University Press, 1950.

برع ثيوكريتوس فى فن الشعر الريفى وأجاد صياغة المليحمة ، حتى ليعده البعض من اعظم شعراء اليونان ومن أكثرهم تأثيراً فى تاريخ الأدب العالمى . ولد فى سيراكيوز وتقلب بين عواصم العالم اليونانى بين سنتى ٣٠٠ و ٢٥٠ ق . م ، وعاش ردحاً من الزمن فى الإسكندرية منخرطاً فى بلاط بطليموس الثانى .

وهذه الطبعة الجديدة لشعر ثيوكريتوس تتعاظم بغزارة مادتها ، وتتضخم بعدد صفحاتها ، وإن أول ما يقع عليه نظر القارئ منها هو الترتيب الذى جرى عليه المؤلف فى إيراد القصائد ، فقد ثاب إلى الترتيب التقليدى ولم يتابع العالم الكبير ڤيلاموڤيتز فى محاولته ترتيب القصائد ترتيباً حسبه عند نشر كتابه عن ثيوكريتوس (سنة ١٩٠٦) أقرب إلى ما كان متبعاً فى العصر القديم ، ولكن الأوراق البردية التى اكتشفت حديثاً والتى ترجع إلى القرن الثانى بعد الميلاد لم تعزز الترتيب الذى كان ڤيلاموڤيتز قد انتهجه ولم تبرره . فهيّأ لنا رجوعنا من جديد إلى الترتيب الذى عرفنا به هذه القصائد وعرفها به أساتذة لنا من قبل .

استهل المؤلف الجزء الأول بمقدمة وافية يدور الفصل الأول منها (ص : ١٥ — ٢٩) حول حياة ثيوكريتوس استقصى فيه كل ما يمكن أن يعدّ مصدراً لترجمته عند الكتاب القدماء (ص : ١٥ — ١٦) وفى متن شعره (ص : ١٧ — ٢٤) ، ثم أحصى آثاره الفنية الضائعة (ص : ٢٤) ولخص كل هذا فى فصل قصير (ص : ٢٥ — ٢٩) هو أدق ما قرأنا فى حياة الشاعر الغامضة وأسلوبه فى التأليف . وقد كان المؤلف فى هذا الفصل محافظاً شديد المحافظة فلم يقطع برأى إلا فيما كان معروفاً من قبل من أن القصيدة الريفية السادسة عشرة كتبت فى سيراكيوز سنة ٢٧٥ ق . م ، وأن القصيدتين الخامسة عشرة والسابعة عشرة كتبتا فى مصر قبل سنة ٢٧٠ ق . م وهى السنة التى قضت فيها أرسنوى نحبها

وفى القصيدتين إشارات إلى الملكة أرسنوى وهى لا تزال فى قيد الحياة (انظر القصيدة ١٥ ، ٢٤ ، ١٠٩ وما بعده ، والقصيدة ١٧ ، ١٢٨ وما بعده) وبين المؤلف أوجه التشابه بين ملحمة ثيوكريتوس وأناشيد معاصره كاليماخوس ، ولكنه لم يخلص من هذه المعارضة بنتيجة ما لأن تواريخ الأناشيد غير محققة ولا يمكن أن نقطع برأى فى أى الشاعرين كان يقلد الآخر .

ويدور الفصل الثانى من المقدمة على نص القصائد والمخطوطات التى ورد فيها وتاريخ كل منها وقد قسمها قسمين (١) المخطوطات التى ترجع إلى القرون الوسطى وعصر النهضة (ص : ٣٠ — ٤٨) ، (٢) النصوص التى وصلتنا مكتوبة على البردى أو الرق (ص : ٤٨ — ٥١) ، ويلى هذا فصل رائع يقوم على المعارضة بين نصوص القصائد كما وردت فى المخطوطات المتأخرة وبين ما جاء منها فى الأوراق البردية (ص : ٥١ — ٥٤) ثم يليه فصل فى تسلسل المخطوطات والصلة بينها (ص: ٥٤—٩) ثم تحدث المؤلف عن التاريخ المتقادم للنص وكيف انحدر إلينا (ص: ٥٩ — ٦٢) .

وبعد ذلك كتب المؤلف فصلا (ص : ٦٢ — ٦٦) فى تحرير النص وضبطه بين فيه أنه وضع نصب عينيه أن خمساً من الأوراق البردية التى اكتشفت حديثاً لم تكن قد استغلت أبداً استغلالا علمياً فى تحقيق نص القصائد والتعليق عليها . ولذلك رأى أن تكون الإشارة إليها كثيرة مسهبة حتى يستطيع القارئ أن يكوّن رأياً فى مدى قدرة الباحثين على الاعتماد عليها فى تحقيق النص .

ثم عقد فصلا (ص : ٦٦ — ٦٩) فى ترتيب القصائد والأسباب التى حدت به إلى الرجوع إلى الترتيب الذى كان ستيفانوس قد انتهجه فى كتابه Poetici Graeci سنة ١٥٦٦ .

ثم تحدث عن عناوين القصائد (ص : ٦٩ — ٧٢) وبين أوجه الضعف فى الرأى الذى ذهب إليه ڤيلاموڤيتز من أن ثيوكريتوس كان قد نشر القصائد القصائد أول الأمر كلا منها تحت عنوان خاص ، وأن ڤيلاموڤيتز قد نشر القصائد تحت العناوين الأصلية التى كان المؤلف قد وضعها لقصائده ، ولكن المؤلف عاد فقال إن العناوين التى انتخبها للقصائد تتفق فى أكثر الأحايين

مع العناوين التى اختارها ڤيلاموڤيتز (ص : ٧١)

ثم أفرد المؤلف فصلا للهجات التى كان يصطنعها ثيوكريتوس فى شعره (ص : ٧٢ — ٨٠) وقسم فيه القصائد من حيث لهجتها إلى خمسة أقسام :

١ — قصائد كتبت باللهجة الدورية

٢ — قصائد زائفة النسبة للشاعر كتبت باللهجة الدورية كذلك

٣ — قصائد غلبت عليها اللهجة الملحمية مع مسحة من اللهجة الدورية

٤ — قصائد امتزجت بها اللهجتان الملحمية والأيونية

٥ — قصائد كتبت باللهجة الأيولية .

ثم خلص من هذا إلى الحديث (ص : ٨٠ — ٨٤) عن الحواشى التى كتبت على المتن فى العصر القديم ، وقد كان C. Wendel قد جمعها وبوبها فى كتابه Scholia in Theocritum Vetera الذى صدر فى ليبزج سنة ١٩١٤ وقد سايره المؤلف فيما ذهب إليه من آراء . وعرج من هذا إلى الحديث (ص : ٨٢ — ٨٤) عن الشروح والشراح القدماء فقسمهم تقسيماً تاريخياً الى ثلاثة أقسام عدد فى القسم الأول من الذين كتبوا فى القرن الأول قبل الميلاد ثيون وأسفليبياديس ، وعدد فى القسم الثانى من العلماء الذين عاشوا بين القرنين الأول والخامس بعد الميلاد طائفة كبيرة تضم لوكيان ولونجوس وأليكفرون وأمارانتوس ، أما الطائفة الثالثة من الشراح فترجع إلى العصر البيزنطى وقد عدد المؤلف من هؤلاء تزتسيس وموسخوپولوس وتريكلينيوس .

وتأتى بعد ذلك الترجمة التى وضعها المؤلف جنباً إلى جنب مع النص فاستغرقت بقية الجزء الأول . وقد قال المؤلف بصدد ترجمته (ص ٩٠) « إنها لا تطمح إلى أكثر من أن تبين فى لغة إنجليزية مقبولة ما أعتقد أنه المعنى الذى أراد إليه الشاعر » وهى عبارة أملاها التواضع الشديد ، فالحق أن الترجمة تعلو فى أسلوبها ما سبقها من ترجمات فى الإنجليزية بما فى ذلك الترجمات التى لم يلتزم أصحابها الحرفية كما التزمها مؤلفنا ، وهى إلى جانب عذوبة اللفظ وجزالة الأسلوب تمتاز بالوضوح والشاعرية . أما الدقة فقد بلغ المؤلف فيها شأواً بعيداً إذ التزم الأصل فلم يحد عنه إلا فى القليل النادر ، وقد لاحظنا من ذلك

أنه فى ٢ ، ١٥٠ أهمل كلمة فلم يترجمها ، كما أنه فى ٥ ، ١٤٢ ترجم الفصل وكأنه فى المضارع مع أنه فى المستقبل ، وجاء فى الترجمة ١٥ ، ٥٧ «لقد ذهبوا إلى مكانهم» وهى عبارة مبهمة يشرحها المؤلف بقوله (ح ٢٠ . ص ٢٨٢) « ذهبوا إلى نقطة الابتداء من الملعب أو إلى حيث ينتظر المتبارون دورهم » وكان أحرى بإحدى هاتين العبارتين أن توضع مكان الترجمة حرصاً على وضوح المعنى .
وجاء فى ترجمته للبيتين ٢٤ ، ١٣٧ — ١٣٩ « إن عشاءه كان لحماً مشوياً ، أما طيلة يومه فلا يتناول سوى وجبة خفيفة ليس فيها طعام مطهى » وعندنا أن المعنى يكون أكثر استقامة لو قلنا « إن غداءه كان لحماً مشوياً ، أما آخر النهار فلا يتناول سوى وجبة خفيفة ليس فيها طعام مطهى »

أما عن النص فقد كان المؤلف شديد المحافظة عليه ، إن استقام له المعنى أبقى النص غير محتفل بما أدخله ڤيلاموڤيتز أو جالاڤوتى من تغيير ، فهو لا يلجأ إلى التغيير فى النص إلا اذا اضطر إلى ذلك اضطراراً ، وهو منهج حميد ولكننا كنا نؤثر أن يشير المؤلف إلى آراء غيره من العلماء وإن لم يأخذ بها حتى يستطيع القارئ أن يكون أكثر إيجابية فى قراءته فيختار من بين القراءات المختلفة ما يرى أنها أقرب إلى روح العصر وطبيعة الشاعر . ومع هذا فقد عددنا خمسة مواضع رأى فيها المؤلف أن يأخذ بقراءة جديدة للنص هى ١٥ ، ١٢٧ و ٢١ ، ٤٩ و ٢٣ ، ٥١ و ٣٠ ، ٥ و ٣٠ ، ١٣ وقد أثبت المؤلف هذه التغييرات فى المتن ، ومال الى تغييرات أربعة أخرى لم تبلغ عنده مرتبة اليقين فلم يثبتها فى النص بل أوردها فى التعليقات هى فى الأبيات ١٣ ، ١٥ و ٢٣ ، ٤٤ و ٢٥ ، ١٥٣ و ٢٩ ، ٢٠ . وهو وإن لم يعمد إلى تغييرات كثيرة فى النص فلأنه أفرغ جهداً جباراً فى استجلاء معانى الألفاظ واستكناه مقاصد الشاعر وهى الطريقة المثلى فى النشر ، من ذلك ما أثبت من أن البيت ١٥ ، ٩٥ لا يعنى « لا تعاملنى كما لو كنت أمة لك » بل يعنى « لا تضع وقتك فى إصدار أوامر لن أطيعها » .

أما الجزء الثانى فقد قصره المؤلف على الشروح والتعليقات على النص وهو نبع لا ينضب من المعلومات التى تتصل بالعالم القديم وهى جزيلة الفائدة للغوى والمؤرخ على السواء . وتطول بعض شروحه أحياناً فتصبح مقالات ممتازة فى

موضوعاتها ، من ذلك مقدمته للقصيدة الثانية وهى تدور حول السحر والأوراق البردية السحرية (ص : ٣٣ — ٣٦) وقد قسّم فيها الأوراق البردية السحرية إلى قسمين (١) الوصفات السحرية ومنها ما يرجع إلى القرن الثانى بعد الميلاد ، (٢) ومجموعات الوصفات السحرية وهى ترجع إلى القرون الثالث والرابع والخامس بعد الميلاد وتضم عناصر متباينة من مصادر مختلفة منها اليونانية والمصرية واليهودية والأغنوطيسية . والمؤلف لا يعتقد أن هذه المجموعات كانت معروفة لثيوكريتوس ، وهو يعلل الاتفاق فى التفصيلات والدقائق بين ما ورد فيها وبين ما جاء فى شعر ثيوكريتوس بإيغال السحر فى القدم . وقد علق على اصطلاح « الحب الأعمى » الذى ورد فى ١٠ ، ٢٠ بقوله « إن التصور الرمزى للحب على أنه إله أعمى ، وقد أصبح مألوفاً لنا منذ عصر النهضة ، تصور شديد الغرابة على العالم القديم » . وهو يرجع هذا الاصطلاح إلى أصل من الشعر الأورفى ، ويقول « ومع أن الناس قلما يتحدثون عن إله الحب أو يصورونه على أنه أعمى ، فإن عمى المحب كان تعبيراً شائعاً فى الأدب القديم .

وقد استعان فى شرح بعض الأبيات الوصفية بالرسوم التى وردت على الأوانى اليونانية القديمة ومن هنا كان تذيله للجزء الثانى بخمس عشرة لوحة .

وبعد فإن الناقد ليجد غضاضة بعد استيعاب هذا السفر النفيس فى تعداد ما يعن له من نقص فيه ، ومع هذا فهذه القصيدة الخامسة عشر « النسوة تحيين عيد أدونيس » تبدأ بزيارة جورجو لصديقتها پراكسينوا فيجرى بينهما الحوار فى منزل أخراهما . ثم يتغير المنظر فنراهما تسيران فى الطريق المؤدية إلى القصر فتقابلان بعض المارة ويتحدثان إليهم ثم تصلان إلى القصر فتصفان منظر الاحتفال ، وتستمعان إلى مغنية وهى تنشد نشيداً تمجد فيه أدونيس وأفروديتى . فهذه مناظر ثلاثة ، وهؤلاء ست ممثلون ، ولهجة اليونانى المستوطن فى الإسكندرية مختلفة عن لهجة اليونانيات القادمات من سيراكيوز والقصيدة مليئة بالحركة من دفع وجذب ، ووجه الشبه بينها وبين قصيدة هيروداس الرابعة « زيارة إلى معبد إسكليبيوس » ظاهر واضح كما قال المؤلف (ج . ٢ ، ص : ٢٦٦) أفليس هذا أنسب المواضع لتناول مشكلة أداء هذه القصائد ؛ هل كتبت

هذه القصيدة لتقرأ أم لتروى أم تمثل ؟ وهى مشكلة لها خطورتها فى تاريخ المسرح اليونانى . ويخيل إلى أن المؤلف لم يشأ أن يتناول هذه المشكلة ولم يكن مطمئناً إلى حل فيها ، فهو يقول إن المنظر يتغير أول مرة بعد البيت ٤٣ فما باله لا يقول إنه يتغير ثانية بعد البيت ٧٧ ؟

وهذا ثيوكريتوس يهبط الإسكندرية فلا يلبث أن يهجرها إلى غيرها من عواصم العالم اليونانى ، مع أننا نعلم أن البطالسة الأول كانوا شديدى الحرص على اجتذاب أعلام الفكر وأقطاب الفن إلى عاصمتهم ، يحسنون وفادتهم ويعفونهم من الضرائب . فما الذى صرف ثيوكريتوس عنها ؟ وما الذى حدا بالشاعر الكبير ميناندر إلى رفض النزول بها ؟ كنا نرجو أن يحدثنا المؤلف عن جو الإسكندرية الفنى تحت الحكم المطلق ، وهل كان فيه ما ينفر أحرار الفكر من الفنانين .

وقد انتظر عالم الدراسات القديمة هذا الكتاب الضخم مدة طويلة ، فقد كان مؤلفه يشارك فى دراسة ثيوكريتوس بمقالات ممتازة منذ سنة ١٩١٣ وعكف على إخراج هذا السفر منذ سنة ١٩٣٣ فلا غرو إن ظهر على هذا النمط الرائع من الدقة والعمق وحسن الإحاطة . وقد ذيل المؤلف الجزء الثانى بثبت شامل لكل ما ظهر فى هذا الموضوع من كتب ومقالات ، هى خير معين لمن يريد التوسع فى دراسة بعض مناحى هذا الشاعر الكبير .

وهيب كامل

عرض وتحليل لكتاب(1)

البحر الأحمر والبلدان المجاورة فى نهاية القرن السابع عشر

The Red sea and adjacent countries at the close of the 17th. century as described by Joseph Pitts, William Daniel and Charles Jacques Poncet. Edited by Sir William Foster. London 1949.

هذا كتاب قامت بنشره جمعية هكلوت بلندن . وهو يشمل الأجزاء الخاصة بالبحر الأحمر من كتب بعض رحالة القرن ١٧ وهم : جوزيف بتز ووليام دانيال الإنجليزيان وچاك بونسيه الفرنسى ، وبالكتاب مقدمة لسير ويليام فوستر تشمل نبذات عن حياة هؤلاء الرحالة وتاريخ رحلاتهم .

وللرحلات مكانة خاصة فى دراسة تاريخ الشرق الأدنى فى القرنين ١٧ ، ١٨ وذلك لندرة ما جاء إلينا عن هذين القرنين من كتابات المعاصرين . ولهذا تعتبر الرحلات بمثابة مصدر من المصادر الأولى فى دراسة تاريخ هذه الفترة لهذه المنطقة . ولهذا النوع من المصادر التاريخية مصاعبه . فهؤلاء الرحالة فى أغلبهم يجهلون اللغة الأصلية للبلاد التى زاروها وهم لا يستقر بهم المقام طويلا فى هذه البلاد حتى يتفهموا أحوالها السياسية وغير السياسية . هذا بالإضافة إلى

(١) وبالكتاب ملحق بملخص عن رحلة جون أوفنجتن 'A Voyage to Surat' وأوفنجتن . John Ovington كان واعظاً فى المركز التجارى لشركة الهند الشرقية فى صراط من ١٦٩٠ إلى ١٦٩٣ وبعد عودته لإنجلترة نشر فى ١٦٩٦ كتاباً عن تجاربه إبان إقامته فى صراط . ولم يزر أوفنجتن البحر الأحمر بل جاءت جميع معلوماته عن هذا البحر مشتقة من البحارة والتجار الإنجليز والهنود الذين يقومون بالتجارة بين صراط أو غيرها من الموانىء العربية ولذلك فتعتبر كتابات أوفنجتون من الدرجة الثانية من ناحية القيمة العلمية . وملحق بالكتاب أيضاً خريطة هيوب لودولف Hiob Ludolf (١٦٢٤ - ١٧٠٤) للحبشة وكلمة عن تاريخ لودولف وأعماله كتبها R.A. Skelton . ولودلف من أوائل الأوروبيين الذين درسوا اللغة الحميرية وكتب فى ١٦٨١ كتابا باللاتينية عن تاريخ الحبشة ترجم فى ١٦٨٤ تحت عنوان A New History of Ethiopia .

أما الخريطة فظهرت فى ١٦٨٣ -وكان لهذا الرجل مشروع سياسى خيالى عن إيجاد تحالف- بين فرنسا وهولنده وإنجلترة والحبشة ضد الأتراك العثمانيين الذين كانوا يحاولون غزو فيرنا (١٦٨٢ - ١٦٨٣) . الملحق من ص ١٧٣ إلى ١٨٥ من الكتاب .

أن الطابع الإسلامى الضيق الذى كان يطفو على مجتمعات الشرق الأدنى فى ذلك الوقت قد أدى إلى تعذر اشتراك العناصر الأوربية خاصة والمسيحية عامة فى الحياة العامة ، فكونت هذه العناصر جاليات صغيرة لها حياتها الخاصة المهددة أبداً بتعسف الحكام ومضايقاتهم .

وكان الأتراك العثمانيون حين بسطوا سيطرتهم على أنحاء العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى قد أقاموا من دولتهم حاجزاً قوياً بين هذا العالم وبين العالم الغربى فانقطعت الصلة أو كادت بين العالمين وقدر للمجتمعات الإسلامية فى فى الشرق الأدنى الا تشترك فى التيارات العالمية السياسية والتجارية ابتداء من القرن ١٦ حتى القرن ١٨ . وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للعالم العربى فقد كان البحر الأحمر بصفة خاصة ، وبالذات فى القرن ١٧ يعانى من انقطاع الصلة بينه وبين العالم الغربى أكثر مما تعانيه بقية بقاع العالم العربى . فالبحر الأحمر خرج من القرن ١٦ بعد نضال عنيف بين قوى الاستعمار الأوربى ممثلة فى البرتغال وبين الدول الإسلامية الكبرى فى الشرق الأدنى . وحملت الدولة المملوكية فى مطلع هذا القرن عبء ذلك النضال لإنقاذ البحر الأحمر من الاستعمار البرتغالى أولا وإنقاذه مما قد يلحق به من سوء نتيجة لتحول التجارة العالمية عنه إلى الطريق حول أفريقية . واتخذ النضال ميادينه فى المحيط الهندى وجنوب البحر الأحمر . وكانت الدول المملوكية حتى وقت انهيارها فى الشام ومصر ١٥١٦ ــ ١٥١٧ ، قد فشلت فى دفع هذا الخطر. ثم كان الفتح العثمانى للشرق العربى فسقطت فى أيديهم سوريا ومصر والحجاز وبدى كأن العثمانيين قد ورثوا تركة الدول المملوكية المستقلة وفى مقدمة هذه الأثقال الخطر البرتغالى الجاثم فى جنوب البحر الأحمر يهدد البحيرة الإسلامية . وقام العثمانيون لدفع هذا الخطر ولكن على أساس واحد وهو إنقاذ العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى من خطر الاستعمار الجديد وليس ــ فيما يبدو ــ على أساس إرجاع التيار التجارى العالمى إلى البحر الأحمر ، فأسرع العثمانيون باحتلال عدن واليمن واشتبكوا مع البرتغاليين فى مواقع بحرية كثيرة فى الفترة ما بين ١٥٣٨و ١٦٣٣ . ودخل فى النضال العام أنواع من النزاع المحلى بين الأمارات الإسلامية فى زيلع

ومصوع وهرر وبين الدولة الحبشية ، فانضمت الشياخات الإسلامية إلى الحلف العثمانى بينما سارعت الحبشة إلى جانب البرتغال . واتخذ النزاع فى كل أدواره شكلا دينياً ساعد على ظهوره الطابع الدينى الذى صحب السياسة الاستعمارية البرتغالية فى الشرق . وخرجت الدولة العثمانية من هذا النزاع منتصرة به لم تطرد البرتغاليين من المحيط الهندى ولكنها نجحت فيما حددته لنفسها من أهداف وهى تطهير البحر الأحمر من القوات الأوربية والسيطرة عليه . وخرج من هذا النضال الطويل الذى انتهى حوالى ١٦٣٣ تقليد عثمانى كان نتيجة طبيعية للنضال — وفى نفس الوقت يلقى ضوءاً على السياسة العثمانية العامة فى الشرق الأدنى الإسلامى — وهو تحريم دخول المراكب المسيحية « مراكب الدول الأوربية » فى مياه البحر الأحمر فيما وراء مخا شمالا . بحجة أن البحر الأحمر تشرف عليه الحجاز وبه الحرمان الشريفان . فجاءت هذه السياسة ممعنة فى انعزال البحر الأحمر . وكان من نتائجها أن أصبح البحر الأحمر بحيرة راكدة تسير حياة بلاده السياسية وفق أحداث محلية ضيقة للغاية كالنزاع بين أشراف الحجاز حول الشرافة فى مكة أو النزاع بين الزيدية والأتراك فى اليمن . ثم زاد فى ركوده التجارى أعمال القرصنة الأوربية ضد المراكب والتجارة الإسلامية بين المحيط الهندى والبحر الأحمر ولا سيما فى النصف الثانى من القرن ١٧ . وتركزت هذه القرصنة فى هذه الفترة فى عصابة John Avery الإنجليزى الذى تعددت غاراته على ثغر عدن وحاول إنشاء قاعدة للقرصنة فى جزيرة برم عند مدخل البحر الأحمر ولكنه فشل بسبب عوامل الطبيعة فاتخذ له مركزاً فى جزيرة سانت مارى شمال شرق جزيرة مدغشقر وألحق أضراراً بالغة ليس فقط بالتجارة الإسلامية بل كذلك بقوافل الحجاج الداخلى إلى البحر الأحمر(١) .

وتحت هذه الظروف كان بعض الرحالة الأوربيين يتسربون من خلال الحواجز العثمانية إلى شواطىء البحر الأحمر . أما جوزيف بتس فكان أول إنجليزى استطاع زيارة مكة والمدينة ، ووليام دانيال أول إنجليزى — فيما نعلم —

(١) Gosse: History of piracy pp. 178-181.
Anderson; Western India pp. 121-123.

حاول السفر من لندن إلى الهند عن طريق البحر الأحمر ، وأما شارل بونسيه ففى مقدمة الأوروبيين الذين زاروا الحبشة ووصفوا أحوال هذه البلاد فى الفترة ما بين طرد البرتغاليين من هذه البلاد ١٦٣٣ وزيارة الرحالة الإسكتلندى جيمس بروس ١٧٦٩ . وعلى ذلك فكتابات هؤلاء الرحالة الثلاث تكون حلقة واحدة من الناحية الجغرافية . فرحلة بتس تصف مصر والحجاز ورحلة دانيال تصف الساحل الشرقى للبحر الأحمر ورحلة بونسيه تكمل الحلقة بوصف الحبشة والثغور على الساحل الغربى لهذا البحر . ومن الناحية التاريخية تكون هذه الرحلات حلقة كذلك ، فالرحالة الثلاث معاصرون لبعضهم البعض ، بتس قام برحلته فى ١٦٨٤ أو ١٦٨٥ ودانيال فى ١٧٠٠ وبونسيه فى ١٦٩٩ ، ١٧٠٠ . بل إن بونسيه التقى بالفعل مع دانيال فى جده . وثلاثتهم لم يكونوا جدداً على المجتمع الإسلامى فى الشرق الأدنى ، فبتس قبل رحلته إلى الحجاز قضى ما يقرب من سبعة أعوام فى الجزائر وتونس ودانيال عاش بعض الزمن فى فرنسا واتصل بالبحر الأبيض وزار حلب وفلسطين . أما بونسيه فعاش فى القاهرة لبضع سنين قبل رحلته إلى الحبشة والبحر الأحمر .

ويلاحظ على هذه المجموعة من الرحلات فى البحر الأحمر أنها لا تتناول اليمن (باستثناء زيارة قصيرة لدانيال لمخا) وأن مركز التقاء هؤلاء الرحالة فى زياراتهم وكتاباتهم هو مصر وحبشة ، وأخيراً أن هؤلاء الرحالة — باستثناء بونسيه — لم يحاولوا الكتابة عن الظروف السياسية فى البلاد التى زاروها فأغلب كتاباتهم تدور حول الوصف الجغرافى — ولتتناول الآن الكلام عن كل رحلة على انفراد .

1 — Joseph Pitts : Faithful account of the Religion and Manners of the Mahome'ans ... with an account of the Author's being taken captive, the Turks creulty to him, and of his escape.

جوزيف بتس إنجليزى من أكستر . عمل كصبى فى المركب Speedwell التى كانت تتاجر مع جزر الهند الغربية . وأثناء عودتها من هذه الجزر فى ١٦٧٨ أسرها بعض القراصنة الجزائريين بالقرب من الساحل الإسبانى وباعوا بتس فى الجزائر كعبد ثم أهداه سيده إلى أخ له فى تونس . وهناك حاول القنصل

البريطانى وبعض التجار الإنجليز شراءه ولكن فشلت الصفقة ، ثم عاد بتس مرة أخرى مع سيده ، الذى كان يمعن فى إساءة معاملته إلى الجزائر وأرغمه على اعتناق الإسلام . واستمرت متاعب بتس حتى قتل السيد فباعته زوجة سيده إلى رجل آخر واتخذه السيد الجديد خادماً خاصاً وأحسن معاملته . ثم سافر السيد إلى الحجاز للحج فأخذ بتس معه ومن ثم كانت رحلته إلى الأراضى المقدسة فى الحجاز . سافر بتس بطريق البحر من الجزائر إلى الإسكندرية فرشيد فالقاهرة فالسويس فجدة فمكة فالمدينة . وفى العودة اتخذت القافلة طريقاً مختلفاً ، من المدينة شمالا وحول خليج العقبة فالسويس فالقاهرة فالإسكندرية فالجزائر — وكان سيده قد اعتقه فى مكة فالتحق بالبحرية العثمانية فى الجزائر واشترك فى الحرب ضد الأسبان فى حصار أوران فى ١٦٨٨ ، ثم صدرت الأوامر للمراكب الحربية العثمانية بالانسحاب إلى أزمير وهناك تمكن بمساعدة القنصل البريطانى William Raye وبعض التجار الإنجليز من الهرب من الخدمة العثمانية إلى مركب فرنسى كان راسياً فى أزمير نقله إلى لجهورن ومنها إلى ألمانيا فالأراضى الواطئة ووصل إنجلترة فى ربيع ١٦٩٥ وبتس من الرحالة الذين أثارت رحلاتهم اهتمام المعاصرين وبحاث التاريخ معا . فالمعاصرون اهتموا برحلته لأسباب عاطفية . لأسره وهو صبى وللمعاملة التى لقيها من المجتمع الإسلامى وإرغامه على اعتناق الإسلام ، ثم كان اهتمام المعاصرين لنواحى غير عاطفية أيضاً . ذلك أن بتس كان أول إنجليزى يزور مكة والمدينة بعد أن كانت كتابة الأوروبيين عن مكة والمدينة مما يسمعونه من جده . أما بتس فقد أخرج للمجتمع الأوربى عن هذه الأماكن المقدسة وعادات المسلمين فى وقت الحج ، وصفاً يعتبر بصفة عامة دقيقاً بالنسبة لمعاصريه . وقد ظل كتابه المصدر الأول فى إنجلترة عن الحجاز حتى فقد أهميته بعد رحلات بعض المستشرقين من أهل العلم أمثال Burckhardt[١] فى أوائل القرن ١٩ و Sir Richard Burton[٢] فى النصف الثانى من نفس

(١) Travels in Arabia in 1814-1815. 1829.

(٢) Pilgrimage to Al. Madinah and Meccah 2 vols. 1906.

القرن . ولعل من دلائل الأهمية التى لقيها كتاب بتس تعدد نشره ، فالطبعة الأولى ظهرت فى ١٧٠٤ ثم أعيد طبعه فى ١٧١٧[1] ثم أعاد بتس طبع الكتاب فى ١٧٣١ طبعة مصححه وبها إضافات وخريطة للكعبة ، ثم أعيد طبعه للمرة الرابعة فى ١٧٧٨ فى الجزء السابع عشر من كتاب The World displayed وظهرت الطبعة الخامسة فى ١٨١٠ كملحق لرحلة Henry Maundrell واسمها Journey from Aleppo to Jerusalem . ولما كان بتس أول الإنجليز الذين زاروا الحجاز فى أواخر القرن ١٧ فقد تناوله الكثير من بحاث التاريخ بالشرح والتعليق أمثال Crichton فى كتابه Arabia (Vol. II, P. 208) . Gerald De Gaury, فى كتابه The Rulers of Mecca (ص ١٥٩ — ١٦٠ و Burton فى رحلته (ج ٢ . الملحق ٥) .

كذلك قام Thomas Seccombe بترجمة لحياة بتس فى الجزء الخامس عشر من Dictionary of Nat. Biog. وهى ترجمة محفوفة بالأخطاء وتدعو إلى الشك فى أن المترجم اعتنى بقراءة الرحلة قراءة دقيقة[2] . على أنه يبدو أن أهم المؤلفات التى تعرضت لحياة بتس ورحلته ذلك البحث الذى ألقته السيدة Cecily Radford أمام Devonshire Association فى ١٩٢٠ ونشر فى الجزء ٤٢ من Transactions of the D.A. وليس من المعروف على وجه التحديد السنة أو السنوات التى زار فيها بتس الحجاز ، فلم يحاول هو نفسه (لنسيانه للتاريخ المسيحى) تحديد هذا التاريخ مما يدل على أمانته فى الكتابة . ولكن Burton يعتقد أن الرحلة كانت عام ١٦٨٠ وكذلك المترجم له فى D.N.B. أما Radford فتحدد سنة ١٦٨٤ أو ١٦٨٥ وأما سير وليام فوستر فيحدد سنة ١٦٨٥ أو ١٦٨٦ .

---

(١) الغريب أن بتس يدعى أنه لم يعرف شيئاً عن الطبعة الثانية وأن الكتاب طبع هذه المرة بغير علمه .

(٢) من أمثلة هذه الأخطاء قول المترجم أن رحلة بتس من الإسكندرية إلى القاهرة كانت بالقوافل مع أن بتس نفسه فى سرده الرحلة يقرر أنه سافر بحراً من الإسكندرية إلى رشيد ثم بطريق النيل من رشيد إلى القاهرة — وكذلك قول المترجم أن سيده أعتقه فى الجزائر ، مع أن بتس نفسه يقرر أنه أعتق فى مكة .

ولقد كان بتس كاتباً دقيقاً ، أفاد من معيشته الطويلة فى المجتمع الإسلامى ومعرفته النسبية للغة العربية ، ومع أنه يرتكب بعض الأخطاء الدالة على عدم فهم دقيق للإسلام والمسلمين(١) إلا أن رحلته بصفة عامة هامة لتاريخ أحوال الحجاز وثغورها فى أواخر القرن ١٧ .

ب — William Daniel : A Journal or Account of William Daniel, his late Expedition or Undertaking to go from London to Surrat.

إذا كانت المراجع التى تناولت جوزيف بتس متعددة ، فهى بالنسبة للرحالة وليام دانيال تكاد تكون معدومة . فلم تشر إليه .D.N.B ولم تهتم به — فيما يبدو — كتب الرحلات والإشارة إليه قليلة فى كتب التاريخ : ويبدو أن أهم مصدر له ولرحلته كتاب الرحلة نفسه . ومن المقدمة وكذلك من إشارات عن نفسه داخل الرحلة ، نستطيع أن نقول أنه كان ثريا إلى حد ما وأنه عاش فى فرنسا لفترة من الزمن وفى مرسيليا بالذات وأنه جال فى أنحاء الليفانت وزار حلب وفلسطين . أما الظروف التى جعلته يقوم برحلته إلى الهند عن طريق مصر والبحر الأحمر فهى أن مجلس المديرين لشركة الهند الشرقية فى لندن كان حريصاً على إرسال بعض المراسلات الهامة إلى سلطات الشركة فى الهند وعلى أن تصل هذه المراسلات فى وقت أقصر مما تستنفده الرحلة بطريق البحر حول أفريقية . ولذلك اتجه المجلس إلى البحث عن شخص توكل إليه مهمة القيام برحلة إلى الهند عن طريق سوريا والخليج الفارسى . وفى مايو ١٧٠٠ وقع الاختيار على وليام دانيال . وفى نفس الشهر عقدت الشركة مع دانيال عقداً خاصاً بشروط الرحلة ، يهمنا منها الشرط الخاص بأن يصل دانيال إلى البنغال فى مدى شهرين فقط من بدء الرحلة ، أى فى ٣١ أغسطس . وهذا الشرط هام لأنه كان السبب فى تغيير دانيال لطريق الرحلة إذ أنه لما وصل إلى الإسكندرية عدل عن رأيه لزحمة الوقت وارتاب أن يستخدم طريق البحر الأحمر ، فسافر من الإسكندرية إلى القاهرة فالسويس فينبع فجده التى

---

(١) بتس يترجم haggar essaad بعبارة the white stone ص ٢٤ . ويقول أن المسلمين ينقسمون إلى أربعة مذاهب والأصح طبعاً أهل السنة من المسلمين . ص ٣٢ .

وصلها فى ٢٩ أغسطس . ومع أنه اتضح لدانيال فى جده أنه لن يستطيع الوصول إلى الهند فى الوقت المحدد إلا أنه رأى أن يتابع رحلته . ووجد من تعنت السلطات الحاكمة فى جده ما عوقه فلم يصل منى قبل ١٣ سبتمبر . وفى منى وجد دانيال أن جميع المراكب الهندية قد بارحت الميناء ولا ينتظر خروج مراكب إلى الهند قبل بضعة شهور وكان التعب واليأس قد بلغ به مبلغاً كبيراً فعاد أدراجه إلى جده فينبع فشبه جزيرة سينا حيث نزل فى ثغر شرم على الساحل الشرقى لشبه الجزيرة وزار الدير الأغريقى فى جبل سيناء ، ثم سافر إلى القاهرة بطريق البر فالإسكندرية فمرسيليا . . . . إلخ . وفى لندن طلب إليه أن يكتب قصة رحلته للشركة موضحاً الأسباب التى حالت دون إتمامها — وفى نفس السنة نشر رحلته وأهداها لحاكم ولجان شركة الهند الشرقية ، ولم يعاد نشر هذه الرحلة إلا فى ١٩٤٩ .

وتنحصر أهمية دانيال فى أنه أول إنجليزى — فيما نعلم — يحاول الوصول إلى الهند عن طريق مصر والبحر الأحمر ، وإن كان دانيال نفسه مخطأ فى تصوره أنه أول أوربى يقوم بهذه الرحلة ، فقد سبقه إليها ونجح فى إتمامها الرحالة الألمانى von Harff ، والإيطالى Varthema والفرنسى Bernier — على أن الفضل يرجع لدانيال فى توجيه أنظار شركة الهند الشرقية لأهمية طريق مصر والبحر الأحمر فى المراسلات بين إنجلترة والهند وبذلك تعتبر رحلة دانيال مقدمة لرحلات Sir Eyre Coote (١٧٧٠) . E. Irwin (١٧٧٧) ، وغيرهم من موظفى شركة الهند الشرقية ممن استخدموا هذا الطريق من إنجلترة إلى الهند أو العكس فى القرن ١٨ . ودانيال يعانى كذلك مما تعانيه رحلات هؤلاء المتأخرين ، من معرفة ضئيلة أو معدومة للغة الأصلية للبلاد التى زاروها وإدراك مهوش لظروف هذه البلاد وضيق الوقت لدراسة منظمه . وحتى عدم الاهتمام بتدوين مذكرات أثناء الرحلة . فمن رحلة دانيال يتوقع أنه لم يعتنى بكتابة مذكراته أثناء الرحلة ، بل اعتمد اعتماداً يكاديكون كاملا على ذاكرته مما أدى به إلى الوقوع فى جملة من الأخطاء .

من أمثلة ذلك ادعائه زيارة أحد الثغور بين مخا وجده يقال له « يمن »(١) . والواقع أنه ليس فى كتابات دانيال عن مصر شيئاً جديداً بالنسبة للرحالة المعاصرين له ، ولكن ملاحظاته وخبراته الشخصية فى ينبع وجده ويمن ومخا هامة لدراسة الظروف التجارية والسياسية للثغور الإسلامية على الساحل الشرقى للبحر الأحمر . كما ينفرد دانيال بزيارة لشبه جزيرة سينا فى مطلع القرن ١٨ .

ج — A Voyage to Ethiopia made in the year 1698, 1699 and 1700 Describing particularly that Famous Empire, like wise the Kingdoms of Dongola, Sennar, part of Egypt ... etc. By Monsieur Poncet. M.D.

ربما كانت رحلة Charles Jacque Poncet الفرنسى هى أهم الرحلات الثلاث ، وذلك لعدة أسباب . فى مقدمتها أن رحلة بونسيه كانت أوسع مدى من الرحلتين السابقتين ، فهى تشمل مصر ودنقله وسنار والحبشة وبعض ثغور البحر الأحمر الغربية والشرق (مصوع ، وجده) كما تشمل فوق ذلك شبه جزيرة سينا . هذا مع العلم بأن ميدان الرحلة الأساسى كان فى الحبشة لإقامته الطويلة بها ولأنه أفرد لها الجزء الأكبر من كتابه — وأهمية كتابة بونسيه عن الحبشة تجىء كذلك من صلته بالنجاشى ، إذ كان طبيبه الخاص ولصلة رحلته فى الحبشة بتنازع جماعة الجوزويت وجماعة الفرنسسكان فى عملية التبشير فى الحبشة(٢) .

تبدأ قصة الرحلة فى ١٦٩٨ حيث كان بونسيه مقيما فى القاهرة فى عهد قنصلية Charles de Maillet وكان بونسيه طبيباً للباشا العثمانى — وفى هذه السنة وصل القاهرة من الحبشة الحج على أحـد عملاء نجاشى الحبشة ليبحث عن طبيب للإمبراطور المريض ولابنه . ووقع اختياره على بونسيه فعرض عليه السفر إلى الحبشة وبتدخل Maillet أمكن إقناع بونسيه .

---

(١) ربما كان دانيال يقصد الحديدة .

(٢) عن النزاع بين الجماعتين التبشيريتين وعلاقة هذا النزاع برحلة بونسيه راجع .

Michand : Biographie Universelle. T. 34, p. 47.
Alfred Lacaze : Nouvelle Biographie Genérale T. 40, p. 738.

وفى مايو ١٦٨٨ سافر بونسيه ومعه خطاب من ماليه إلى النجاشى يعرض عليه باسم لويس الرابع عشر ملك فرنسا إقامة علاقات بين فرنسا والحبشة . وسافر مع بونسيه عميل النجاشى الحج على وفى صحبتهما جماعة من الفرنسسكان والجوزويت ، واتخذوا طريق النيل حتى منفلوط ثم طريق القوافل حتى دنقله فسنار . ومكثوا فى مدينة سنار ثلاثة شهور نزلوا فيها ضيوفاً على ملكها — وفى مايو ١٦٩٩ تركت الجماعة سنار ومنها إلى غوندار عاصمة الحبشة التى وصلوها فى ١١ يوليو . واستقبل النجاشى بونسيه استقبالا طيباً ثم بدأ فى علاجه . ويبدو أن إقامة بونسيه فى غوندار لم تكن سعيدة لأنه طلب فى أوائل ١٧٠٠ السماح له بالسفر وبعد إلحاح سمح له النجاشى فى أبريل من الخروج (وكان النجاشى قد شفى هو وابنه) على أن يصحبه الأرمنى مراد شلبى كسفير للنجاشى ومعه هدايا وخطابات للويس ملك فرنسا . ولسبب ما اضطر بونسيه إلى أن يرحل بمفرده على أن يلحق به السفير — وبالفعل وصل بونسيه مصوع فى ٧ سبتمبر ١٧٠٠ ثم منها إلى جده حيث التقى بوليام دانيال صاحب الرحلة السابقة ومن جده إلى شبه جزيرة سيناء حيث لحق به السفير الحبشى وعن طريق الطور والسويس وصل القاهرة فى ١٠ يوليه ١٧٠١ وإلى هنا ينتهى بونسيه من سرد رحلته[١] .

لم يقم خلاف بين بحاث التاريخ والرحالة المتأخرين حول دقة وأهمية ما كتبه بونسيه خاصة بمملكة سنار وثغور البحر الأحمر الغربية والشرقية وشبه جزيرة سينا ، ولكن الخلاف فى الرأى احتدم فى تقدير ما كتبه هذا الرحالة عن الحبشة وهى البلاد التى أفرد لها أكبر جزء فى كتابه . فكل من[٢] A.H. Jones J.N. Baker[٣] E. Hea wood[٤] يتهم بونسيه فى كتابته عن الحبشة

---

(١) ما حدث بعد ذلك من خلاف بين السفير الحبشى والقنصل الفرنسى و بين بونسيه والسفير وتدخل الباشا العثمانى فى القاهرة راجع ص XXIX إلى XXXIV من مقدمة سير وليام فوستر .

(٢) A history of Abyssinia 1935, p. 113.

(٣) A history of Geographical discovery in the 17th. 18th. centuries 1912 p. 152.

(٤) A history of Geographical discovery 1931. p. 478.

بالسطحية والجهل . وفى نفس الوقت يتحمس له بعض الرحالة والمؤرخين ، فجيمس بروس الرحالة الإسكتلندى الذى زار الحبشة فى ١٧٧٠ ينصف بونسيه ويعتبر كتابه إضافة طيبة للمعلومات الجغرافية المعاصرة عن الحبشة[١] . بل ويرى J.T. Bent أن بونسيه فى كتابته عن الحبشة كان دقيقاً ، وأكثر دقة من بروس نفسه . وربما كان حكم D. Mathew وهو أكثر البحاث عناية بدراسة رحلة بونسيه — أدق جميع هذه الأحكام ، فهو يرى أن رغبة بونسيه فى تضخيم أهمية بعثته قد قادته إلى المبالغة فى تصوير الإمبراطور الحبشى وما حوله . وعلى كل فيبدو أن الآراء تكاد تجمع بصفة عامة على أنه رغم أهمية كتابة بونسيه عن الحبشه كشاهد عيان ، إلا أنه كان فى كثير من المواضع مخيباً للآمال التى عقدت على رحلته . وهنا يجب أن نتلمس الأسباب لهذا الفشل ، إذ يبدو أن بونسيه لم يكتب مذكراته إبان الرحلة ، بدليل تجنبه كتابة تواريخ الحوادث التى عاصرها فى الحبشة . بل أكثر من ذلك أنه يبدو أن بونسيه لم يكن ينوى الكتابة عن رحلته فى الحبشة على الإطلاق تاركاً هذا العمل لغيره ممن صاحبه من جماعة الجوزويت . ومن الثابت على كل حال أن بونسيه حين كتب هذه المذكرات اعتمد اعتماداً كلياً على ذاكرته . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى كان النجاشى يقيد حريته فى الاختلاط بالناس والتجول فى البلاد ، ربما خوفاً عليه من أذى الأهلين الذين كرهوا الأوربيين بعد التجربة البرتغالية فى بلادهم وللنشاط التبشيرى الذى كان يقوم به هؤلاء الأوربيين هناك — وكتابة بونسيه — مهما اختلف الرأى حولها — أهم ما كتب عن الحبشة فى الفترة ما بين طرد البرتغاليين من الحبشة ١٦٣٣ وزيارة الرحالة الإسكتلندى جيمس بروس لها فى ١٧٦٩ .

محمد أنيس

---

(١) Travels to discover the Source of the Nile 1768-73. Second ed. 8 vols. Vol. III. p. 506.

روميل : تأليف ديزموند يونج

طبعة كولنز عام ١٩٥٠ ، ٢٨٨ صفحة

Rommel. by Desmond Young. Collins 1950. 288 pages.

عندما نشر هذا الكتاب فى طبعته الإنجليزية ببريطانيا فى عام ١٩٥٠ تصدت إحدى الجرائد الإنجليزية لهذا الكتاب ووصفته بأنه ليس سوى ترتيلا يكيل الحمد والثناء على قائد الفيلق الأفريقى . وأن هذا يثلج صدور أنصار الدعاة إلى إعادة الروح البروسية الحربية فى ألمانيا مرة أخرى .

والحق يقال إن مؤلف الكتاب وهو جندى سابق أفلح فى إبراز نواحى روميل فى القيادة العسكرية . فلقد تجمعت فى هذا العبقري معظم خصال القائد المثالى وأولها العزم وقوة التصميم على القتال والشجاعة والمقدرة العقلية والقوة الطبيعية . . والمعروف أن القادة الممتازين ليسوا كالأمطار تسقط من السحب . فكم من عباقرة القادة أبرزتهم الحرب العالمية الثانية ؟ إنهم لا شك قلائل بين الأمريكان والبريطانيين واليابانيين والفرنسيين . . . وروميل أحد هؤلاء القادة . اتصف بالتبصر الممتزج بالجرأة والسيطرة على رجاله ونكران الذات وحضور البديهة مع الهدوء والاتزان فى مجابهة الأخطار

ولقد صادف هذا الكتاب من النجاح ما لم تنل مثله كتب التراجم الكثيرة التى ألفت عن غيره من قادة الحرب الأخيرة . وترجم إلى لغات شتى . ونشرت جريدة الأهرام له ترجمة طيبة فى أوائل عام ١٩٥٠ .

* * *

كتب مقدمة « روميل » الجنرال أوكنلك البريطانى خصم روميل فى الصحراء . وقد وصفه بأنه كان قائداً فوق مستوى القادة ــ وأن أفراد الفيلق

الإفريقى من قائد الفصيلة إلى قائد الكتيبة كانوا من الناحية التكتيكية . فوق مستوى البريطانيين تدريباً وكفاءة .

ومما يشجع على قراءة الكتاب . ذلك الأسلوب السلس الذى كتب به واعتماد المؤلف إلى الكثيرين من القادة الإنجليز الذين صمدوا أو تغلبوا أو انسحبوا أمام قوات هذا الخصم . واستمد منهم أدق المعلومات عنه . كما اتصل أيضاً ببعض الجنرالا ت الألمان الذين زاملوا روميل وعرفوه عن كثب . صديقاً ورئيساً أو مرءوساً لهم . كما أنه التقى بشريكة حياة القائد « فراو روميل » . وابنه مانفريد . ولذلك جاء كتابه ترجمة صادقة لحياة الجندى الكبير . وإن كانت تعوزه الدقة التى يتطلبها كتابة التاريخ الحربى .

* * *

تناول المؤلف حياة روميل منذ مولده فى هايدنهيم » بالقرب من أولم (نوفمبر ١٨٩١) . وتكلم عن نشأته العملية وهوايته للألعاب . كاد يكون مهندساً لولا تدخل والده فى مصيره . فانصرف الابن إلى حب الجندية والخدمة فى الجيش . مع أنه لم يكن أحد من أفراد الأسرة عسكرياً بالمهنة . إذا استثنينا خدمة أبيه فى الجيش مدة قصيرة «ملازماً» فى المدفعية . لكنه اشتغل بالتعليم فيما بعد

ويصف لنا المؤلف تطور حياة روميل من ضابط صغير فى سلاح المشاة واشتراكه فى الحرب العالمية الأولى . وخدمته فى جيش ألمانيا بعدها ثم انتقاله لمدرسة المشاة فى درسدن كمدرس فيها وندبه للعمل فى وزارة الدفاع ثم عودته للتدريس فى مدرسة بوتسدام الحربية وتوليه قيادة الكلية الحربية فى نيوستادت . واضطلاعه بأعمال أركان حرب إحدى الفرق المدرعة فى أثناء الهجوم الألمانى ضد فرنسا فى عام ١٩٤٠ — ٤١

ومنذ هذا التاريخ كان نجم روميل يلمع لمعاناً واضحاً واكتسب ثقة القيادة العليا . فولته قيادة المجموعة الألمانية فى إفريقيا عام ١٩٤٣ . وهنا تبرز كل مواهبه الحربية فى وضع الخطط والقيادة والإدارة . وظل مدة طويلة يلعب بقوات الحلفاء ويملى عليهم إرادته فى اتخاذ العمليات ولولا اشتغال ألمانيا فى عدة ميادين بعد اتساع جبهات القتال ولا سيما ضد روسيا لتحولت مجريات الأحداث العسكرية .

إن معظم صفحات الكتاب تتناول عمليات شمال إفريقية المعروفة والتى اشترك فيها العشرات من قادة بريطانيا — ويڤل — أوكنلك — ريتش — ويلسون — مونتجمرى وإسكندر وغيرهم . وهؤلاء كتب عنهم الكثير ولكن يمتاز كتاب ديزموند يونج بأنه يتناول الموضوع من الناحية الأخرى للتل أى من الناحية الألمانية .

لقد تجمعت ضد روميل كل طاقة الحلفاء الحربية وبعد هو عن قواعده الحربية ولذلك تعذر إمداده بالعتاد والوقود والرجال فكان أن تم له الانسحاب المنظم أحياناً أمام اكتساح الحلفاء الحربى .

ولما استعد الحلفاء للهجوم فى غرب أوربا كان قد منح رتبة الماريشال ثم عين قائداً لقطاع هام . لكنه رأى شبح الهزيمة ماثلا أمامه . ولم يستطع عمل أى شىء سوى أن يقاتل ويؤدى واجبه نحو الرايخ .

وأصيب روميل فى أثناء وجوده بالجبهة وعاد إلى ألمانيا حيث عولج لكنه توفى فى ظروف ما زالت غامضة . . .

عبد الرحمن زكى